



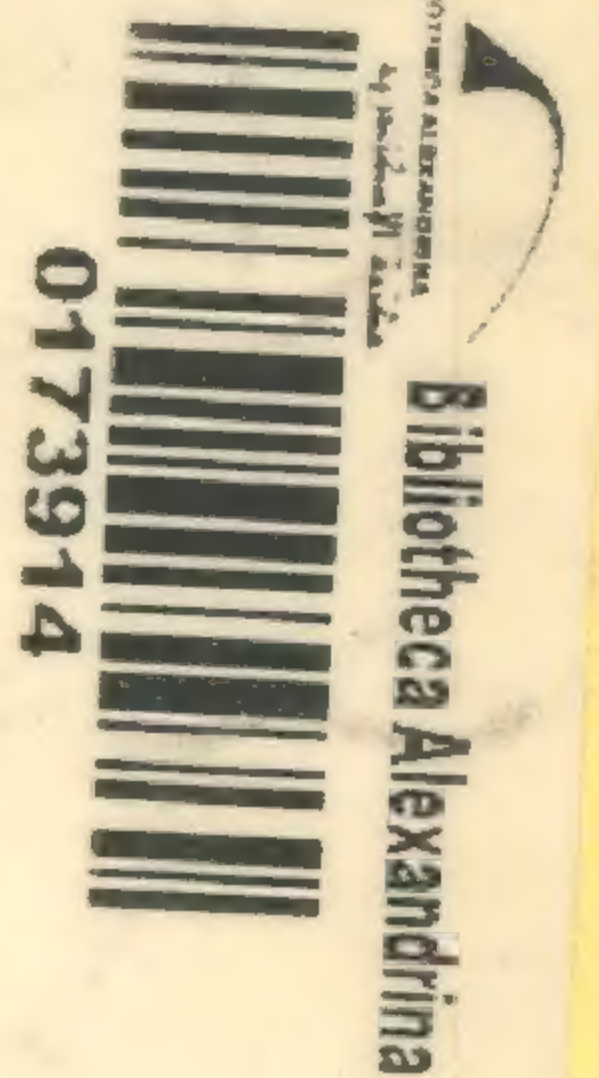
مذاهب وشخصيات



ماوتسي تونج

حياته وعصره

بقلم روى مال جرجبور هاسي
ترجمة حسين الحوت
مراجعة محمد حافظ



اهداءات ٢٠٠١

١. صلاح راتب

القاهرة

مذاهب و شخصیات

فَاوِشِیْ نَوُج

حیات و عصره

بقلم: روی ماک و جرجور هاسٹی

ترجمہ: حسین اکھوت

مراجعة: حمادی حنافظ

تقديم

فى اواخر القرن الثامن عشر انتقل ماكارتنى ، اول سفير بريطانى فى بلاط اباطرة المانشو ، من تينتنسن الى بيكين ، لتقديم اوراق اعتماده ، فى زورق ثبتت على ساريته لافتة كبيرة كتب عليها « احد البرابرة الحمر يحمل الجزية » . ذلك ان اباطرة الصين كانوا يقسمون البشر قسمين : « الصينيون » أى المتحضرون ، « والبرابرة » أى الهمج الذين لم ينالوا نصيبا من الحضارة وهم فى نظر الصينيين كل من عداهم من الأجناس ، ولما كان الاوروبيون من هؤلاء الهمج ، فقد أطلق عليهم الصينيون اسم « البرابرة الحمر » . وكان المفهوم لديهم ان صوابا أو خطأ ان الصين هى الدولة الوحيدة العظيمة فى العالم وان كل ما عداها بلاد تابعة تحمل الجزية لاباطرة الصين دليل الولاء والاخلاص ، وحتى البريطانيون على قوتهم وسيطرتهم على البحار كانوا فى نظر الصينيين من بين هؤلاء البرابرة الحمر .

وفى ٢٢ من يوليو ١٨٦٨ وقف النائب الامريكى ن . ب . بانكس يلقي خطابا فى الكونجرس بمناسبة شراء امريكا لشبه جزيرة الاسكا من روسيا فقال : سوف يكون المحيط الهادى مسرحا لمدينة العصور القادمة ، وسوف يصبح ميدانا لمعارك الغد الكبرى ، وسوف تصب فى بوتقته نظم العالم القادمة ، وسوف يكون فى هذا المحيط الاعظم تقرير مصير عالما الحاضر ، وسوف يبطل الحديث عن مدينة أوروبا ومقدراتها ، اذ تقوم على شواطئ هذا المحيط مدينة أعظم شأنًا ومصيرها للعالم أجل خطرا .

وفى العصور الأخيرة من القرن التاسع عشر كان مستقبل الصين يعرض للمناقشة وتقرير المصير ، لا فى بيكين ، ولكن على الموائد المستديرة بين دبلوماسى الغرب فى لندن وباريس وموسكو وبرلين .

وفى مطلع القرن العشرين أصبحت قوة امبراطورية الصين أضحوكة تتندر بها الدوائر الدبلوماسية الغربية فتقول « ان قوة الصين تعادل قوة الاسطول السويسرى » ، أى أنها تساوى صفرا .

وفى الاول من اكتوبر عام ١٩٤٩ وقف ماوتسى تونج فى ميدان تين آن مين يعلن قيام جمهورية الصين الشعبية ثم يردف قائلا : « والآن فليحذر أعداء الجمهورية داخل الصين وخارجها » .

ومنذ عهد قريب سأل أحد الامريكيين السفير الروسى فى واشنطن عما اذا كان من الأفضل ان يعلم ابنه اللغة الروسية ، ورد السفير قائلا : « ان كنت متفائلا فيمكنك ان تعلمه الروسية ، أما ان كنت متشائما فخير

لك ان تعلمه الصينية ، . تلك تعليقات بعض كبار الرجال على الصين ،
فما هذه البلاد التي تضم ستمائة وعشرين مليوناً من البشر ، ومع ذلك
لا تزال لفرا أمام سياسة الدول : من اهلها ؟ وما اهدافهم ؟ .

هذا ما يحدثك عنه روى ماك جريجور هاستي مؤلف الكتاب ، ولكن
المؤلف لم يبدأ قصة الصين من اولها ، اذ بدأها منذ عهد الاحتكاك بين
الصين وأوربا ، ولما كانت هذه البلاد ذات تاريخ موغل في القدم ، اذ
عاصرت حضارتها حضارة الفراعنة في وادي النيل ، وحضارة الساميين
من بابليين وكلدان وآراميين في وادي الرافدين وبقية الهلال الخصيب ،
لذلك رأيت أن أقدم للقارئ نبذة من تاريخ الصين منذ نشأتها ، ثم انتقل
به عبر العصور حتى عهد الاحتكاك بين الصين وأوربا وهي نقطة ابتداء
المؤلف ، وبذلك يستطيع القارئ أن يكون صرورة واضحة عن هذه
البلاد .

نبذة تاريخية

سكان الصين يتكونون من خمس مجموعات عنصرية وهي العنصر الصيني الأصيل والمغولي والتبتى والتركي والمنشورى . ويقول بعض المؤرخين ان الصينيين هاجروا الى الشرق أولا من أواسط آسيا حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد فأخذوا يفلحون الأرض فى أحواض أنهار الهوانج هو واليانجتسى وغيرها ويزرعون الحبوب ويستأنسون الحيوان ويصنعون الأوانى الخزفية .

وتقول الأساطير الصينية ان أول من حكم الصين اثنا عشر ملكا سماويا ثم خلفهم نسلهم من ملوك الأرض ، وأول امبراطور صينى عرفه التاريخ هو الامبراطور هوانج تى أو الامبراطور الأصغر الذى يظن أنه عاش حوالى ٢٧٠٠ ق . م . وعلم الصينيين دراسة الفلك وصناعة الحرير . وأهم الأسرات الحاكمة فى الصين القديمة أسرة شانج التى تقدمت فى عهدها الكتابة الصينية وازدهرت صناعة الحرير ، وفى عهد أسرة تشو التى حكمت الصين فيما بين ١١٢٢ ، ٢٥٦ ق . م . اتسعت البلاد اتساعا عظيما وكان الامبراطور يملك السلطتين الروحية والزمنية وفى عهد هذه الأسرة ظهر كبار المعلمين من أمثال كنفوشيوس مؤسس الكنفوشية ولاوتزو مؤسس الطاوية ، وانتقلت الصين من العصر البرنزى الى العصر الحديدي وارتقت الفنون والصناعات وتحسنت وسائل الري والزراعة واستخدمت النقود المعدنية .

وفى عهد أسرة تشن التى خلفتها أنشأ الامبراطور شيه هوانج تى سور الصين الكبير حماية للحدود الشمالية من غارات البرابرة (المغول فى ذلك الوقت) .

أسرة هان ٢٢٠ - ٢٠٦ ق . م .

فى عهد أسرة هان امتدت امبراطورية الصين من منشوريا وكوريا شمالا الى أنام وتونكين جنوبا ومن المحيط الهادى شرقا الى هضبة البامير غربا وكانت امبراطورية هان فى الصين معاصرة للامبراطورية الرومانية وتضارعها مساحة وسكانا . وفى عهد هذه الأسرة اخترع الصينيون صناعة الورق ونهضت الموسيقى والرسم والحفر وتعلم الفلاح الصينى نظام الدورة الزراعية . وأتقنوا صناعة الخزف وطلاءه وأخترعوا آلة قياس الزلازل (السيسموجراف) وفى العصر التالى اخترعوا البوصلة للبحرية وتعلموا صناعة الزجاج من البارثيين وبدعوا يستخدمون الفحم كوقود .

وفي عهد أسرة تانج (٦١٨ - ٩٠٧ ميلادية) تم جمع القوانين وتقسيم الصين وحدات ادارية وابتداع طريقة عقد اختبارات المسابقة لاختيار الموظفين ذوي الكفاية . كذلك أنتج الصينيون أول نوع من البارود وعرفوا طريقة استخدام المكبس في الطباعة . وفي عهد هذه الأسرة ولدت الديانات الأجنبية على الصين من مسيحية واسلام ومنوية وزرادشتية وكانت أوسعها نفوذا البوذية .

وفي عصر أسرة سونج (٩٦٠ - ١٢٧٩ ميلادية) طرأ على الطباعة تحسن كبير باستخدام الحروف المتحركة وبلغت صناعة ونقش الاواني الخزفية درجة رفيعة من الفن وعرف الصينيون استعمال القطن واستخدام البارود في العمليات الحربية .

أسرة مينج ١٣٦٥ - ١٦٤٤ م .

ثار الصينيون على حكامهم المغول وأسقطوا دولتهم وتأسست أسرة مينج التي ضمت اليها منشوريا ، وأصبحت كوريا ومنغوليا وبورما دولا تابعة لها . وأرسل أباطرة مينج حملات بحرية الى جنوب شرقى آسيا وجزر الهند الشرقية (اندونيسيا) والهند وسيلان وبلاد العرب وافريقية .

النفوذ الاوروبى يبدأ فى الصين

فى عهد أسرة مينج أخذ « البرابرة » ذوو الشعر الأحمر والانف الطويل ، والمقصود بهم الاوروبيون يغفرون على سواحل الصين ، ثم جاءت البعثات التجارية الاوروبية الى مدينة كانتون لتبادل منتجات الصين من الحرير والخزف ومواد الترف بالسلع الاوروبية ، وبدأت البعثات التبشيرية المسيحية تفد على الصين وبخاصة اليسوعيون ثم تبعهم البروتستانت .

امبراطورية المانشو ١٦٤٤ - ١٩١١

المانشو قبائل من التتار كانت تقطن منشوريا وقد استطاع زعيمها نورهاشو أن يشق عصا الطاعة على أسرة مينج ، ثم أغار هؤلاء التتار على بيكين فسقطت فى أيديهم عام ١٦٤٤ وأسسوا أسرة المانشو التي ظلت تربع على عرش التنين حتى عهد الثورة الصينية عام ١٩١١ .

اول اتصال بين اوربا والصين

فى عهد أسرة هان كان للرومان تجارة واسعة فى السلع الصينية خصوصا الحرير ، وكانت الطرق البرية تسير من خنجان فى غربى الصين الى بحيرة لوب نور وحوض نهر تاريم وتنتهى فى انطاكية ، كذلك اتخذ الرومان الطريق البحرى للتجارة مع الصين فكانت تجارتهم تنتقل الى البحر الأحمر فالمحيط الهندى الى بحار الصين الجنوبية ، وظل الحال كذلك حتى قامت الامبراطورية الاسلامية فانتقلت التجارة الى ايدى العرب ومن دخل فى الاسلام من الشعوب الأخرى ، واستمر هذا الوضع من

القرن الثامن الى القرن السادس عشر الميلادى حيث افلح البرتغاليون فى كشف طريق جديد الى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول رأس الرجاء الصالح فى جنوبى افريقيا .

انجلترا والاتجار مع الصين : -

بعد أن افلح البرتغاليون فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح على أيدي فاسكو دا جاما والفونسو دى البوكيرك احتكروا الاتجار مع الهند وجنوبى آسيا والصين . ولكن بعد أن استقر الانجليز فى الهند وجهوا ضرباتهم الى الاحتكار البرتغالى للتجارة مع الصين . وبدأت التجارة المنظمة بين انجلترا والصين فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر.

أمريكا والاتجار مع الصين

بعد أن تخلصت المستعمرات الأمريكية من الحكم البريطانى سارعت السفن الأمريكية الى دخول ميناء كانتون ، وكانت أول سفينة أمريكية أبحرت الى الصين عام ١٨٧٥ هـ امبراطورة الصين ، وكانت السفن الأمريكية تنقل الى الصين الخمر والمصنوعات الحديدية والفراء وتنقل منها الحرير والشاي والخزف والأثاث .

تدفق الاوروبيين على الصين فى القرن السابع عشر

فى القرن السابع عشر أصبحت تجارة كانتون احتكارا للبرتغاليين وفى عام ١٦٨٤ زاحمهم الانجليز فى هذه التجارة ، وما بدأ القرن الثامن عشر حتى كانت تجارة كانتون قسمة بين الدول الاوروبية فدخل فى التسابق على تجارة الصين كل من انجلترا والبرتغال وأسبانيا وهولنده وفرنسا بالإضافة الى أمريكا .

بلد النزاع بين الصينيين والأوروبيين - حرب الأفيون

أفزع الصين تدفق الاوروبيين عليها ففرضت الحكومة قيودا شديدة على التجار الأجانب وهذه القيود جعلت التجار الاوروبيين يجارون بالشكوى الى حكوماتهم . ولعل تجارة الأفيون كانت هى السبب الرئيسى فى النزاع الذى نشب بين الصين وبريطانيا . فقد أدخل البحارة الاوروبيون عادة تدخين الأفيون فى الصين منذ القرن السابع عشر وانتشرت هذه العادة بسرعة فى جميع أنحاء البلاد ولما سنت حكومة الصين تشريعا يقضى بتحريم تجارة الأفيون اعترضت بريطانيا ومن هنا بدأت سلسلة من النزاع المسلح المعروف فى التاريخ باسم حرب الأفيون .

الفصل الأول

الانجليز ليسوا بأى حال أذكى الشعوب ولا اشجعها ، لا ولا أجملها ، ولكن لا شك انهم أكثر الشعوب أهلا للتقدير والاعتبار .

بهذه العبارة امتدح أحد الساسة الفرنسيين فى أواخر القرن التاسع عشر الشعب الانجليزى ، وان كان مديحه لا يخلو من شائبة من النقص فى هؤلاء القوم .

كان لذلك المديح مناسبة ، فقد ساعدت فرنسا الولايات المتحدة الامريكية فى حرب الاستقلال ضد الامبراطورية البريطانية ، وكان أمل فرنسا من هذه المساعدة أن تعجل باضمحلال هذه الامبراطورية ثم سقوطها نهائيا .

ولكن خاب فال فرنسا ، فان بريطانيا بدلا من محاولة غزو الجمهورية الامريكية الناشئة بقوات جديدة أو فرض حصار بحرى عليها يكلف بريطانيا أموالا طائلة بدلا من كل ذلك ولت بريطانيا وجهها شطر المشرق ، ذلك أنها بعد أن فقدت امبراطوريتها فى أمريكا أرادت أن تعوض الخسارة بإنشاء امبراطورية غيرها فى آسيا لم تضيع بريطانيا وقتا فى البكاء والعيول وندب حظها العاثر فى أمريكا ، بل وجهت سفنها ورجالها لاستعمار استراليا ونيوزيلندة والجزء الأكبر من جنوب شرقى آسيا وعديد من الجزر فى المحيط الهادى ، لا بل انها بدأت توجه اهتمامها الى الصين .

ان هذه المرونة البريطانية أدهشت فرنسا . ذلك ان نقطة الضعف فى الفرنسيين بصفتهم شعبا استعماريا هى انهم فى كل مرة يخسرون المباراة السياسية يضيعون ربع قرن فى جدل لا طائل دونه مع الحكم الذى أصدر قراره بهزيمتهم فى المباراة .

كانت الهند حجر الزاوية فى الاستعمار البريطانى فى الشرق ، وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية تهيم وسائل الراحة والاقامة للقوات البريطانية والسياسيين البريطانيين الذين تبعث بهم الحكومة البريطانية لبناء امبراطوريتها الجديدة فى الشرق الأقصى . ولما أصدرت هذه الحكومة البريطانية أوامرها الى شركة الهند الشرقية بأن تتجه نحو الشرق بقصد التوسع الاقتصادى أو السياسى ، بادرت الشركة بإرسال سفنها ورجالها الى شبة جزيرة الملايو والى سواحل الصين . وعاد هؤلاء الرسل يحملون بشرى الآمال التى يبعثها الاتجار مع هذه البلاد وخاصة مع الصين . وهنا أسر أحد القباطنة الانجليز قائلا : ان الصينيين شعب متأخرو لكن اراضيهم فسيحة الارحاء وهى مكان طيب لزراعة الخشخاش : وقصده من ذلك أن الصين سوف تكون سوقا ذات أرباح هائلة من تجارة الأفيون ، الذى كان

الانجليز ينتجونه بكميات كبيرة فى الهند ليبيعه فى الشرق دون الغرب .
فى عام ١٧٨٧ أعدت أول شحنة من الأفيون فى دلتا نهر بيرل وصدرت
للبيع فى مدينة كانتون والغريب أن بيع هذه الكمية الضخمة لم يستغرق
إلا اسبوعا واحدا فقط . وفى مدى خمس سنوات كان هناك خط ملاحه
بحرية ، منتظم بين كلكتا وكانتون لتصدير الأفيون من مزارعه فى الهند
الى بلاد الصين . كانت السفن التى تحمل الأفيون الى الصين تعود محملة
بالحرير والشاي لتشحن مرة أخرى من الهند الى بريطانيا . ولم يات عام
١٧٩٠ حتى كانت السفن الانجليزية قد تقدمت على طول الساحل الصينى
حتى بلغت تينتنسن وبيكين .

وفى عام ١٧٩٢ تراءى للحكومة البريطانية أن حجم تجارتها مع الصين
أصبح يدعو الى اعتماد سفير لها فى بكين . وقدرت بريطانيا أن هذا أقل
ما تقدمه للصين ، ولا بد أن امبراطور الصين سوف يعتبر أنه حظى بشرف
عظيم وأن السفير البريطانى سوف يكون موضع ثقة . وقد يكون الحظ
مواتيا فيصبح النفوذ البريطانى فى مجلس الامبراطور بحيث يجعل من
الصين حليفا طيعا خاضعا لبريطانيا .

غير أن امبراطور الصين ، وكان فى ذلك الوقت من خيرة أباطرة
المانشو ثقافة ، لم يكن قد سمع عن بريطانيا العظمى ، وعلى فرض أنه علم
بأن بريطانيا أقوى دولة فى العالم ، فما كان ليقر ذلك . ذلك أنه يقسم
سكان العالم فريقين « الصينيون والبرابرة » . قد يحتمل الامبراطور
هؤلاء البرابرة اذا اتجروا معه ودفعوا له الجزية أو الضرائب ، ولكن لا يريد
أن يتقدم خطوة أخرى فى تعامله معهم أو مع ملوكهم الهمج .

لقد دهش امبراطور الصين حينما سمع أن ملك بريطانيا قد أرسل
له سفيرا فهو لم يسبق له أن طلب من ملك بريطانيا ذلك . وماذا يمكن
أن يستفيد من وجود ذلك الهمجى الذى لا يدرى شيئا من آداب السلوك
فى البلاط الامبراطورى الصينى ، ولا شك أنه يجهل اللغة الصينية وهى
اللسان الملهذب الوحيد على وجه الارض ، كما أنه قد يسبب مشكلات من
اتصاله بالحرير ؟

ولذا قرر الامبراطور أن يكون اتصاله بالسفير البريطانى الجديد على
أقل مستوى تسمح به المجاملة ، وحينما وصل ماكارتنى السفير البريطانى
قرب سواحل الصين ، ذهب موظف صغير فى البلاط الامبراطورى لاستقباله .

وقد وجد الصينى هذا السفير البريطانى ثائرا ساخطا ، يعتقد أن
إرساله الى بكين ليس الا مؤامرة من زملائه فى الهيئة الدبلوماسية
البريطانية ، أو أن تعيينه فى منصبه هذا نوع من التحقير . لقد
أركبوه زورقا الى بكين وكان على سارية الزورق لافتة صغيرة عليها كتابة
صينية . سأل مرافقه الصينى عما تعنيه هذه الكلمات الصينية فرد المرافق
قائلا : أن معناها هو « أحد البرابرة الحمر يحمل الجزية » وهنا شعر السفير
ماكارتنى بسهم أصاب عزة نفسه .

لقد كانت العلاقات بين السفير وبين الامبراطور فى توتر دائم . ذلك
أنه كان للامبراطور الصينى صديق يرتغالى يلزم القصر ، وكان هذا

البرتغالي يسم الجوبين أباطرة المانشو والانجليز بوجه عام، وماكارتني بنوع
أخص . لقد كان البرتغاليون في الصين منذ مائة سنة وليس هناك من
ينافسهم ، فكيف لهؤلاء الانجليز اليوم يدخلون معهم ميدان المنافسة ؟ .

بعد شهر من وصول ماكارتني الى بيكين نسلل يومسا الى داخل
القصر الامبراطوري ومر بجماعة من موظفي البلاط الذين أذهلتهم هذه
المفاجأة وفي أثناء وجوده في القصر ترك مذكرة خاصة للامبراطور تحتوى
على « أدنى مطالب صاحب الجلالة البريطانية » وهى تتلخص فيما يلى :-

١ - ان توافق حكومة بيكين على قبول ملحق تجارى بريطانى فى
بيكين على أن يسمح له بالمثل بين يدى الامبراطور عند اللزوم ، وذلك
لكى يشرف على مصالح التجار البريطانيين .

٢ - فتح باب الاتجار الحر امام البريطانيين فى ننجيو وشنغهاى
وتينتشن .

٣ - التنازل للحكومة البريطانية عن جزيرة أو اثنتين من مجموعة
جزر تشوسان يستطيع التجار البريطانيون الاقامة فيهما دون أى تدخل
من السلطات الصينية .

٤ - منح البريطانيين الحق فى انشاء مخازن للبضائع خالصة من
الرسوم الجمركية على طول الساحل الصينى .

٥ - تخفيض رسوم الشحن من كاو البرتغالية الى كانشون .

ولم يسع الامبراطور الا أن يرفض قبول المذكرة البريطانية لما فيها
من اهانة لشخصه وبسبب تحريض صديقه البرتغالى له . وهنسا يبادر
ماكارتني بتوجيه رسالة الى لندن يلح فيها على حكومته باعلان الحرب على
الصين فورا . ولكن بريطانيا كانت حينذاك مشتبكة فى معركة عنيفة مع
خصمها الشديد التباس نابليون ، واذن فليس لديها متسع من الوقت للقيام
بمغامرات فى الصين .

ثارت نائرة ماكارتني ووهنت عزيمته فقبع فى كانتون لى انتظار
ما تفعله به حكومته . لقد اتخذ بعض اصدقاء من الصين وعشيقه صينية
وأقن لعب الشطرنج ويشاع أنه (عكف على تدخين الأفيون) .

لقد مات ماكارتني قبل أن تتم هزيمة نابليون فى واترلو . ولكن
بريطانيا لم تنس موضوع الصين ، ففي ١٨١٦ بعثت بريطانيا بلجنة
استطلاعية لدراسة الموقف . وقد ثبت للجنة أن الصين « تحت حكم يكاد
يكون اقطاعيا » فالامبراطور حاكم مطلق ، وبلاده مقسمة الى أقاليم يحكم
كلا منها حاكم يحمل لقب « نائب الامبراطور » وبعض هؤلاء الحكام من
الأسرة الامبراطورية وغيرهم من الاقطاعيين المحليين أو من أمراء الحرب .
وكانت الأراضى الزراعية شركة بين المالك وفلاحيه ، على أن يفوز المسالك
بنصيب الأسد ولا ينال الزراع الا التافه القليل ولم يكن هناك أى ضمان
للملكية الارض ، وكلما ازداد الفلاح فقرا ثقل عبء الضرائب عليه . والزراع
الأجراء كانوا يدفعون الايجار عينا مما تغله الأرض التى يزرعونها . ولاحظت

اللجنة البريطانية أن ضريبة الارض ترتفع أو تنخفض تبعاً لما بين صاحبها وبين جباة الضرائب من روابط وصلات . أما فلاحه الارض فتجرى بآلات زراعية بدائية . والغزل والنسيج يتمان في المنازل على مناسج يدوية للاستهلاك العائلي ، على أن يباع الفائض في الاسواق المحلية . ولما كان الفلاح الصينى وعائلته يعملون ست عشرة ساعة يوميا في الحقل ، فلم يبق لدى النساء من القوة والنشاط مدخر للغزل أو للجلوس الى المنسج . وهكذا لم يكن لدى الاسرات الصينية أى فائض من الغذاء أو الكساء لي طرح في السوق .

ولم يكن على الزراع أن يقدموا ايجار الاراضى ويدفعوا الضرائب المطلوبة فقط ، بل عليهم أداء الخدمة العسكرية تنفيذاً لتعليمات نائب الامبراطور . ولم يكن الفلاحون المجندون يتناولون أجراً . والحاكم وكثير من أعيان الاقاليم يحتفظون بجيوشهم الخاصة ، وبعض أمراء الحرب في شمالى الصين يحتفظون بقوات عسكرية كبيرة يؤجرونها لمن شاء أثناء الحروب التى لم تنقطع بين أقاليم الصين المختلفة . وكان الامبراطور يبيع بعضاً من هذه الحروب الأهلية على اعتبار أنها « عملية فصد » تخرج الدم الفاسد وتستبقى الجسم صحيحاً ، مادام لم يعتقد أحد على سلطات الامبراطور .

وبالاختصار كان الزراع البؤساء بين تلبية أوامر حكام الاقاليم وأوامر الحرب كأنهم بين شقى الرحى .

وقد لاحظت اللجنة البريطانية بارتياح كبير أن الامبراطور قد منع « تنمية نظام المصانع الكبيرة » ذلك أن صديقه البرتغالى أفهمه أن « الرأسمالية » تجر فى أعقابها آراء خطيرة مثل فكرة الديمقراطية . فاقصر الأمر على المصانع الصغيرة لعمل قوالب الشاي وصهر الحديد وصناعة الخزف ونسج الحرير ، على أن تفرض قيود قاسية شديدة على أى اتجاه نحو التوسع فى الانتاج . وكانت هناك مكاتب حكومية (يامن) منتشرة فى كل أنحاء الصين لمراقبة عدم توسيع المنشآت الصناعية الصغيرة . ويحرم على أى صاحب مصنع نسيج أن يمتلك أكثر من مائة منسج . وكانت الحكومة تجبى من كل منسج شغال ضريبة قدرها ٥٠ أوقية من الفضة . وهذا يشل حركة صناعة النسيج لأن متوسط دخل الفلاح الصينى لم يزد عن أوقية واحدة من الفضة أسبوعياً .

وأخيراً أوصت اللجنة الحكومة البريطانية بأن تعيد الاتجار مع الصين فوراً وأكدت اللجنة أنه لن تكون هناك منافسة ، وأشارت بعدم المطالبة بامتيازات تجارية خاصة لأن مثل هذا الطلب لن يجاب ، ولكن جهاز ادارة الدولة كان من الفوضى بحيث أن البريطانيين يستطيعون الحصول على هذه الامتيازات دون أى تدخل من حكومة الصين المركزية .

وفى خلال العقدين الثالث والرابع من القرن الثامن عشر « اتسع حجم التجارة البريطانية فى الصين اتساعاً كبيراً . ولكن أنواع السلع المشحونة لم يطرأ عليها أى تغيير . كانت أكثر السلع الواردة على الصين ربحاً الأفيون ، فسوق هذه السلعة رابحة فى الصين ، ولم يأت منتصف القرن الثامن عشر حتى كانت غالبية الارستقراطية الصينية وكثير من الموظفين .

ونسبة عالية من الضباط من بين مدمني الأفيون . ولم يكن بين الصينيين من يعارض تجارة الأفيون ، فالمعارضة إما أنها صغيت من تلقاء نفسها أو قضى عليها .

كانت تجارة الأفيون كارثة كبرى على الاقتصاد الصيني . ذلك أن البريطانيين كانوا يصرون على أن تدفع اليهم أثمان هذه السلعة الحبيثة من سبائك الفضة ، وفي سنة ١٨٣٥ صدر من ميناء كانتون وحده ثلاثون مليون أوقية فضة (الأوقية الصينية تساوي $\frac{1}{3}$ أوقية انجليزية) ثمنها للأفيون المستورد . وكانت الأوقية من الفضة تساوي ١٦٠٠ قطعة نحاسية في عام ١٨٣٨ مع أنها قبل ذلك بعشر سنوات كانت تساوي ١٢٠٠ قطعة فقط . ويلاحظ أن الفلاحين كانوا يدفعون الضرائب بالفضة ولكنهم يتناولون أجورهم بالقطع النحاسية ، والنتيجة الطبيعية لذلك هي هبوط مستوى معيشة الفلاح بنسبة الثلث . ولم يقتصر الأمر على الفلاحين فموظفو البلاط الإمبراطوري الذين كانت دخولهم من الأرض الزراعية وجدوا أن ثروتهم تنقص بسرعة أكثر مما يتصورون ، ولقد اشتكى أحدهم وهو لينى تسي رهسو إلى الإمبراطور تاو كوانج محتجا على هذا الفارق الكبير بين أسعار الفضة والعملة النحاسية ، وبعد سبل من الاحتجاجات وافق الإمبراطور على التصريح إلى لينى تسي رهسو « باتخاذ الإجراءات » ولكن احتياطي الصين من سبائك الفضة كان يتضاءل باستمرار ، والبلاد كلها أخذت تنحدر إلى الشلل الاقتصادي .

وفي ربيع ١٨٣٩ وصل لينى تسي رهسو إلى كانتون وأصدر أوامره إلى القبطان اليوت المراقب التجاري البريطاني بأن يسلم جميع ما لديه من الأفيون . ولما رفض اليوت الأذعان ، قابل لينى هذا الرفض بمحاصرة البريطانيين في مستودعات البضائع البريطانية . ولما نفدت كميات الأغذية والماء من المستودعات البريطانية لم يسع القبطان اليوت إلا التسليم وفي يوم ٣ من يونيو ١٨٣٩ أحرق لينى تسي رهسو على الشاطئ عشرين ألف صندوق من المخدر (الأفيون) وظلت النار مشتعلة في الأفيون طوال عشرين يوما . وقد سمي الشاطئ منذ ذلك الحين «شاطئ الأسماك النائمة (المخدرة)» .

وفي يوليو قتل بحار بريطاني مواطنا صينيا كان على حد قول البحار «يتجسس» على الأسطول التجاري البريطاني في أثناء الليل . ولما طلبت السلطات الصينية تسليم هذا البحار القاتل لمحاكمته رفض القبطان اليوت إجابة الطلب واستدعى لحمايته سفينتين حربيتين بريطانيتين كانتا راسيتين على بعد من كانتون وكلفهما إطلاق النار بين الزوارق الصينية الراسية في مياه نهر بيرل بصفة انذار ، وهنا ثار أهالي كانتون وانتقموا بأحراق اثني عشر مستودعا بريطانيا . وهنا انسحب الأسطول التجاري البريطاني ومعه السفينتان الحربيتان خارج الميناء . وقد طير الخبر إلى بريطانيا فقامت الحكومة البريطانية من جانبها بإعلان الحرب على الصين فورا .

وفي يونيو ١٨٤٠ وصل أسطول بريطاني فتجنب مدينة كانتون التي كانت وسائلها الدفاعية قوية واستولى على ميناء تنجهاى على ساحل تشيكيانج وهي لا تقل أهمية عن كانتون .

ولما بلغت مسامع الامبراطور انباء سقوط تنجهاى فى أيدي الانجليز استولى عليه الفرع فاعى لينى من قيادته المؤقتة للقوات المسلحة الصينية وأخذ يستشير حاشيته . وقد أشار عليه تشى شان حاكم شيهلى وأعظم أمراء الحرب قوة و ثراء ، أن يتفق مع الانجليز ، لانه سمع بأن أسطولاً حربياً بريطانياً فى طريقه الى تينتنسى وهى على مقربة من بكين .

وقد اجتمع تشى شان مع رجال الاسطول البريطانى فى تينتنسى واتفق مع أميرال الاسطول على فتح باب المفاوضات لعقد معاهدة صلح وصدقة بشرط أن يعود الاسطول أدراجه الى كانتون .

وحينما وصل تشى شان الى كانتون أمر بتجريد المدينة من كل وسائلها الدفاعية وبدأ مفاوضات الصلح . وقد خشى البريطانيون من أن يخدعهم الامبراطور فأرسلوا قوة برية من مشاة البحرية للاستيلاء على تشينكيانج ونانكنج وفى ٢٩ من أغسطس ١٨٤٢ حينما كانت القوات البريطانية على وشك دخول نانكنج بادر تشى شان بوقف المساومة ووقع معاهدة نانكنج التى أنهت حرب الأفيون الأولى ، وكانت حدثاً هاماً لكل من الصين وبريطانيا .

فقد نصت المعاهدة على الاعتراف بأن لبريطانيا المركز الاول بين الدول التى تتجرع مع الصين . وتقرر فتح خمس موان بصفة مستمرة للرعايا البريطانيين سواء للإقامة أو للتجار وهذه الموانى هى : كانتون وفوشو وآموى وننجبو وشنغهاى . وتنازلت الصين عن هنج كنج لبريطانيا وأصبحت مستعمرة بريطانية . كذلك تقرر أن يتم تحديد الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات الصينية بواسطة لجنة صينية - بريطانية على أن يكون للبريطانيين وحدهم حق الاعتراض على قرارات اللجنة . ولا يصح أن تزيد الرسوم الجمركية عن ٥٪ بأى حال من الأحوال . وألا يخضع الرعايا البريطانيون الا للقوانين الانجليزية حتى ولو كان النزاع بينهم وبين الصينيين .

والنص الأخير هو تعهد الامبراطور بأن يدفع مبلغاً قدره واحد وعشرون مليون دولار فضى كتعويض لاحتراق الأفيون البريطانى على «رمال الاسماك النائمة» . لقد كانت معاهدة تسليم غير مشروط لا ينقصه الا النص الصريح .

ولما علمت فرنسا والولايات المتحدة بشروط هذه المعاهدة بادرتا بإرسال مبعوثين الى البلاط الامبراطورى . فقامت فرنسا باقراض الامبراطور المال اللازم لتسديد الغرامة فى مقابل امتيازات تجارية مماثلة لتلك التى حصلت عليها بريطانيا ومنحها الحق فى التبشير بالكاثوليكية فى الصين . وقد تم الاتفاق على ذلك فى معاهدة هوامبوا .

أما أمريكا فقد قنعت بمساعدة وانجهاى التى حصلت بمقتضاها على ما يقرب من مثل الامتيازات التى منحت لبريطانيا .

ان معاهدة نانكنج ، ولو أنها كانت كارثة على الصين الا أنها لم

تخل من أهمية • ذلك أن الشعب الصيني بأكمله استنكر هذا الاذلال ، ولقد عمد سكان المدن الخمس التي منح فيها البريطانيون حق الإقامة والاتجار الى الاضطرابات وأعمال العنف طوال عشر سنوات • وفي كانتون وحدها بلغت أعمال العنف واتلاف الممتلكات البريطانية من القسوة حدا أصبح من المستحيل معه الوصول الى تسوية الا بعد أن عين ضباط بريطانيون لقيادة بوليس المدينة وإعادة النظام •

وكان أهم من ذلك كله شعور الاستياء العام ضد الامبراطور خاصة وحكم أسرة المانشو بوجه عام •

ان الامة اذا ما بدأت تتشكك في أن الملوك لهم « حق الهى » في الحكم ، فهذا دليل على بداية الثورة أو على الأقل بداية الاصلاح • فعندما اعترض البريطانيون على حق شارل الاول في الحكم دون استشارة البرلمان ، كانت هذه هي الخطوة الاولى على الطريق الذى أدى الى الحرب الاهلية وقيام الملكية الدستورية •

كذلك كان الحال في الصين ، فان الشعب الصينى ما ان ارتاب في مسلك الامبراطور في حرب الافيون الاولى حتى تواردت على ذهنه سلسلة من الأسئلة التى أدت فى النهاية الى الثورة ، وما تلا ذلك من قيام حكومة شيوعية على أساس الحزب الواحد •

كان أول احتياجات الطبقة المستنيرة في صيغة التماسات مقدمة الى الامبراطور وتقديم المشورة الى المسئولين عن حكومة البلاد • لقد رأى ويه يوان ان الرد على عجز الصين في مواجهة بريطانيا هو دراسة أساليب البريطانيين في الحياة والعمل • وكان هو أول من دعا الى الأخذ بالأساليب الغربية ، وألف في ذلك كتابا اسمه « تاريخ وجغرافية البلاد الاجنبية » أورد فيه موجزا لما حققته أوروبا من تقدم اقتصادى وتكنولوجى • أما أصدقاء ويه يوان فقد جاوزوا حد الاعتدال ، ذلك بأنهم راوا أنه لايدفى تعديل الأسلوب الذى يحكم به المانشو بلاد الصين ، بل يجب وضع حد نهائى لحكمهم • تلك هي الطريقة التقليدية لأجراء الاصلاحات في الصين فقد جلس على عرش التنين اثنتان وثلاثون أسرة حاكمة ، وكانت الاسرة القديمة تخطى مكانها لأسرة حديثة كلما أصيبت البلاد بالكوارث •

وكانت الخطوات العملية الأولى للقضاء على حكم المانشو في اقليم هونان وهو موطن المياو ، أن هؤلاء المياو يعتبرون أقلية في الصين طالما كانوا مصدر شغب ، ولذلك فإن الحزس الامبراطورى في هونان كان أكثر منه في أى اقليم صينى آخر • وفي خلال الفترة من ١٨٤١ الى ١٨٤٨ قام الفلاحون في اقليم هونان وكويشو وهوييسه بأكثر من مائة تمرد ، وغالبية هذه الاقاليم الثلاثة من المياو ، وطالما كان المياو معارضين لحكم المانشو ، وكانت اتجاهاتهم ونزعاتهم متطرفة في الوطنية ، وكان مفهوم الوطنية لديهم ضيق الحدود يتسم بالعناد والاصرار وهذا شأن غالبية الشعوب الزراعية • كذلك كان المياو شديدي التدين والصلاح • وقد اتسمت ثوراتهم بأنها احتجاج على ماكان متفشيا في أسرة المانشو من فساد خلقى وانحطاط، وأنهم جروا على الصين الفشل والدمار • وقد أنشأ المياو

جمعية سموها جمعية « السماء والارض » أهدافها احباط جهود الأجانب ، وذلك باحياء تعاليم كونفوشيوس وبوذا بعد أن تصب في قالب يناسب روح العصر على أن يضاف اليها بعض تعاليم طائفة النظاميين من المبشرين المحليين . وقال المياويون انهم سوف يحاربون البريطانيين والفرنسيين والكتب المقدسة في يد وسيف الحق في اليد الأخرى .

في عام ١٨٤٩ اشتدت المجاعة في اقليم هونان بشكل لم يعهد من قبل . والمعروف أن هونان كانت ولا تزال تعتمد في معيشتها على محصول الأرز ، ومدينة تشانج شا عاصمة الاقليم هي أيضا عاصمة الأرز في الصين . ولما كان محصول الأرز رديئا جدا في ذلك العام ، فان لي يوان فا رئيس جمعية «السماء والارض» في هونان قرر أن هذه علامة من السماء بأن هذا هو الوقت المناسب لاعلان حكم جديد ، وهنا غادر المياو حقولهم المجربة وتسلحوا بالعصى الغليظة والسيوف وزحفوا على تشانج شا العاصمة وهم يرتلون الأناشيد ويعزفون على الزمار .

واقتحموا المدينة وأخضعوا الاقليم كله . ولم يسع الحاكم الا الفرار لتبليغ الامبراطور بهذا الخطب الجلل . ذلك أن قواته لم تكن لها القدرة على الوقوف في وجه نصف مليون من الفلاحين الزاحفين تحت تأثير الحماسة لفكرة دينية . ولقد بلغت أنباء نجاح المياو الى الفرع المحلي لجمعية السماء والأرض وجمعية «عبادة الله» في اقليم كوانتونج المجاور لهونان . وقد أجمع الكل هنا أيضا على أن المجاعة وزحف لي يوان المظفر على العاصمة تشانج شا هما علامتان من السماء .

فدعا زعيم جماعة عبادة الله الى اجتماع عام في تشين تنى . وعلى أثر الاجتماع تسلح فلاحو كوانتونج بكل ماوصل اليه أيديهم وخرجوا يغنون وينشدون متجهين نحو هونان للاتصال باخوانهم هناك . وبعد ثمانية عشر شهرا من المعارك وايقاع الهزائم بالحرس الامبراطوري وقوات أمراء الحرب ، اتحدت الجمعيتان وأعلنتا قيام « المملكة السماوية للسلام الأعظم » وذلك في ١١ من يناير ١٨٥١ . وتلك هي المعروفة بثورة ناي بينج . وقد تزعم هذه الثورة هونج هسيو تشان مؤسس جمعية عبادة الله ، وهو الذي اعتقد بأنه شقيق المسيح عيسى بن مريم . وقد زحفت قوات تاي بينج عبر حدود الاقليم ونزلت في اقليم كيانجسي ثم اتجهت شمالا الى أنهوى وكيانجسو . وهزمت الجيش الامبراطوري في معركة كبيرة في خلال شهر ابريل ١٨٥٢ ، واستولت على أسطول من الزوارق وأبحرت نحو مصب نهر اليانجتسي وحيثما سارت قوات تاي بينج استقبلها الفلاحون بالهتاف والبشر والابتهاج . وفي يناير ١٨٥٣ اقتحمت ووهان وفي مارس من العام نفسه دخلت نانكنج (عاصمة اقليم كيانجسو) ، وأطلقت على نانكنج اسم تينى تشنج (العاصمة السماوية) وجعلتها مركز «المملكة السماوية للسلام الأعظم» وظلت كذلك طوال الأحد عشر عاما التالية .

لقد وقف جورج بونهام وزير بريطانيا المفاوض في بيكين يشاهد تقدم هذه الحرب المقدسة بعينين شاردتين . فهذه المملكة السماوية التي يغشاها جو من الموسيقى المرحية ، والجمعيات التي تحمل أسماء غير مألوفة ، وتجمع ملايين الفلاحين في أقاليم كانت من قبل معروفة بولائها للعرش ، وترتيل

أناشيد غريبة في أصوات هادئة ، وإعلان مملكة داخل حدود الامبراطورية على أصوات النواقيس وأنغام المزمار ، كل هذه أذهلت بونهام لقد كتب الى بلاده يقول : «ان هذه دنيا جلفر وقد طار صوابها» .

ولكن «المملكة السماوية للسلام الأعظم» كانت حقيقة واقعة لامراء فيها ، وقد أثبتت وجودها في مظاهر شتى . وقد أسر الامبراطور الى بونهام أن كل أمله هو أن يكتفى ثوار تاي بنج بما في أيديهم من الاراضى ، وألا يتقدموا في زحفهم حتى يبلغوا عاصمة الامبراطورية .

واستطرد الامبراطور قائلا : «لو أننى أحصيت جميع الطلقات الموجودة فيما لدى من مخازن الأسلحة ، فلن أجد منها ما يكفي لتصويب طلقة واحدة على كل واحد من الثوار، وإذا ما تحرك الشعب الصينى فليست هناك قوة فى العالم تستطيع أن تقف فى سبيله . وقد نقل بونهام كل هذه التصريحات الى حكومته فى لندن ، وتلقى منها تعليمات بأن يتجه من فوره الى العاصمة السماوية دون إبطاء ، ليرى اذا كان من الممكن التعامل مع الحكام الجدد على مستوى دبلوماسية دنيوية لا علاقة لها بمملكة السماء .»

وفى فبراير ١٨٥٤ غادر بونهام مدينة بيكين فى طريقه الى العاصمة السماوية . ولما كان يخشى العدوان ، فقد اصطحب زميليه السفير الفرنسى دى بوربولون ، والسفير الأمريكى ماك لينى . وصل الثلاثة الى العاصمة السماوية فى أوائل مارس . وقد علق دى بوربولون على هذه الزيارة بقوله: لقد شاهدت مظاهر ثورة حقيقية . فلأول مرة أرى النساء الصينيات يسرن فى الشوارع بملء الحرية . والعاصمة السماوية هى المكان الوحيد فى الصين الذى تتمتع فيه المرأة بحقوق اقتصادية وسياسية . لقد بطل هنا بيع النساء بيع الرق أو التسرى وكذلك ألغى تعدد الزوجات ، ويبدو أن نظام ابتياع المرأة بهدايا العرس أو بالهبة قد ألغى أيضا . لقد رأيت النساء يسرن فى شوارع العاصمة بكامل حريتهن لأول مرة منذ قدومى الى الصين وهذا هو المكان الوحيد فى الصين كلها ، الذى تمارس فيه المرأة الصينية بعض حقوقها الاقتصادية والسياسية ، ولقد أبطلت عادة ربط أقدام الفتيات باعتبارها عملا مخالفا للقانون . ولأول مرة أدرك ما عليه المرأة الصينية من جمال . ولقد أثبتت المرأة الصينية أنها جديرة بتحمل أعباء المسئولية منذ أن تحررت .

أما السفير الأمريكى فلم يتعرض لذكر النساء ولكنه قال : ان الحكومة الجديدة ترفض التصديق على المعاهدات التى تم توقيعها بيننا وبين حكومة بيكين ، ويقول المسئولون فى هذه الحكومة انهم سوف يقصرون عملهم على رعاية الشئون الخاصة ببلادهم فقط حتى يتلقوا رسالة من السماء تخالف ذلك . ولا أدري ان كانوا يهدفون الى السيطرة على بقية امبراطورية الصين ويبدو أن ذلك أيضا يتوقف على رسالة من السماء .

أما جورج بونهام السفير البريطانى وهو رجل عملى فقد كتب ما يلى: ليس هناك أمل مطلقا فى انشاء علاقات تجارية بيننا وبين مملكة السماء . فتجارة الأفيون ممنوعة منعاً باتا .

واقترح على حكومة جلالة الملكة (الحكومة البريطانية) التعجيل بإرسال مساعدات إلى امبراطور الصين إذا تلقى ثوار تاي بينج أمرا من السماء بأنه لابد من سقوط بيكين . وعلق السفير قائلا : ان نهاية حكم المانشو في الصين معناه حرماننا من تجارة تدر علينا أرباحا كبيرة جدا .

وفي مايو سنة ١٨٥٤ تلقت العاصمة السماوية رسالة من السماء بأنه لابد من الاستيلاء على بيكين ، وكان ذلك بعد سفر بونهام مباشرة . . . وهنا تحرك جيش من الثوار قوامه عشرة آلاف جندي فعبر نهر يانجتسى واتجه زاحفا نحو العاصمة الامبراطورية ، ولم تمض خمسة أشهر حتى كان الجيش قد أخضع أقاليم أنهوى وهونان وشانسى وشيهاي واقتحم تينتنسن وهي على بعد مائة ميل فقط من بيكين، وكان ذلك في الأيام الأولى من أكتوبر ولما سمع البلاط الامبراطوري بأنباء هذا الزحف امتلأ رعبا وهلعا . وبادر الامبراطور وحاشيته بإرسال أسرهم إلى جوهول حتى تكون في مأمن . وعاد الامبراطور مرة أخرى يدعو أمراء الحرب في شيهلي إلى مساعدته .

وقد انقضت جنود الصاعقة من ناحية الشمال الغربى لتحول بين الجيش السماوى وخطوط تموينه . ولم يكن لهذا الجيش السماوى خطوط تموين منظمة بل انه كان مفتقرا كلية إلى التنظيم . وكان يعتمد على كثرة العدد والايمان بالرسالة التى يقوم بأدائها ، فواصل زحفه وتقدمه وأخذ يسحق تحت قدميه كل ما يصادفه فى طريقه من مظاهر الوثنية .

وقد استطاعت قوات شيهلي المحاربة أن توقف زحف الجيش السماوى وتحاصره فى تينتنسن ، وبادرت العاصمة السماوية بإرسال الامدادات . . . ولكن قوات شيهلي قطعت عليها الطريق وأبادتها .

استطاع لين فنج - هسيانج قائد الجيش السماوى فى تينتنسن أن ينسحب من المدينة ويرتد إلى لينتنشن ، ولكن جيشه مات جوعا . ففقد ظل الجند يتناولون غذاءهم من «حب اللباب» فترة من الزمن ، ولما نفذ الغذاء وأنهكهم الجوع والتعب استلقوا على الأرض حيث عاجلتهم المنية دون أن يفكروا فى الاستسلام للعدو . وهكذا أنقذت مدينة بيكين .

وعلى الرغم من أن زحف الجيش السماوى نحو الشمال انتهى عاجلا بترك المأساة . فان مملكة السماء ظلت على اتساعها وقوتها . لذلك بعث الامبراطور أوامره إلى حكام الأقاليم الذين لا يزالون مسيطرين على مناطقهم بأن يسعوا بأية طريقة لاختضاع الثوار . ولم يكن لدى أحد من هؤلاء الحكام وسيلة لتنفيذ أوامر الامبراطور ، ولكنهم ردوا على الامبراطور برسائل مشجعة تفيض ولاء وطاعة ووقفوا عند ذلك الحد .

وظل الحال كذلك حتى أخذ تسنج كو فان على عاتقه شن حرب منظمة على قوات تاي بينج . وكان تسنج كو فان هذا أحد كبار ملاك الأراضي فى إقليم هونان الذى نبئت فيه فكرة المملكة السماوية . وعندما أعلنت المملكة السماوية فقد كل عماله وسراريه . كما كان يحمل ضريبة شخصية إلى هونج هسياتشانج رئيس «جمعية عبادة الله» الذى كان فى الأصل مدرسا نجح فى امتحان المسابقة الامبراطورية بفضل تسنج كو فان .

قرر تسنج كو فان أن ينشئ جيشا من المتطوعين في اقليم هونان ويبدأ حملة تآديبية على ثوار تاي بينج . وأمله أنه اذا نجح في اخضاع هؤلاء الثوار ، فقد يصبح نائبا للامبراطور في اقليم هونان وهي أمنية تستحق المغامرة فضلا عن أنه سوف يسترد عماله وسراريه . جمع تسنج جيشا من الساخطين على ثورة تاي بينج ، وقد احتسأط في ألا يكون بين هؤلاء المتطوعين من تجرى في عروقه دماء عنصر المياو ، ثم بدأ تدريب الجيش ولما أن بلغ الجيش مستوى طيبا من التدريب ، زحف به تسنج شمالا نحو بحيرة بويانج وهي مسطح كبير من الماء على حدود مقاطعة هونان ، ويغذيها أحد فروع نهر يانجتسى . وقد كانت هناك بعض فرق الجيش السماوى مرابطة على حافة البحيرة ، فأخذ تسنج يستعد للملاقاتها ، وفي الوقت نفسه بعث رسالة الى الامبراطور بأن الحملة التآديبية قد بدأت عملياتها العسكرية

ولسوء حظ تسنج لم تحقق حملته الأولى نجاحا ، فعندما خيم الظلام على البحيرة قذف جند الثورة أسهما مشتعلة على أشعة الزوارق التي تحمل جنوده فأحترق أكثر من ربع أسطول الزوارق الذي أعده تسنج لمهاجمة قوات الثوار ، ثم عمد الثوار الى محاصرة قوات تسنج داخل البحيرة وأبادوهم ، ولم يسع تسنج الا أن ينجو بحياته .

كان جورج بونهام السفير البريطاني ، يراقب تحركات قوات تسنج في قلق زائد ، ذلك أنه كان قد أشار على الحكومة البريطانية بتأييد قوات أباطرة المانشو ضد ثوار تاي بينج ، واذا فُتجأح الثواريين خطأ فكرته . لذلك عمد بونهام الى ارسال أنباء متناقضة لحكومته حتى يبعث في نفسها الحيرة ويدفعها الى عدم اتخاذ أى اجراء . وقد نجح في ذلك . وحاول بونهام خلال هذه الأزمة الطاحنة أن يحصل من الامبراطور على امتيازات جديدة للتجار البريطانيين ولكن الامبراطور لم يصنع اليه لانه لم يجد على مقربة منه أسطولا بريطانيا يستطيع المبادرة لمساعدته .

وفي أكتوبر ١٨٥٦ بدأ الموقف يتبدل ، فبينما كان زورق صينى محمل بالافيون ورافع للعلم البريطانى ، راسيا في مياه نهر بيرل قرب مدينة كانتون ، اذ صعد الى سطحه بعض رجال السلطات المدنية في كانتون فصادروا حمولة الأفيون وسجنوا البحاره ، وهنا بادر القنصل البريطانى بتقديم احتجاج وطالب حكومة بيكين بتقديم اعتذار ، واطسلاق سراح البحارة والافراج عن شحنة الأفيون المصادرة ولما رفض الحاكم المحلى اجابة طلبه ، استدعى القنصل بعض السفن الحربية التابعة للأسطول البريطانى في الشرق الأقصى فألقت قنابلها على مدينة كانتون ، ثم استولت على المدينة ووضعتها تحت حكم عسكري بريطانى ، وفي ديسمبر ١٨٥٧ أنزل الاسطول البريطانى قوات من مشاة البحرية في مدينة كانتون .

وفي يونيو ١٨٥٨ سمع الامبراطور أن الاسطول البريطانى في الشرق الأقصى في طريقه لضرب مدينة تينتنسن بالمدايسع ، فبادر بعقد معاهدة صلح وصداقة مع أميرال الاسطول ، ولما كان جيش الثوار يواصل زحفه فلم يكن لدى الامبراطور متسع من الوقت للمساومة مع البريطانيين على شروط المعاهدة فسلم بما يلي :-

١ - يمنح البريطانيون استخدام سبع موان صينية جديدة مع اعفائهم من الرسوم الجمركية وضريبة الانتاج ، ومن بين هذه الموانى السبع نانكنج ، العاصمة السماوية حينما يتم تخليصها من أيدي الثوار .

٢ - يوافق الامبراطور على أن يكون للأسطول البريطانى حق ابقاء بعض قطعه بصفة دائمة فى هذه الموانى ، كما يكون للبريطانيين حـسـق الانتقال الحرفى داخل الصين بقصد « التفتيش » .

٣ - تعهد الامبراطور بدفع تعويض قدره ٤ ملايين أوقية من الفضة .

٤ - تعهد الامبراطور بأن يكون على علاقات ودية دائمة مع التاج البريطانى . وهكذا انتهت حرب الافيون الثانية .

لم يكن أميرال الاسطول البريطانى مقتنعا باخلاص الامبراطور فى العهد الذى قطعه على نفسه بأن يكون على علاقات ودية دائمة مع بريطانيا، كما أنه كان متأكدا من أن سيطرة الامبراطور على رعاياه فى ضعف مطرد، ومع ذلك فقد فضل التعامل مع الامبراطور على التعامل مع تلك السفئة « المتعصبة » التى كانت تحكم مملكة السماء . لذا قرر استدعاء امدادات عسكرية من الهند وتعزيز مركز الجيش الامبراطورى الذى يقف فى مواجهة قوات ثوار تاي بينج . وفى نوفمبر ١٨٥٩ وصلت طلائع القوات الهندية ووزعت فى الشمال على مشارف تينتنسن وعلى طول النهر الأصفر . وقد تحرك الجيش الامبراطورى تعزيزه القوات البريطانية جنوبا ، ودفع أمامه قوات الثوار حتى نهر اليانجسى على جبهة عريضة تمتد من نانكنج الى آنكنج . وقد ابتهج الامبراطور بهذا النصر فأعاد أسرته من جيھول الى بيكين وأضاف ملحقا الى المعاهدة يصبح بموجبه ميناء تينتنسن ضمن قائمة « الموانى البريطانية » أى الموانى الصينية التى للبريطانيين حـسـق استخدامها . فى ذلك الوقت كان تسنج كوفان قد جهز جيشا جديدا هاجم به قوات الثوار من جهة الغرب . وقد استطاع تسنج أن يوقع الهزيمة بقوات الثوار على الحدود بين هونان وكيانجسى ، ثم زحف نحو آنكنج وفى الطريق انضمت اليه قوات لى هونج تشانج . وفى سبتمبر ١٨٦٠ دخلت قوات تسنج ولى مدينة آنكنج وحاصرتا نانكنج عاصمة المملكة السماوية . وفى مايو ١٨٦١ سقطت نانكنج فى أيديهم وبذلك انتهى عهد « المملكة السماوية للسلام الأعظم » .

ان عهد المملكة السماوية يمثل أعظم ثورة قام بها الفلاحون فى تاريخ الصين . أما سقوطها فيرجع الى التناحر والمنافسات التى ثارت بين حكامها كما يرجع الى عجز قوادها وعدم خبرتهم بأساليب الحرب اذ كانت غالبيتهم من الهواه . كذلك يرجع فشل الثورة الى المهارة العسكرية والثبات الذين أظهرهما قائدان لم يجر فى عروقهما الدم الامبراطورى . ولقد هزت هذه الثورة عرش المانشو هذا عنيفا امتد الى أسسه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وفى خلال ثورة تاي بينج ، تذوق سبعة عشر اقليما من اقاليم الصين الحكم الجمهورى وما كان لها بعد ذلك أن تنساه .

عاد تسنج كوفان بجيشه الى هونان بعد أن غمره الامبراطور

يفيض من مظاهر التكريم . وليس هذا بالشئ الكثير ، فلقد بدأت ثورة تاي بينج فى هونان ، ولكن الذى أحمدها هو أحد أبناء الاقليم . ومن هنا اعتقد تسنج أن ما تفكر فيه هونان اليوم ، تفعله الصين غدا .

ولشد ما هزه الطرب حينما دخل تشانج شا عاصمة الاقليم وهو يحمل لقب نائب الامبراطور . ولم يشأ تسنج أن ينفرد وحده بغنائم النصر ، فقد أصدر أمره - بصفته حاكم الاقليم - بقطع رأس كل من اشترك فى ثورة تاي بينج وتوزيع أملاكه على الضباط والجند الذين اشتركوا فى القضاء على الثورة .

أما هو فقد انتقل الى قصر الحاكم ليستمتع بالحياة مع سراريه .

وكان بين رجال تسنج جندي ممتاز ذو موهبة وقدرة على التنظيم والتملك ولقد عاد من الحرب بقدر كبير من الغنائم رغبة فى أن ينال من الدنيا نصيبا حسنا ، فغادر العاصمة تشانج شا الى مكان يبعد عنها ١٥٠ ميلا نحو الجنوب وهناك اشترى مزرعة كبرى وتزوج ثم بدأ يعمل على انجاب البنين وتحسين المزرعة . أما اسم هذا الرجل فهو « ماو » .

أخذ ماو ينجب البنين ويزيد من حجم المزرعة . وكان أحب ابنائه اليه ماو كو فان . وعندما بلغ ماو كو فان أربعة وعشرين ربيعاً تزوج وأقام فى مزرعة خاصة به مجاورة لمزرعة والده . وقد أنجبت زوجة ماو كو فان بدورها عدة أبناء اشتغلوا كلهم بفلاحة الارض .

وكان أبوهم قاسيا ، خشنا وهو فى هذا يفخر بأنه أب مثالى . وكان كل همه أن يطمئن الى تنشئة أولاده تنشئة يستطيعون بها أن يشقوا طريقهم فى الحياة بجهودهم .

نشأة ماوتسى تونج :-

وفى عام ١٨٩٣ أنجبت زوجته ابنا آخر سماه «تسى تونج» ولم يكن الابن الجديد على درجة من قوة البنية وبطء التفكير كاخوته ، وهذا مما أفزع والده فكيف يكون والدا مثل هذا المولود الرقيق الشعور الضئيل الجسم ؟ كان كلما رأى هذا الطفل الصغير الحالم يهيم على وجهه فى الحقول يقطف الزهور ويتحدث الى الكتاكيت الصغيرة بلغة رقيقة ، أرغى وأزبد ، حتى لقد يبلغ به الحقن أن يتهم زوجته بعدم الامانة الزوجية .

وكان جيران كوفان يتهامون فيما بينهم : « ان ماوتسى تونج سوف يودى بوالده الى القبر » .

أما الفتى تسى تونج فما كان ليعبأ بما يقوله الجيران ولا بسلوك والده فما كانت ثورات غضب والده لتهمز أعصابه ، وظل همه العيش بين الزهور والطيور فى سماء الصين الجنوبية الصافية وشمسها الدافئة .

كانت الاحداث تترى ، ودخلت الصين فى حرب دفاعية ضد اليابان ، ومع ذلك فلم يكثرث . فليس هذا يومه . . ان معركته لا تزال فى ضمير الغيب .

الفصل الثاني

ان ما تعرضت له الصين من اهانة واذلال بعد حرب الأفيون الثانية، أكد ما كان يخشاه أكثر الصينيين بعد اذلالها في حرب الأفيون الأولى . لقد أصبحت هذه الامبراطورية الشرقية العظيمة في نظر سياسة الغرب نكتة سياسية . كان سياسة الغرب يتندزون بقوة جيش الصين ، فيقولون « ان قوة جيش الصين مثل قوة الاسطول السويسري » . والقارىء يعلم ان الاسطول السويسري شيء لا وجود له .

ولم يكن من السهل على الصينيين أن يصبحوا موضع سخرية الغرب ، خاصة وهم قوم حريصون على الاحتفاظ بكرامتهم أمام الأجانب . وأشد خطرا من السخرية السياسية ذلك الاستغلال المتزايد لموارد الصين، الذي كانت تتسابق فيه بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، ثم روسيا القيصرية واليابان فيما بعد .

لقد ظل البريطانيون والأمريكيون والفرنسيون حتى منتصف القرن الماضي ، قانعين ببناء أحدث السفن لضمان شحن البضائع وتفريغها على سواحل الصين . وكان حوض السفن الذي بنته بريطانيا في مدينة كانتون عام ١٨٤٥ ، والموانئ الفرنسية والأمريكية في شنغهاي وأموي وفوتشاو تستخدم العمال الصينيين . هذا كان يدعم الاقتصاد الصيني بعض الشيء . وبعد اتفاقيات بيكين في عام ١٨٦٠ بدأ الأجانب ينشئون المصانع والمراكز التجارية . فقد أنشأ الروس مصانع لتعبئة الشاي في هانكلو وفوتشاو ، وأنشأ البريطانيون (١٨٦٢) مصنعا للحريير في شنغهاي وتبعهم في ذلك الفرنسيون والأمريكيون . وقد كانت كلها مصانع كبرى ، فقد استخدم المصنع الأمريكي وحده ألف عامل صيني وأصبح منافسا خطيرا للصناعة الوطنية الصينية ثم قضى عليها نهائيا . ولما أصبح أرباب الحرف من الصينيين الذين كانوا يستغلون في تصنيع الشاي ونسج الحريير بلا عمل ، اشتغلوا أجراء في المصانع الأجنبية . وقد بلغ بهم ضيق الحال الى حد أن يقدموا الرشوة أو يقتل بعضهم بعضا في سبيل الحصول على عمل في هذه المصانع الأجنبية . ولما ازداد العرض على الطلب هبطت أجور العمال الصينيين ، وصار العامل الصيني يعتبر سعيد الحظ ان هو استطاع الحصول على أجر قدره ٣٠ شلنا لمدة ١٤ ساعة من الشغل يوميا . وهذا الأجر لا يكاد يقيم أوده . أما نقابات العمال فلم يكن لها وجود في الصين .

وقد دأب البريطانيون والفرنسيون على تحريض الامبراطور « بالايتدخل في الصناعة » . وكانوا يوحون اليه بأن الاهتمام بالصناعة

والتجارة أمر لا يليق بمركزه الامبراطوري . ولقد أفلح روبرت هارت البريطاني الذي كان مفتشا عاما للتجارة في بيكين في اقناع الامبراطور بأن يعينه مفتشا عاما للجمارك الصينية وبلغ روبرت هارت هذا من الشهرة في بيكين ومن الحظوة والثقة لدى الامبراطور درجة جعلت مشورته ضرورية حتى في اختيار نواب الامبراطور في الأقاليم الصينية المختلفة . وكان في أواخر حياته مستشارا امبراطوريا للشئون الداخلية والخارجية وهو بذلك يقوم فعلا بإدارة شئون الصين كلها دون أي تدخل صيني .

ولقد تعلمت الطبقة المستنيرة في الصين درساً قيماً من بورة تاي بينج وما أعقبها من هزيمة الجيش السماوي عام ١٨٦٢ . أما ذلك الدرس فهو اقتناعها بأن البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين كانوا مصممين على المحافظة على عرش المانشو تمشياً مع مبدأ « خير لك أن تتعامل مع شيطان ضعيف تعرفه ، من أن تتعامل مع شيطان قوى لا تعرفه » .

غير أن موقف المحافظة على أباطرة المانشو الذي اتخذته الدول الغربية لم يمنع الصينيين من اعداد المؤامرات والجمعيات السرية لاغتيال الامبراطور أو نفيه ، وإن كانت هذه الجمعيات قليلة العدد . أما الصينيون الأوسع حيلة فقد كانوا يرون أن خير طريق يتبع هو الدخول في منافسات تجارية وصناعية مع الأجانب لمنعهم من استغلال موارد الصين . كان هؤلاء الصينيون العقلاء يرون أن الثورة الصناعية ومائة عام من النشاط التجاري ، هما اللذان جعلتا بريطانيا أعظم دولة في العالم . وعلى الشعب الصيني إذن أن ينشئ المصانع ويبني السفن وسوف يجيء وقت تستطيع فيه الصين مزاحمة بريطانيا في الأسواق ولقد انبرى كتاب صينيون من أمثال فنج كوى فن وتشنج كوان لينج يستحثون مواطنيهم على الحد واحراز المهارة كي يصبحوا مثل البريطانيين .

ولقد أعدم تشنج عندما نادى بأن من وسائل حرية التجارة الحد من سلطة الامبراطور المطلقة ووضّع التجارة الوطنية في أيدي أحد رجال الأعمال الصينيين .

والملاحظ في الصين أن تأليف الكتب فيما يجب أن يعمل هي نقطة ضعف وطنية ، وأنه قد جرت تقاليد هذه البلاد على أن من يريد أن يفعل شيئاً من أجل بلاده لا يقرأ الكتب ، وأن من كثرت قراءته قل فعله . ومن هنا فقد تولى حركة الانتاج القومي نفر ممن نالوا حظاً ضئيلاً من التعليم .

كانت نواة هذه الجماعة الوطنية من التجار وأرباب الصناعة نقابة صغيرة من التجار في فوتشاو اشترت آلة لعمل قوالب الشاي وبدأت تنافس بمصنعها الصغير المصنع الروسي في المدينة .

وفي شنغهاي قام فريق من تجار الارز الوطنيين عام ١٨٦٣ بشراء آلة لتبييض الارز ، وفي سنة ١٨٨٠ أسست في تانهاى مصانع وطنية لنسج الحرير .

تلك هي عدة مصانع وطنية في بلد كان تعداده أربعمئة مليون

ولكنها على أى حال بداية طيبة • ولم يجيء عام ١٨٩٠ حتى ارتفع رقم المصانع الوطنية الى ستين وارتفع رأس المال الصينى المستثمر فى هذه المصانع من ٣٣٠ ألف دولار الى ٨٥٠٠٠٠٠ دولار • وتلا ذلك عدد من مصانع النسيج واستخراج الفحم •

وبعد القضاء على ثورة تاي بينج اتجه تسنج كو فان لانشاء مصنع للدخائر فى هونان وأعانتها السلطات الفرنسية ببعض ضباطها لتدريب جنوده فى مقابل الحصول على جانب من أرباح المصنع • وأنشأ تسو تسونج تشانج حوضا للسفن فى فوتشواو فى عام ١٨٦٦ وأداره بمساعدة الروس ، واشترك الفرنسيون مع لى هونج تشانج فى انشاء مصانع للأسلحة فى شنغهاى وفوتشواو ونانكنج مما أثار الريبة فى نفوس البريطانيين • ولكن عندما نشبت حرب صغيرة بين الصين وفرنسا (١٨٨٤ - ١٨٨٥) توقفت المصانع عن العمل •

ولقد أعد روبرت هارت تقريرا عن مصنع الأسلحة فى نانكنج فقال : ان آلات المصنع كلها مستوردة من الخارج ، وانتاجه ضئيل وهو عاجز عن انتاج الأسلحة الثقيلة وان ادارته سيئة يشيع فيها الفساد وتبدد الأموال •

وأصبح من الواضح ان اندفاع الصين نحو اقتباس النظم الغربية يسير قدما الى غايته واذا كان فى استطاعة الصين بعد هذه البداية المتعثرة أن تحكم الربط بين الصناعة الوطنية الناشئة والتجارة الطليقة من كل قيد ، وبين قدرة الشعب الصينى الطبيعية على العمل الشاق والنشاط التجارى الكبير ، فإنها بذلك قد تتمكن يوما ما من أن تقف من دول العالم الصناعية موقف الند للند • ذلك أن فى باطن أرضها كل المعادن اللازمة للصناعة ، ولديها وفرة فى اليد العاملة والأسواق المنتجة أمامها فى الداخل والخارج •

ولم تكن هذه الفكرة سائدة فى الصين وحدها فى أواخر العقد التاسع من القرن الماضى ، بل كان يدركها شعب أسيوى آخر • أخذ بدوره يقتبس أساليب الغرب ، ذلك هو الشعب اليابانى • فقد عكفت امبراطورية نيبون (اليابان) منذ ثلاثين عاما على بناء المصانع وحفر المناجم ، وهى حين ذاك فى طريقها لكى تصبح دولة صناعية • وكانت سياسة اليابان تتجه الى عدم تشجيع الصين على اقتفاء أثرها ، وتعمل على عرقلة مساعيها فى هذا السبيل ، حتى اذا ما أصاب الاقتصاد الصينى الركود بادرت اليابان الى استغلال ثروة الصين المعدنية واستغلالها • وهكذا نجد اليابان ترقب هذه النهضة الصناعية الصينية فى ضيق ولم يجيء عام ١٨٩٤ حتى وجدت اليابان سبيلا للتنفيس عما تشغره به من ضيق •

ففى يناير من ذلك العام أثارت الاضطرابات فى كوريا طائفة دينية تدعى طائفة التوغاك ، ولما اعتقدت حكومة كوريا أن اليابانيين يزودون التوغاك بالمال استنجدت بامبراطورية المانشو لاختماد هذه الاضطرابات • وبأمر امبراطور الصين بارسال قواته المحاربة عبر الحدود الشمالية

لكوريا حيث أوقعت الهزيمة بجيش التوغاك الصغير . وقد لاحظ الوزير البريطاني في تهكم أن هذا الجيش الصيني هو أكبر قوة تستطيع امبراطورية المانشو ارسالها الى ساحة القتال مع تجنب الهزيمة ، ولكنه أوقف المزاح والتهكم عندما سمع بأن اليابانيين قد أنزلوا قواتهم في كوريا الجنوبية . هنا أشار على امبراطور المانشو بأن يعجل بالتفاهم مع اليابانيين ، فيعرض عليهم انسحاب القوات الصينية واليابانية فوراً من أراضي كوريا . ولكن اليابانيين رفضوا هذا العرض وزحفت القوات اليابانية شمالاً حتى مدينة سيول . وفي يوليو سنة ١٨٩٤ ، أعلنت اليابان الحرب على الصين دون انذار سابق ، وذلك مثلما فعلت مع الأمريكيين في بيرل هاربور بعد ذلك بخمسين عاماً ، فلم يكن اعلان الحرب في صورة تصريح أو مذكرة مكتوبة على قصاصة من الورق ، ولكنه اتخذ طريقاً عملياً باغراق أسطول الصين الشمالى على بعد من آسان في جنوبى سيول . وفي أعقاب ذلك مباشرة ، وبتواطؤ مع الحكومة الأمريكية ، اتجه الاسطول اليابانى جنوباً نحو البحر الأصفر رافعا العلم الأمريكى وشتت القوات البحرية الصينية فى بيانج . كذلك أوقعت القوات اليابانية الهزائم بالجيش الصينى حيثما تصدى لقتالها .

وتجنباً لنكبات وهزائم جديدة فى البر والبحر توجه لى هونج نشانج الى شيمونوسيكي فى اليابان فى شهر مارس ١٨٩٥ لاجراء مفاوضات وعقد معاهدة صلح . وكانت المعاهدة كارثة جديدة على الصين اضيفت الى قائمة كوارث المعاهدات السابقة . فقد قضت معاهدة شيمونوسيكي بتنازل الصين لليابان عن شبه جزيرة لياوتونج وجزر بنجهو وفرموزا . كذلك قضت شروط الصلح بأن تدفع الصين لليابان ٢٠٠ مليون أوقية من الفضة كغرامة حربية ، وأن تفتح موانئ شاسى وتشنكيانج وسوتشواو وهانجتشواو للتجارة اليابانية وهكذا شاركت اليابان بريطانيا وفرنسا وأمريكا فى التحكم فى شئون الصين .

لم تعر بريطانيا معاهدة شيمونوسيكي أى اهتمام ، ذلك أنها كانت قد خططت فى استغلال الصين خطوات بعيدة لا تخشى معها أى منافسة من الجنس الأصفر . وهذا هو رأى الوزير البريطانى فى الصين .

ولكن روسيا لم تقف من معاهدة شيمونوسيكي وشروطها موقف المتفرج فكوريا قريبة من أراضيها . ولذلك تحالف قيصر روسيا مع فرنسا وألمانيا ثم أخذ يضغط على اليابان كي تعيد الى الصين شبه جزيرة لياوتونج ولكي تحقق روسيا أهدافها قام الأسطول الروسى فى الشرق الأقصى بمناورات على بعد من شانتونج ، ولما لم تكن اليابان على استعداد للدخول فى معركة مع روسيا فقد أعادت شبه جزيرة لياوتونج الى الصين فى مقابل غرامة حربية قدرها ٣٠ مليون أوقية من الفضة .

لقد أصبحت خزائن المانشو خاوية بعد هذه الحرب ، واضطر الامبراطور فيما بين ١٨٩٥ ، ١٨٩٩ الى اقتراض ٣٧٠ مليون أوقية من الفضة من بريطانيا وفرنسا كي يقوم بدفع التعويضات ويحتفظ بالخزانة الامبراطورية وقد حصل البريطانيون على حق التعدين فى كايلاوات وحق مد سكة حديد

شانغهاي - تانكنج وتشغيلها وحق انشاء مصانع في جميع انحاء الصين مع دفع ضريبة رمزية فقط ، كل هذا ضمانا لسداد القرض ، أما روسيا وأمريكا وفرنسا (والوافدة الجديدة على الصين) وهى ألمانيا فقد حصلت كلها على امتيازات لمد السكك الحديدية فى مقابل تقديم قروض للامبراطور حينما كان فى مسيس الحاجة لهذه القروض . ولم ينته عام ١٨٩٠ الا وقد بطل تقرير مصير الصين فى بيكين ، فأصبح هذا الموضوع يطرح على بساط البحث فى اجتماعات دبلوماسية تعقد فى باريس ولندن وموسكو وبرلين ، وفى اجتماع عقد فى باريس عام ١٨٩٨ تقرر تقسيم الصين الى منطقتى نفوذ فحصلت فرنسا على كيانجتسى وكونجتنج وبعض أجزاء هونان المجاورة للهند الصينية . واستأجرت كوانجتشو من الامبراطور ودفعت فى مقابل ذلك «ايجارا طيباء» . أما بريطانيا فقد فازت باقليم ييه جن وشبه جزيرة كولون وجزر هنج كنج وخليجان تابيانج وشومتشوف وقائمة كبيرة من الموانى وحصلت ألمانيا على خايج كياوتشاو مع حقها المطلق فى مد السكك الحديدية من كياوتشاو الى داخل الصين . وكان نصيب روسيا هيلونج وكيانج وكيرين والحق فى مد سكة حديد سيبريا عبر ممتلكاتها الجديدة . وتم الاتفاق على أن يكون وادى اليانجتسى من نصيب بريطانيا ، وكل مايقع شمالى سور الصين الكبير لروسيا . وتم ابلاغ هذه القرارات الى الامبراطور فى سلسلة من المذكرات الدبلوماسية .

هكذا انحدرت الصين الى ما يكاد يكون مستوى المستعمرات ، وفى اجتماع عقد فى لندن عام ١٩٠٠ كانت «النسكة» الدبلوماسية هى أن امبراطورية الصين أصبحت فى مرتبة البحرية السويسرية .

لم يكن من المعقول أن يقبل جميع الصينيين هذه الخطة دون اعتراض ولكن ما العمل ؟ فى امتحانات المسابقة التى عقدتها الامبراطورية عام ١٨٩٨ تقدم ألف من המתحنيين يتزعمهم كانج يوواى بالتماس الى الامبراطور لاجراء اصلاحات دستورية ، وقدمت عدة التماسات أخرى من جهات متعددة ولكن كان مصيرها جميعا الضياع فى متاهة دهاليز القصر الامبراطورى .

وفى هذه الفترة صدرت صحيفتان تدعوان الى الاصلاح وهما كوون ياو (الصحيفة الوطنية) وتشونج واى تشى ون ياو (النشرة اليومية العالمية) ولكن الصحيفتين لم يقدر لهما النجاح بسبب ندرة القراء حينذاك .

الدكتور صنون يات سن :

ولكن رجلا واحدا حقق النجاح . ذلك هو الدكتور صنون يات سن . لقد شاهد الرجل عجز بنى وطنه الظاهر فى مواجهة الغزو الأجنبى ، كما شهد عدم كفاية الادارة الامبراطورية ، فتخلى عن عمله وغادر الصين الى الخارج لينظم حكومة ثورية فى المنفى . وكان اعتقاده أنه لابد أن يأتى يوم لقيام ثورة فى الصين ، خاصة اذا كان لدى الاجانب مايشغلهم فى جهات أخرى . ذهب الدكتور صنون يات سن الى هونولولو حيث توجد جالية صينية كبيرة وبدأ يجمع حوله الرجال والآراء . وأنشأ «جمعية احياء الصين» وافتتح خزانة ثورية ، واستطاع صنون يات سن أن يرسل مبعوثيه الى كل اقاليم

آسيا الجنوبية الشرقية التي تكثر بها الجاليات الصينية لنشر الدعوه بين مواطنيه وشن على الامبراطور حربا اقتصادية لاهوادة فيها ، بمنع الصينيين في الخارج من دفع «ضريبة الولاء» التي كانت ركنا فويا من أركان دخل الخزانة الامبراطورية .

وفي ١٨٩٨ حقق الدكتور صنون يات سن أول نجاح له ولو انه كان ضئيلا ، فقد اضطر الامبراطور هوانج هسوان يصدر مرسوما يقضى باصلاح النظام التعليمي العتيق وآخر بتخفيض عدد الموظفين ، وثالثا بإنشاء مكتب دائم لنشر الآراء المؤدية للاصلاح . كذلك منح الامبراطور كل مواطن صيني حق التظلم وتقديم المشورة للادارة الامبراطورية . وكان هناك كثر من المواطنين الذين يرغبون باخلاص في التعاون مع الامبراطور لمعالجة «إحى التحلل الاقتصادي والاداري . ولسوء الحظ اعترضت عمه الامبراطور على كل اتجاها للاصلاح ، وكانت تعيش مترفة على مبلغ ضخم خصصه لها الفرنسيون . ولذلك لم تمض مائة يوم على اصدار مراسيم الاصلاح حتى أصبح الامبراطور حبيس قصره وألغيت المراسيم .

قد يقال ان هذه المراسيم لم تكن ذات دلالة كبيرة ولكنها في الواقع أصبحت ميثاقا ، بنيت عليه كل حركات الاصلاح في المستقبل . وهي بوصفها وبتوقيع الامبراطور عليها صارت هدفا دستوريا للصينيين يمانل الماكناكارتا (العهد الأعظم) لدى الانجليز . ولقد أبلغ صنون يات سن اصدقائه أن عليهم الانتظار حتى وفاة الامبراطورة الأرملة (عمه الامبراطور) فتصدر قوانين الاصلاح مرة ثانية ، وأنهم لو تذرعوا بالصبر لتحققت ثورة بيضاء دون اراقة نقطة من الدماء .

لقد عمل أنصار صنون يات سن بمشورته ، ولكن لم يكن جميع الصينيين من أنصار الدكتور ، واذن فلم يكن الصبر رائد الجميع .

لقد كانت ذكرى ثوار تاي بينج ماثلة في أذهان أبنائهم ، وهم لا يزالون يتطلعون الى «مملكة السلام الأعظم» . وبدا لهم كان عهد الثورة هو الفترة الوحيدة في تاريخ الصين خلال القرن التاسع عشر التي تستحق أن تسمى فترة حضارة وكرامة .

في ذلك الحين كان جبهة الضرائب من عمال الامبراطور لا يزالون يحصلون الغرامات التي فرضتها الادارة الامبراطورية على بقايا ثوار تاي بينج في اقليمى آنهوى وكيانجسو المحيطة بالعاصمة السماوية (عاصمة ثوار تاي بينج) . أخذ هؤلاء الجبهة في عملية التحصيل دون مراعاة للفيضانات والمجاعات التي اكتسحت المنطقة في عامي ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، بل اشتدوا في المطالبة بمبالغ اضافية لتسديد الغرامة الحربية التي فرضتها اليابان على الامبراطور . ولكن أنى لهم المال وملايين الفلاحين يعيشون على لحاء الشجر وجذور النبات . لقد مات من بين هؤلاء ١٨٧ ألفا عام ١٨٩٧ ، ٦٧٢ ألفا في عام ١٨٩٨ بسبب سوء التغذية .

حرب البوكسر :

ولما اشتدت غائلة الجوع على هؤلاء الفلاحين الثعساء ، انضموا عام

١٨٩٨ الى حركة تمرد كان يتزعمها يوتونج تشن ، حفيد أحد مؤسسي حركة تاي بينج . وفي ١٨٩٩ قاد يوتونج تشن أتباعه الى اقليم شانتونج حيث انضموا جميعا الى «جمعية البر والقبضات المتضامنة» (البوكسر) وهي الوريث الروحي للمملكة السماوية . وقد كانت هذه الجمعية على درجة كبيرة من المرونة السياسية والتنظيم فغيرت شعارها من «إبادة المانشو» الى «اعزاز المانشو وإبادة الأجانب» .

وفي يناير ١٩٠٠ اكتسح يوتونج تشن هو وجماعة البوكسر اقليم هوشي (الذي عاصمته بيكين) واحتلوا تينتنسن . ونجح الثوار في قطع المواصلات الحديدية عن مدينة بيكين ، وضم غالبية الجيش الامبراطوري الى صفوفهم .

وفي شهر مايو دخلوا مدينة بيكين نفسها وأحرقوا الكنائس المسيحية التي صنادفوها في أثناء زحفهم ، ذلك ان يوتونج كان يعتقد أن هذه الآلهة الأجنبية هي التي قضت على المملكة السماوية وإذا فلا بد من التخلص منها نهائيا . ولما سمعت بريطانيا وفرنسا وروسيا أبناء نهب الكنائس وأحرقها أرسلت تعليمات الى أساطيلها أن تقف على أهبة الاستعداد على بعد من ساحل الصين الشمالي للأخذ بالثأر ولم تكن الامبراطورة الأرمل في مركز يسمح لها بتقديم الاعتذار الى الدول الغربية وقمع الاضطرابات ، ذلك أن الثوار كانوا قد اقتحموا عليها القصر عندما تلقت مذكرة الاحتجاج البريطانية ، وفي يونيو عام ١٩٠٠ لم يكن أمامها الا أمر واحد وهو التفاهم مع جماعة البوكسر وإعلان الحرب على «المعتدين الأجانب» .

وفي يوليو نزلت قوة مشتركة قوامها ألفا جندي بريطاني وفرنسي وروسي وأمريكي في ميناء تينتنسن ، واتجهت نحو بيكين ولكن الثوار نصبوا لها كمينا في الطريق وأهلكوا الجانب الأكبر منها . وفي أغسطس نزل أول جيش للحلفاء قرب تينتنسن وزحف على بيكين فاحتلها ، ولكن الثورة كانت قد عمت أرجاء الصين ، وسالت الدماء أنهارا وارتكب الجانبان أشد الأعمال الوحشية . ولقد دامت حرب البوكسر عاما دمويا كاملا ، وانتهت بهزيمة الثوار وتوقف حركتهم أمام ذلك التجمع القوى لقوات الحلفاء الغربيين ووقوف أساطيلهم بالمرصاد أمام كل موانئ الصين . وعاد الفلاحون الى دورهم ليخفوا أسلحتهم وينتظروا سنوح فرصة أخرى .

وكان على الامبراطورة التعسة أن توقع معاهدة صلح تضاءلت بجانبها معاهدة الصلح اليابانية ، سواء في حجم الغرامة الحربية التي فرضتها أو في درجة الإذلال التي تعرضت لها امبراطورية الصين المتداعية ، ولقد حلت الهيئة الدبلوماسية الأجنبية فعلا محل حكومة الصين في إدارة شئون البلاد ، وشوهد الحرس البريطاني خارج القصر الامبراطوري على زعم أنه جاء للمحافظة على الامبراطورة من الاغتيال ، ولأول مرة في التاريخ توغل الجنود الأجانب في داخلية الصين «للقيام بأعمال الحراسة» .

كان عمر ماوتسي تونج ثماني سنوات حينما تم قمع ثورة البوكسر ولم يكن قد زار تشانج شا عاصمة هونان من قبل ، كما أنه لم يشاهد الحامية البريطانية هناك . ولكن جده كان يتميز غيظا لوجود جنود أجانب

فى اقليم هونان على غير دعوة منه . وأخذ الجد يحـدث حفيده الغريب الأطوار الذى لم يكن قويا كاخوته ، ويهدىء من مخاوف والده ويطمئنه على أنه من الخير للأسرة أن يكون بينها مثل هذا الولد الضعيف ، اذ قد يجتاز امتحان المسابقة ويلتحق باحدى وظائف الخدمة المدنية فى امبراطورية الصين . واستأجر الجد (ماو) مؤدبا ليعلّم حفيده المخبوب (تسى تونج) القراءة والكتابة أما كو فان والد تسى تونج فقد استجاب لرغبة أبيه (ماو) ونرك الولد وشأنه .

كان نمو تسى تونج بطيئا ولكنه كان سليم التفكير ، وفى سن الثامنة كان قد ألم ببضع مئات من رموز الأبجدية الصينية ، كما أصبح على ادراك واسع ولو أنه سطحي ، بالأدب الصينى وخاصة مايتعلق منه باقليم هونان وكان يتحدث عن نفسه فيقول أن رأسه الغريب التكوين الذى يشابه الكمثرى كان مملوا بالشعر وبقصص الحرب التى كان يحكيها له جده .

كان تسى تونج يحب جده ولو أنه كان يخشاه ، وعندما مات تسنج حاكم الاقليم أعد تسى تونج قصيدة وقدمها لجده ليبعث بها الى أسرة تسنج وبتشجيع والده أعد قصيدة ترحيب بالحاكم الجديد تشانج تشبه تونج . وما كان الفتى تسى تونج ليهتم بما نلقاه كتاباته من عناية او اهمال وظل يحيا حياته الخاصة مستمتعا بتدليل جده له وما يشتريه له من مداد وقراطيس للكتابة . وقد حاول التودد الى والده ولكنه فشل فى محاولته .

وفى عام ١٩٠٣ مات الجد ولم يوص بشيء لابنه كوفان ، فلم يسح الرجل الا أن يصب جام غضبه على الفتى ماوتسى تونج ذلك الفتى الذى كان جده يدلله . وما أن وورى جسد ماو التراب حتى هب كوفان فمزق الصحائف وأراق المداد وبعث بابنه تسى تونج للعمل فى الحقل ، مع اخوته الأقوياء . لظالما كان هؤلاء الأخوة يحسدونه على حياته الأدبية ، أما الآن فهو بين ظهرائهم وتحت رحمتهم فكلفوه أشق مافى المزرعة من أعمال الفلاحة . كان عليه أن يشتغل بجانب أسرع العمال فى مزرعة والده ، وأن يبزهم فى اقتلاع الحشائش الضارة واستعمال أنفاس على أن تكون وجبته أقل من وجباتهم . وكان العامل الزراعى يتناول وعاء من الارز كل يوم وبيضة واحدة فى الشهر . ولقد قال ماوتسى تونج مرة لاحد المراسلين الأجانب «ماكنت أنا ولا اخوتى نحصل على البيضة ، أما اللحم والسّمك فلم نذقهما أبدا » .

لم يكن ماوتسى تونج ابن العاشرة قد تعود على العمل الشاق فى الحقل طول اليوم ، وقد استنفدت ساعات العمل الشاق الطويل كل مافى جسمه الضئيل من قوة ، ولكنه ثابر على هذا العمل الشاق بسبب ماكان يوجهه له اخوته من تهكم وسخرية . لقد ظل عامين كاملين يشتغل فى الحقل وحده ، ولا يكلم أحدا بل يفكر فيما فى عالم الطفولة من ظلم وقسوة . وأخيرا فقد صبره ولم يعد يطيق حياته فى الحقل . وفى احدى الليالى لم يعد الى دار أبيه ، بل حمل منديلا مملوا بهبات الارز وولى وجهه شطر تشانج شا عاصمة اقليم هونان . وبعد أن قطع عشرين ميلا قابله فلاح طيب القلب فرق له وآواه . كان هذا الفلاح فقيرا ولكنه لم يكن مكتئبا وقد انخرط فى سلك احدى الجمعيات السرية الصينية المتعددة التى كرسست

حياتها للثورة • وأمل هذا الفلاح في مجيء يوم تبتسم فيه الحياة • هو الذي بعث فيه البهجة وبدد أحزانه •

كان الفلاح يؤمن بأن الصين خسرت حربها ضد اليابان بسبب عجز الامبراطور وبلاطه • وكان ماو تسي تونج يشاهد أعضاء الجمعية السرية كل ليلة في دار الفلاح يتحدثون ويدبرون الخطط في انتظار «اليوم الموعود» فيرقد على الأرض ويصفى الى مايقولون •

كان الفلاح ولى نعمته عضوا في «جماعة التعاون الأخوي» وقد أصغى اليهم ماو وهم يرددون شعارات مثل «فليسقط المانشو والأجانب» •

لم يكن ماو قد رأى الأجانب ولا الامبراطور من قبل ولكنه اعتقد أن أعضاء الجمعية السرية يعرفونهم جميعا • ولقد جال بخاطره أن حضور اجتماعات الجمعية السرية أمر جدير بالاهتمام ، ولم يعقه عن التفكير في ذلك أنه لا يزال فتى وأنه أصغر من أن يقحم نفسه في المغامرات • لقد انتهى فرار ماوتسي تونج من بيت أبيه بكارثة ، فقد أغار البوليس على أعضاء الجمعية أثناء أحد الاجتماعات ، ووجد الفتى قابعا على الأرض بجوار أولئك المنشقين وقد أعيد الفتى الى دار أبيه ، فجلده أبوه بلا رحمة أمام جمع من الناس •

ومنذ ذلك اليوم بدأ ماو يقوم بأشق الأعمال، فالغيت من سجل حياته أيام الراحة وكان طعامه صنفا واحدا لايتغير وبكميات قليلة ، وأنكره أخوته وماكان أبوه يوجه له حديثا غير السب والشتم • وبرغم كل تلك الكراهية التي أظهرها والده فقد عكف على عمله بلا شكوى • لقد كان لديه متسع من الوقت للتفكير فيما سمعه من أعضاء «جمعية التعاون الأخوي» وقد أصبح الامبراطور في نظره معادلا لوالده ، فهو رمز الظلم والقسوة والتجرد من النزعة الانسانية وعلى النقيض من ذلك فإن الفلاحين من أمثال «ولى نعمته» كانوا يمثلون مافى الحياة من سخاء ورحمة • أما ملاك الأراضي ورجال البوليس فلم ير فيهم الا صورة طبق الأصل من اخوته ، وهنسا كان يقول : كانت قسوة والدى السبب الاول في اتجاهاتى الثورية ، وكان سلوكه يبدو لي كأنه شيء لا بد من تغييره ، وأن يوضع حد لما في كل أسرة صينية من ظلم واضطهاد •

كان ماوتسي تونج حريصا على أن يراجع بعد عودته من الحقل ما سبق أن تعلمه في أثناء حياة جده ، وأن يزيد عليه ان استطاع • وكان بيت أبيه لا يحوى الا قلة من الكتب ، ولكنه أخذ يستعيد قراءة هذه الكتب القليلة حتى حفظها عن ظهر قلب • وكثيرا ماكان النزاع يثور بين أبيه وأمه حينما تقف أمه بجانبه اذا حاول أبوه انتزاع الكتب من بين يديه وارغامه على أن يأوى الى فراشه بعد تناول العشاء ، فقد كانت أمه مخلوقة وديعة ودودا لايعرف الشر الى قلبها سبيلا • وفي عام ١٩٠٥ اختفت هذه الأم الحنون ، فقد أغرقت نفسها في بركة ماء ودفنت سرا ، لقد كان الانتحار لديها أخف ألما من العيش مع والده كوغان الذي ازداد قسوة وطغيانا •

ولما حرم ماوتسي تونج نصيره الوحيد في دار أبيه عكف على عمله في الحقل في أثناء النهار ، وعلى الاشتغال بقلمه في أثناء الليل • ولم يكن عكوفه على الكتب مشابها لما يفعله أهل العلم • بل كان كل همه أن يؤهل نفسه

بكل طريقة ممكنة حتى يستطيع مغادرة دار أبيه في أقرب فرصة ، ويقوم بعمل نافع . لم يكن يدري على وجه التحديد ماهو هذا «العمل النافع» ولكن كانت لديه فكرة مبهمه ، ذلك أن «يبيد الرجال الذين هم على شاكلة أبيه، ويحرر أولئك الذين هم من طراز أمه» . وكان هذا الحلم يمتزج في نفسه بالجوع والخوف فيترجم ساعة الغداء بالعمل على تحسين مستوى معيشة لفلان الصيني الفقير . كان عيشه أقسى من عيش هؤلاء الفلاحين ، ولقد اتخذ لنفسه أصدقاء كثيرين من بينهم وبخاصة أولئك الذين يعملون في مزرعة والده ، وذلك على الرغم من التعليمات المشددة التي تفرض عليه أن يبعد بينه وبينهم باعتباره ابن رب الدار وهم أجراؤه . وكان الفلاحون بدورهم يبادلونه ودا بود ويبذلون أقصى مافي طاقتهم لتخفيف عبء الحياة عليه .

وفي عام ١٩٠٦ وكان ماوتسى تونج قد بلغ الثالثة عشرة ، كان محصول الأرز رديئا في اقليمى هونان وكيانجتسى ، بل امتدت رداءة المحصول الى جميع مناطق انتاج الأرز في جنوب وجنوب شرقى الصين . وقد رحب والد تسي تونج بالمجاعة على أنها نعمة مستقرة ، فرفع سعر مالهديه من الأرز وجلس في انتظار الثروة الموعودة . ولكن الثروة الموعودة لم ترد فلم يكن لدى الفلاحين من المال مايكفى لشراء الأرز بهذا الثمن الباهظ . ولما اشتد الجوع بالعمال والفلاحين تجمعوا أفواجا تلو أفواج وقدموا تظلمات للادارة المحلية . وقد شجعهم أنصار جماعة صون يات سن الثورية فهاجموا المخازن والمحال التجارية في الليل وسرقوا كل ماتصل اليه أيديهم من مواد غذائية وتركوا على الجدران الشعارات الآتية :

«أنشئوا الجمهورية ووزعوا ملكية الارض بالتساوى» . وكان من بين مخازن الارز التي هوجمت مخزن والد ماوتسى تونج ، بل ان الرجل نفسه أخذ رهينة . وكان الفلاحون على وشك أن يمزقوه اربا لانه من «المختزنين» لولا أن أنقذته فرقة من الحرس الامبراطورى القادم الى تشانج شا . ولما تم قمع الاضطراب عين كو فان والد تسي تونج قاضيا للصلح ومنح سيطرة انشاء محاكم لمعاقبة المتمردين . وقد حكم على كل من وجهت اليه تهمة الذهب أو اثارة الاضطرابات بالاعدام ، أما الفلاحون الذين كانوا يملكون قطعاً صغيرة من الارض حول مزرعته فقد وجه اليهم تهمة الخيانة العظمى . فأعدموا وصودرت أملاكهم وضمت الى مزارع كو فان .

كذلك وجه كو فان الى فلاحيه تهمة محاولة نهب مخازنه وأعدمهم جميعا باستثناء شخص واحد .

أما ماوتسى تونج فكان أبوه قد سجنه في أثناء المحاكمات ثم أطلق سراحه بعدها .

وذهب الى الحقل بعد اطلاق سراحه فرأى رؤوس أصدقائه الفلاحين معلقة على أعمدة حول مزرعة والده فجن جنونه . ان كل تلك الأعوام الطويلة من الظلم والتعسف ، واختفاء والدته ، وتلك القسوة الوحشية المتعمدة التي كان والده يصيها عليه صبا ، كل ذلك تجمع في رأسه الصغير فطار ليه . . تناول سكيناً وأخذ يجرى صارخا وسط الحقول باحثا عن القاتل . . عن والده . فلم يجده . ولما لم يجد والده لينتقم منه ، وجه ثورة غضبه الى

شخصه محاولا قتل نفسه . وهنا بادر أحد اخوته بمنعه من شنق نفسه وبعد معركة قصيرة نجا من الموت . ولكن ثورة غضبه لم تهدأ فاندفع نحو البركة التي غرقت فيها أمه . وهدد بأن يلقي نفسه في الماء ان لم يعمل والده على «اصلاح نفسه» . ارتاع الوالد لموقف ابنه ، فقرر أن يعامله بشيء من الانسانية . وهنا يقول تسي تونج حينما دافعت عن حقوقى بالثورة الصريحة أذعن لى والدى ، لكن حينما التزمت جانب الخنوع والاستسلام لم يسعه الى أن يضربنى . ومنذ ذلك الحين حظيت بتأييد حزب معارض فى أسرته ، شقيقى والفلاح الأجير الذى بقى بعد أن أعدم والدى كل أجراءه .

وفى عام ١٩٠٧ بعد أن شفى ماونسى نونج مما ساء والده واضطرابا عصبيا، أرسل الى تشانج شا والتحق بمدرستها الثانوية، على أمل أن يصبح يوما ما أهلا لدخول امتحان المسابقة والالتحاق بالخدمة المدنية تحقيقا لرغبة جده . لقد اعتقد كوفان انه ليست هناك قوة فى الحياة تستطيع أن تجعل من ابنه تسي تونج فلاحا ناجحا ، وهو فى ذلك يشبه والد خروشوف والدة البابا يوحنا الثالث والعشرين .

كانت المدرسة الثانوية تعد التلاميذ لامتحانات المسابقة تحت اشراف حاكم الاقليم . وكان منهج الدراسة فى مجموعه يتكون من موضوعات انشائية وكتابة الرسائل ، ولم تكن بالمنهج نواحي نشاط اخرى كالرياضة والجمعيات المدرسية كما هو الحال فى المدارس الأوربية . وحتى لو كانت هناك أنواع من النشاط فما كان لهذا الشباب المكتئب الشديد الحساسية ذى العضلات الفولاذية والمزاج المنحرف أن يشترك فيها . لقد كان هدفه من الدراسة أن يعد نفسه لحياة أبعد ما تكون عن دار أبيه ، واذا فليس أمامه فرصة لاضاعة الوقت .

لقد وجد الدروس على جانب من الصعوبة ولم يكن ما تلقاه منها على يد المعلم كافيا لاعداده لامتحان الدخول ، ولكن هذا الفتى الذى كان مزيجاً من الكبت والزجر والأمانى المعسولة والأحلام المزعجة والخيال الشعري وارتكاب جريمة قتل أبيه ، بذل فى العمل أقصى جهد .

لقد وجد ماونسى تونج فى المدرسة رفيقا أصبح صديق العمر . كان طفلا مبكر النضج دخل المدرسة الثانوية وهو فى سن التاسعة . كان المعلم يكلفه الاعمال الحقةرة فى الفصل كجمع الكراسيات فى آخر الدرس وملء المحابر بالمداد . أما اسم هذا الولد النابغة فهو ليوشاوتشى .

كان ماو وليو يتعاونان معا فى العمل بالمدرسة وقد توثقت بينهما عرى الصداقة ، وذاقا معا حلو الحياة ومرها حتى وصلا الى الذروة ، فليو اليوم رئيس جمهورية الصين الشعبية .

وكما كان ماو وليو يشتركان فى العمل المدرسى ، فقد اشتركا أيضا فى النشاط السياسى . كانت المدارس الثانوية فى أقاليم الصين الجنوبية والشرقية مراكز للمؤامرات السياسية . وكان الدكتور هون يات سن من منفاه فى اليابان ينظم توزيع النشرات الثورية فى المدارس الثانوية والجماعات الصينية واستطاع أن يدمج الغالبية العظمى من الجمعيات السرية فى جمعياته الثورية التى قال عنها الشيوعيون انها أول حزب ثورى

بورجوازي . وقد اجمعت كل هذه الجماعات الثورية أمرها على تحنيق هدف مشترك وهو : طرد المانشو وانشاء الجمهورية وتوزيع الملكية توزيعا عادلا . أعد هذا البرنامج كي يرضى طبقتين في الصين لا يمكن تحقيق تغيير جوهري في نظام الحكم دون مساعدتهما ، وهاتان الطبقتان هما المتعلمون والفلاحون . لقد كان المتعلمون منذ زمن سحيق في تريخ الصين يكونون البيروقراطية التي يقوم على اكتافها الجهاز الاداري للدولة . وكانت هذه الطبقة ترى أنه مادام الامبراطور لم يأت أمرا يحط من كرامة الشعب الصيني ولم يتخذ أسلوبا من السلوك ينحدر «بالمدينة الصينية» الى مستوى «الهمجية» المتفشية خارج حدود الصين فالجهاز الحكومي يسير سيرا طبيبا . اما الفلاحون فهم على استعداد للتغاضي عن كل شيء باستثناء التعسف الصارخ . انهم لا يعارضون في قدر محدود من سوء توزيع العدالة . بل ان فكرة الديمقراطية تبعث في نفوسهم الحيرة ، ولكنهم يصرون على المطالبة بقدر كاف من الغذاء وعدم اللجاجة بالتدخل في شئونهم ومنازعاتهم الخاصة لقد أضاعت أسرة المانشو ثقة هاتين الطبقتين فيها ، وأذلت الصين أمام «البرابرة» الأجانب من انجليز وفرنسيين وألمان . وجعلوا جباية الضرائب من الفلاحين أمرا لا يخضع لنظام لدرجة أن بقاء الفلاحين في الارض الزراعية أصبح أمرا مستحيلا .

كانت صحيفة صون يات سن هي مينى ياو أو بيبولز هيرالد ، وكانت توزع على المدارس بالمجان . وكان ماوتسى تونج وليو شاوشى يقبلان على قراءتها في لهفة . ولقد نظما في المدرسة الثانوية حلقات للبحث لمناقشة برنامج الجمعية الثورية وأعدا اقتراحات سلماها لمدوب صون يات سن الاقليمي على أن تسلم الى الدكتور نفسه . وكما أثار الطلبة الاضطرابات فام ماو وليو بجمع المال لمساعدة الثوار .

وفي عام ١٩٠٧ عين «هسو هسى - بنى» مديرا لكلية البوليس في اقليم آنهوى ، وكان قبل ذلك في بعثة دراسية باليابان حيث اجتمع هناك مع الدكتور صون يات سن . وفي الصيف أثناء حفلة التخرج طعن هسو حاكم الاقليم طعنة قاتلة ونظم الطلبة في ميليشيا شعبية ، فاستولوا على الكلية وعلى مخزن البوليس المجاور لها وظلوا يقاومون ثلاثة أسابيع حتى استطاع الحرس المحلى اخضاعهم واعدامهم .

وقد أصبح هسو «شهيد الطلبة» واخذ كل طالب يتطلع الى مدير مدرسة عله يجد فيه زعيما ثوريا مثل هسو ، ولكن هؤلاء المديرين خيَّبوا أملهم باستثناء مدير المدرسة التي كان بها ماوتسى تونج - لقد كان رجلا عمليا الى أقصى حد ، يتحدث الى الطلبة سرا وخلصه حين اجتماعهم في دار صحيفة بيبولز هيرالد ، ولكنه كان يخشى أن يؤدي افتقار الصين الى منظمة عامة شاملة الى التفكك بمجرد بدء الحركة الثورية . وهو يرى أنه لابد من التخطيط الثورى الدقيق والصبر بعد فترة طويلة من الادارة الفاسدة . . ولكن الدكتور صون قد كبر في السن فأصبح قلقا متعجلا للنجاح كي يشهده حيا .

كان هذا المدير يعتقد أن قيام الثورة قبل الاوان سوف يؤدي الى

حروب أهلية تمتد سنوات طويلة ، وهو في هذا على حق ، غير أن طلبته لم يرضهم منه هذا التشاؤم . كانوا يرون صورة البطل ممثلة في صون يات سن وهو رابض خلف البحر الضيق الذي يفصل بين الصين واليابان ، وكانوا يتخيلون فيه الرأس المدبر الذي ركب على جسم جاب الأقطار واكتسب الخبرة الواسعة وأنه لن يخطيء إذا ما آن الأوان ، وأن وقت الثورة قريب .

وفي عام ١٩٠٨ ماتت الامبراطورة الأرمل والامبراطور كوانج هسو . وكان الامبراطور قبيل وفاته قد وعد بإعادة النظر في « برنامج الإصلاح الدستوري » ورحب صون يات سن بهذه الخطوة على أنها بداية « الثورة المنظمة » . ولكن بموت الامبراطور ماتت معه فكرة الإصلاح ، وأصبح ذلك جليا واضحا حينما اعتلى العرش الامبراطور بوبى ابن أخ الامبراطور السابق وهو طفل لا يتجاوز الثالثة وقد أصبح تساي فنج والد الامبراطور الصغير وصيا عليه . وما ان أصبح تساي فنج وصيا حتى تولى منصب القائد العام للقوات الامبراطورية وعين أحد سقفيه رئيس هيئة أركان حرب الجيش والآخر وزيرا للبحرية . وإذا كانت أسرة المانشو قد عرفت بالجهل فقد كان تساي فنج من بينها أجهل الجهلاء .

وبعد شهر من ارتقاء الامبراطور بوبى العرش تزعم هسيونج تشنج تشى ثورة في أنكنج ، وجمع هسيونج حوله الانصار الذين يؤمنون مثله بأن تساي فنج سوف يعارض كل اصلاح دستوري ، وأعلنوا حكومة عسكرية في المدينة . ولقد استطاعت القوات الامبراطورية أن توقع الهزيمة عاجلا بهذا الثائر وتقطع رأسه ولكن هذا الحادث لقن تساي فنج درسا نافعا ، ذلك أنه أيقن أنه إذا كان لابد من الإصلاح فليتم ذلك عن طيب خاطر ، بدلا من أن ينتزع غصبا من التاج ويستطيع الحاكم أن يشل حركة أى اصلاح بإنشاء صداقات له في أى برلمان جديد يأتى به هذا الإصلاح . وهكذا أعلن تساي بداية عهد جديد من التعاون الدستوري بين العرش والشعب ، وحدد لتلك البداية مهلة قصيرة لا تتجاوز عام ١٩١١ . ولكن خدعة تساي لم تجز على أحد ، فقد مضى صون يات سن في تنظيم ثورات الفلاحين كلما وجد الى ذلك سبيلا ، أما ماوتسى تونج وليو شياو فقد أخذوا يؤلفان قصائد ملؤها الهجوم والتهكم على « عهد التعاون الجديد » وبدأ يستعدان لحوض المعركة . وقرر ماو - متأثرا بما قرأه في مكتبة المدرسة - إنشاء فرق الهجوم الثورية ، فأخذ يستعمل اللين تارة والعنف تارة أخرى حتى جند لفرقته ثلاثين من زملائه الذين يزدون عن متوسط السن ، وأطلق على هؤلاء اسم « الاسبرطيون » .

وأخذت الفرقة الجديدة تتدرب كل صباح قبل بدء اليوم المدرسى على الجرى مسافات طويلة في الخلاء ، ويتخلل التدريب تعريض المجنسين لقسوة الطبيعة والعنف . ثم يواصلون التدريب في فترات الراحة بين الدروس ، وأخيرا يقومون في المساء بتدريب أشد عنفا من تدريب الصباح وفي أثناء العطلات المدرسية كان الاسبرطيون يملأون حقائبهم بحبات الفول الجاف ويمارسون التدريب لمدة يومين أو ثلاثة وغداؤهم الوحيد الفول الجاف والماء . لم يشترك ليو شياو تشى في هذا التدريب الاسبرطى

العنيف ، ورغب عن ذلك الجهد البدني في سبيل اعسداد نشرات نوزع على الاسبرطيين فتلهب حماسهم وتحفزهم على اقتحام المعارك .

وفي باكورة عام ١٩٠٩ وجه ليانج تشي تشا وهو صديق حميم للامبراطور السابق ، الدعوة الى اصدقائه للاجتماع في طوكيو . وكان في اليابان حينذاك كثير من رجال الاعمال الصينيين وعدد كبير من السياسيين المنفيين . وقد ابلغ ليانج المحتجين اسفه لان الوصي على العرش سوف ينجح في القضاء على عرش المانشو مالم يتخذ اجراء لصدده ، ومضى ليانج يؤكد انه من العيب وقف التيار التقدمي كما زعم تساي ، وان حركات التطهير في الجيش والجامعة التي قام بها تساي لم يكن لها من نتيجة الا مضاعفة انصار حزب صون يات سن الثوري ، وان السبيل الوحيد لمواجهة الحركة الثورية التي يتزعمها صون يات سن هو انشاء ملكية دستورية على النمط البريطاني . وقال ليانج انه اذا أمكن انشاء هيئة مستنيرة من الأحرار فانها تستطيع تحقيق نصر سياسي ، اذ لا يزال بين الصينيين الكثير ، ممن يحتفظون بولائهم لعرش المانشو . لذلك أسس ليانج وأصدقائه «الرابطة السياسية»

ودفعه التفاؤل الى ارسال مذكرة الى كانبج الوصي على العرش بان برنامج الرابطة السياسية هو الدعاية الوحيدة التي يمكن أن تسند العرش واذا أيد الوصي مطالب الرابطة فأنشأ ملكية دستورية ، فهذا هو السبيل لانقاذ التاج .

لم يكن الوصي على درجة من الذكاء تتيح له تقدير مافى هذا العرض من رأى سليم . ولقد كان من المستطاع انقاذ عرش المانشو . ذلك أن غالبية الطبقة المستنيرة من الصينيين قد أدركت انه لا بد من التعجيل بوضع برنامج على الأسس الغربية اذا أريد بالصين أن تنفض عنها غبار التخلف في التنمية الزراعية والصناعية . واذا كان تطوير الاقتصاد الصيني أمرا ضروريا ، فلا بد أن يقترن به تطوير أداة الحكم ، ودليل ذلك أن بريطانيا وهي أقوى دول الغرب اقتصاديا تحكمها ملكية دستورية .

ولقد أصم الوصي على العرش أذنيه عن سماع أى نصيح ورفض بحث أى نوع من الاصلاح الا ذلك «التعاون الزائف» الذى دعا اليه ، وعقب على ذلك باعلان ان انشاء «الرابطة السياسية» عمل غير قانونى ثم نفى أعضائها .

وقد اعترض صون يات سن على انشاء هذه الرابطة وشن عليها حملة في صحيفته «بيبولز هيرالد» قائلا انها خدعة اجنبية وضاعف جهوده لتعبئة المادة الخام لثورته . وفي عام ١٩١٠ اكتسب انصارا جدد من ضباط الجيش الجديد وشن هجوما على مدينة كانتون . لقد شنت القوات الامبراطورية شمل الثوار واضطرت صون يات سن الى الفرار الى هنج كنج ، ومع ذلك فقد استطاع الثوار الاستيلاء على كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر وأخفوها ليوم لقاء آخر .

كان شتاء ١٩١٠ ، ١٩١١ قاسيا على اقليم هونان فقد توالى هبوط محصول الارز مما أدى بالفلاحين الى حالة خطيرة من الجوع واليأس .

وُلقد نظم ماوتسى تونج وهو فى السابعة عشرة قوة صغيرة زحف بها على مقر الحكم فى تشانج شا ، ولكن كثيرا من الفلاحين رفضوا السير معه ، وفضلوا على ذلك سرقة الأغذية لأطعام أسرهم ، وطبعا كان والده من بين من سرق منهم الأغذية أضف الى ذلك أن الفلاحين لم يكن لهم كبير أمل فى ذلك الشاب المرهف الحس المستسلم الى الحزن والكآبة والذي حاول أن يقتل نفسه . ولكن ماو وصديقه ليوشاو لم يتسرب الى نفسيهما اليأس ، واستطاعا تعبئة كتيبة قوية من الطلبة والمعلمين وأصحاب المحال التجارية ولما لم يكن لدى هذا الجيش الصغير سلاح ، فقد قام بزحف سلمى الى مقر الحاكم لتقديم التماس بتقديم الأرض بلا ثمن الى المناطق المنكوبة ، وهذه هى الطريقة التقليدية فى الصين لدعوة الهيئات الرسمية للاشتراك فى تخفيف آثار المجاعة . ولما بلغ ماو وليو فناء قصر الحكم لم يلقيا ترحيبا من الحاكم فلم يكتف هذا الحاكم برفض الالتماس بل أصدر أوامره الى الحرس بمهاجمة مقدميه .

ولم يسع ماو وليو وجيشهما الصغير الا الفرار ورجال الحرس فى أثرهم يطلقون عليهم النيران .

وفى ربيع ١٩١١ قدم الدكتور صنون يات سن عدة التماسات متشابهة الى حكام الاقاليم الجنوبية فى الصين ، ولما قوبلت التماساته بالرفض واطلاق نيران الحرس كما هى العادة ، استدعى قواته المسلحة وأصدر أمره اليها باقتحام مقر الحاكم . ولكن قوات صنون كان ينقصها التدريب والقيادة القديرة ، ولذلك منيت بالهزيمة وقتل وجرح منها الكثيرون . وفى ٢٧ من ابريل عام ١٩١١ جىء باثنين وسبعين من أنصار صنون يات سن وأعدموا رميا بالرصاص فى قصر الحاكم . وهؤلاء هم المعروفون حتى اليوم بالشهداء الاثنين والسبعين ولهم ضريح كبير فى ضواحي مدينة كانتون .

لقد آن أوان الثورة ، فقد تتابعت الاضطرابات فى الصين الواحدة تلو الأخرى ، وعلى الرغم من ان جماعة صنون يات سن كانت سيئة التنظيم فقد كان مطمئنا الى أن الشعب الصينى - ان عاجلا أو آجلا - سوف يقوم عن بكرة أبيه بثورة يكون هو زعيمها ، والمسألة ليست الا مسألة الوقت والمكان والشرارة الأولى التى تلهب مشعل الثورة .

لقد كانت أول شرارة للثورة من خارج الصين ، ففي يونيو ١٩١١ قدم سفراء بريطانيا وفرنسا وألمانيا مذكرة مشتركة الى الوصى على عرش الصين ، وكانت هذه المذكرة فى صيغة انذار نهائى . وسببها أن الدول الغربية قد أفزعته كثرة الاضطرابات والثورات الداخلية فى الصين ولما كانت مصالح هذه الدول فى الصين تتوقف على صيانة السكك الحديدية فقد رأت أن الطريق الوحيد للمحافظة على مصالحها هو تأمين الخطوط الحديدية على أن يصبح الوصى مسئولاً شخصياً عن أى تلف يصيبها . كذلك اتفقت الدول الغربية على برنامج لتوسيع شبكة الخطوط الحديدية الصينية . بشرط أن توضع ادارتها تحت اشراف شركة دولية لا تشترك فيها الصين .

وقف الوصي موقف العجز أمام مطالب الدول الغربية ، ولم يسعه الا أن يصدر بما أمرت به ، فأصدر مرسوما بتأميم السكك الحديدية . ومما يحير الفكر ، أن الشعب الصيني قد نفذ صبره بهذا التأميم ، ولم يستطع الجوع ولا الاستغلال أن يفعلوا في نفسه ما فعله ذلك التهديد بتأميم السكك الحديدية . لقد أخذ حملة الاسهم الصينيون في شركات السكك الحديدية المهددة بالتأميم يعقدون الاجتماعات في كل أنحاء البلاد ويوجهون الاحتجاجات الى الحكومة ، بل انه في اقليم هونان الذي لم يكن فيه من الخطوط الحديدية الا القليل استطاع الفتى ماوتسى تونج أن يجمع حوله الجماهير الثائرة ويسير بها الى قصر الحاكم مهددين « ارفعوا أيديكم عن خطوطنا الحديدية » وفي تشنجتو شاصمه اقليم سزشوان استطاع الاهالي تكوين جمعية أطلقوا عليها اسم «جمعية المحافظة على حقوق الشعب في ملكية السكك الحديدية » وعقدوا مؤتمرا ضم ممثلي جميع الطبقات ، ولم يسع الحاكم الضيق الأفق الا أن يأمر رجال حرسه باطلاق النار على المؤتمرين ، فسقط آلاف من أفراد الشعب الأعزل صرعى في شوارع المدينة .

وما أن انتشرت أنباء مذبحه تشنجتو ، حتى عمت الثورة ، فتكونت الجمعيات في كل مكان ، وأصبحت نواة للجيش الثوري . وقام الثوار بمهاجمة دور حكام الاقاليم واستولوا عليها ووزعوا الأسلحة على الجماهير وكانت أشد الاضطرابات في هسنتشن وجونجهاسين وويوان وتشينواي حيث أطلق الثوار النار على الحكام وقطعوا رؤوسهم وتولت الادارة المحلية « حكومات الشعب المؤقتة » وأعلن الثوار عدم الولاء للامبراطور .

اعلان الجمهورية الأولى :

بادر الوصي على العرش بارسال قوات من اقليم هوبيه الى سزشوان في محاولة بائسة للقضاء على الثورة في مهبها . ولكن الجنود انضموا الى الثوار . وفي ١٠ من اكتوبر ١٩١١ ، انضمت كل قوات الجيش الامبراطوري المرابطة في ووتشانج الى الثورة ، وهاجمت قصر الحاكم واستولت على مخازن الأسلحة فهرب موظفو حكومة المانشو وأنشأ قائد قوات ووتشانج حكومة عسكرية في الاقليم وأعلن الحاكم الجديد انتهاء حكم المانشو وقيام «اول جمهورية في الصين» ثم دعا الشعب الصيني كله للزحف معه الى بيكين . ولقد تدفقت على ووتشانج وفود من جميع المنظمات الثورية الصينية ولما بدأت القوات الموالية للمانشو هجومها المضاد ، انتقلت «الحكومة المؤقتة» الى نانكنج . وفي ٢٤ من ديسمبر ١٩١١ . عاد صون يات سن الى الصين من رحلة سريعة كان يقوم بها في أوروبا وانتخب رئيسا مؤقتا للجمهورية . وفي أول يناير تولى منصب الرئاسة في نانكنج وبلغته أنباء نزول أسرة المانشو عن الحكم .

وكان ماوتسى تونج وليو شاو تشى بين الجماهير الغفيرة التي وقفت في شوارع نانكنج تستمع الى خطاب صون يات سن وهو يعلن الدستور الجديد . لقد كان خطابا مثيرا للمشاعر .

فالدستور الجديد يقرر مبدأ المساواة المطلقة دون اعتبار الى الطبقة

أو العقيدة أو اللون وهو يقرر حرية الكلام وحرية النشر وحرية الاجتماع
وحق التظلم إلى الحكومة وحق مقاضاتها .

وكان الشعب يهتف بحماس جنوني كلما انتهى صون يات سن من
قراءة مادة من مواد الدستور . وفي غمرة هذه الحماسة الشعبية التفت
ماوتسي تونج إلى ليو شاو قائلا :

« أتظن أن هذا الدستور سيوضع موضع التنفيذ ؟ ورد ليو قائلا :
« سوف يجرى » يوم نضع فيه دستوراً خيراً منه ، ولننقله مواده » .

الفصل الثالث

لم يقدر للجمهورية الصينية الأولى البقاء أكثر من عامين ، ثم تفككت والسبب الأكبر في سقوطها عدااء الدول الأوروبية الكبرى .
التي لم تدرك أن أملها الوحيد في مستقبل دائم من الاتجار الحر في الصين ، كان يتوقف على تأييدها للدكتور صون يات سن . لقد كان إعلان الجمهورية أقرب الطرق أمام الصين للأخذ بالأساليب الديمقراطية الغربية وخاصة منها أساليب الحكم الديمقراطي في الولايات المتحدة وفرنسا وهما الدولتان الغربيتان اللتان كانت الطبقة المستنيرة من الصينيين على المام واسع بأساليب الحياة فيهما . لم يكن الصينيون يمارسون أي نوع من الحكم الديمقراطي من قبل ، وقسّل من بينهم من عاش في البلاد الأجنبية القليلة التي قبلت النظم الديمقراطية على أنها خير أساليب الحكم وأنه لا بد من الأخذ بها . ولقد عزم الصينيون على تجربة الحكم الديمقراطي عام ١٩١١ ، لأن الحكم الامبراطوري في الصين قد دب فيه الانحلال ، وأنه جلب الخزي والعار للشعب الصيني أمام الأجانب . ومن هنا صار للاعتقاد بين ذوى الرأي من الصينيين بأن أي بديل لحكم أسرة المانشو سوف يكون موضع قبول الشعب . فإذا استطاعت هذه الديمقراطية الغربية التي تحدث عنها صون يات سن أن تجلب الرخاء الى الصين وترد للشعب الصيني احترامه وكرامته فهي اذا خير مايرتجى ، وينبغي تجربتها . وعلى كل فان الفلاح الصيني في ظل هذه الديمقراطية لن يكون أسوأ حالا مما كان عليه في عهد المانشو . حقيقة انه كان يكره الأجانب ، ولكن لا مانع من الأخذ بخير ما لدى هذا « الشيطان الأجنبي » والانتفاع به الى أقصى حد .

ولكن يؤخذ على دعاة الديمقراطية الصينيين أنهم لم يفعلوا شيئا لكسب ثقة المثقفين ولا الفلاحين . فالدكتور صون يات سن لم تكن خططه العملية دقيقة واضحة ، أما مساعدوه فكانوا اما من سيئى السيرة أو من المفكرين الخياليين ولما أعلن انعقاد أول برلمان في يناير ١٩١٢ ، لاستماع خطاب الافتتاح الذي يلقيه صون يات سن ، كانت ردهات دار البرلمان وأبهاؤه أشبه شيء بالسوق ، فالمقاعد والأصوات تباع وتشترى ، والدوائر الانتخابية يعاد تحديدها لمصلحة من يدفع أعلى ثمن . أما المداصب فكان يتم تبادلها نظير جعل معين .

بل قد بلغت الحال الى أن عقد اصلاح دار البرلمان طرح في مزاد سرى ورسا على شقيق واحد من أشد أعضاء البرلمان ديموقراطية .

ولكن مثل هذا النمط من السلوك لم يكن مثيرا للدهشة ، فما كان هناك أحد يعرف السلوك الديمقراطي السليم ، ولو أتيحت لهؤلاء

البرلمانيين الحديثين فسحة من الوقت ففسد يدركون ان الامانة لا بد ان تسير جنباً الى جنب مع أساليب المناقشات البرلمانية والتشريع .

ولكن لم تتج للبرلمان الفرصة لاصلاح شئونهِ ، ففي حين كان أول برلمان صيني يعقد أولى جلساته الفاضحة في نانكينج ، كان الناس في داخل البلاد وخارجها يتحدثون عن حل هذا البرلمان .

لقد ربط ذلك الجانب من الصين الواقع جنوبي النهر الأصغر مصيره بمصير الشوار الديموقراطيين ، ولكن لا تزال هناك الاقاليم الشمالية مترددة بين حكم المانشو والحكم الجمهوري . ولقد ظل الأمل يراود الوصي على عرش المانشو والامبراطور القاصر ، حتى يناير ١٩١٢ ، بشن معركة من بيكين في الشمال واعادة غزو وسط الصين وجنوبيها . وقد رأى الوصي أنه اذا لم يفلح في غزو البلاد كلها ، فلا أقبل من أن يحتفظ بالشمال وتصبح في الصين حكومتان ، احدهما ملكية والاخرى جمهورية ، وأن تبقى الحكومتان حتى تتاح له فرصة جديدة لتوحيد البلاد . ومن سوء حظ هذا الوصي أنه لم يكن لديه في البلاط الامبراطوري قائد مخلص قدير . وكان القائد القدير الوحيد في شمالي الصين هو يوان شيه كاي . لقد استطاع يوان أن يساعد الامبراطورة الأرمل على منع شقيقها من الوقوع في خطة « الموافقة على الاصلاحات » عام ١٨٩٨ ، وهو الذي نظم الجيش الامبراطوري الجديد الذي كان على درجة طيبة من الكفاية والولاء لقائده يوان ، ولو أن ولاءه للمانشو لم يكن اجماعياً .

ولكن الامبراطورة كانت تكره يوان بقدر ما كان يكرهها : ولذلك ظل الوصي تساي يبحث عن بديل لهذا القائد حتى اللحظة الأخيرة ، فلم يوفق لايجاد هذا البديل . وفي ١٠ يناير ١٩١٢ دعا تساي القائد يوان ليكون رئيس وزراء لحكومة المانشو في شمالي الصين ، وأن يتولى بجانب ذلك منصب القائد العام لقوات المانشو المسلحة . وقد قبل يوان الاضطلاع بهذه المهمة ، وتسلم زمام الأمور ، ثم أخذ يفكر في موقفه من جديد .

كان يوان شيه كاي رجلاً واقعياً ، فهو على ولاء للنظام الامبراطوري ما دامت الامبراطورة على قيد الحياة ، فهي سيديته ، مع كراهيتها له ، أما وقد ماتت فلم يجد هناك ما يدعوهُ للارتباط بعرش المانشو . ومن جهة أخرى أدرك يوان أنه يستطيع غزو جنوبي الصين في حياة صون يات سن ، على الرغم مما كان عليه الجنوب من سوء الادارة . كذلك علم يوان أن الدول الغربية مع انها لم تقف موقفاً ودياً من الجمهورية الجديدة ، فهي على أي حال تفضلها على حكومة المانشو غير المستقرة . فضلاً عن أن المانشو لم يجلبوا لبريطانيا وفرنسا الا العناء . وبعد أن قلب يوان الموقف على مختلف وجوهه ، قرر أن خير سبيل يسلكه هو مخادعة الوصي على العرش وذلك باقناعه بالتنازل عن الملك هو والامبراطور القاصر وربط مصيره بمصير الجمهورية في مقابل الحصول على منصب رئاسة الجمهورية ، وعليه بعد ذلك أن يقنع الدول الغربية بأن في استطاعته تشكيل حكومة قسوية على النظام الغربي ، اذا أقرضته هذه الدول المال اللازم لتدبير شئونه في خلال العام الاول من رياسته للجمهورية واتصل بالسفير البريطاني وعرض عليه الأمر فلقى منه ترحيباً وتشجيعاً

للفكرة ، وبعد ذلك اتصل بالحكومة الجمهورية النانسة في نانكنج وقدم اليها اقتراحا وحيدا يتلخص في أنه على استعداد لنقل الامبراطور الطفل الى مكان قصي وسليم جيشه بكامل عدته لحكومة الجمهورية وبذلك تعود الى الصين وحدتها . واشترط في مقابل ذلك كله شرطا واحدا ، وهو أن ينتخب رئيسا للجمهورية . لقد كانت هناك جمهورية وعلى رأسها صون يات سن . ولكن هذا لم يشغل باله كثيرا فرؤساء الجمهوريات يجيئون ويندھبون ، وعلى كل فمن الممكن التخلص من صون يات سن . وھدد يوان بأنه إما أن يقبل اقتراحه أو تنشب حرب أهلية يتولى هو بنفسه فيها قيادة الجيش الامبراطوري .

لم يلق يوان من صون يات سن وحكومته في نانكنج اذنا صاغية . ولقد يادر صون بإرسال مبعوته الى السفارات الأجنبية في بيكين ليتحسس رأيها في شخصه وفي يوان وأيهما أفضل . وقد عاد رسله ينبئونه أنهم على قدر استطاعتهم الحكم على الموقف . فان يوان هو « الرجل القوي » الذي يحظى بتقدير السياسيين الأوربيين ، كما أنه من المؤكد أن يوان هو الرجل المفضل لدى المصارف الأوربية التي يهمها قبل كل شيء الحصول على ضمانات لاستثماراتها في الصين . ولما سمع صون يات سن آراء مستشاريه أخذته نزعة من المثالية ونكران الذات فقدم استقالته . وفي فبراير ١٩١٢ أعلن المانشو رسميا انتهاء حكم أسرته ، وسبى يوان بجيشه الى نانكنج حيث تسلم رسميا منصب الرئاسة الشاغرة . بعد ذلك عاد يوان الى بيكين وقد وقر في ذهنه أن يجعل من هذه الرئاسة بداية لأسرة حاكمة جديدة يكون هو أول أباطرتها . وقد وعدته السفارات الغربية بتقديم المساعدات المالية .

أما البرلمان في نانكنج فقد أهمل أمره ولم يعد أحد يعبه أى اهتمام وأخذ الغربيون يعتبرونه ماثرا للتهكم والسخرية ، أما يوان فقد اغفله نهائيا . وفي يناير ١٩١٣ تقدمت شركة دولية مكونة من البريطانيين والفرنسيين والألمان واليابانيين والروس قدمت الى يوان قرضا أغذاه عن طلب المال من حكومة الصين . وقد علق ماوتسى تونج على هذا القرض حينما قرأ عنه في جريدة بيبولز هيرالد ، وعن مشروع يوان الخاص بإعلان نفسه امبراطورا أمام «البرلمان قائلا : —

« هذا ما جرته علينا الديموقراطية البورجوازية » .

وسرعان ما أدرك صون يات سن أن السدول الغربية تقضى على الديموقراطية في الصين بتأييدها للجنرال يوان سواء كانت تحبه أو تكرهه ، ولذلك فقد قام بمحاولة أخيرة لانقاذ الضحية . كان حزبه التورى القديم قد انقسم ثلاثة أحزاب فرعية حين إعلان الجمهورية : أحدهما الحزب الجمهورى والثانى الحزب الديموقراطى والثالث حزب الوحدة . وقد استطاع يوان شراء ضمائر زعماء الأحزاب الثلاثة ، فكونت الأحزاب الثلاثة ائتلافا أطلق عليه اسم « العصبة التقدمية » وكانت هذه التسمية مدعاة للسخرية إذ أنها كانت تأتمر بأوامر الجنرال يوان .

نشأة الكومنتانج وظهور شيانج كاي شيك

وفي أغسطس ١٩١٢ اقترح أحد أعوان صون يات سن تكوين حزب ديموقراطي جديد . وفي يناير ١٩١٣ بارك صون يات سن قيام اتحاد يضم سبع هيئات سياسية ترتبط فيما بينها بقدر من الاتجاهات الوطنية ، ولكن غالبيتها لا تمت الى الديموقراطية بأية صفة ، وأطلق على الحزب الجديد باسم الكومنتانج (الحزب الوطني الشعبي) . وقد أبدى صون يات سن قلقه حين اختار أعوانه لرياسته هذا الحزب الجديد رجلا تلقى تعليمه في مدارس الارساليات الدينية ، ويتكلم الانجليزية بلهجة أمريكية غير مستحبة . ذلك الرجل هو شيانج كاي شيك . وفي حديث بين صون يات سن وزوجته علق على اختيار شيانج كاي شيك لرياسة الحزب قائلا: هو صيني ووطني ، ولكن لديه من الدهاء أكثر مما يحتمله ذلك الرأس الصغير المعلق فوق عنقه .

كان ذلك الرجل الكريه ذا قدرة طبيعية على التنظيم ، ويتبين ذلك في موقفه من الجنرال يوان . فما أن أودع يوان القرض الأجنبي في خزائنه حتى بادر بطرد جميع الزعماء الثوريين من مناصبهم الادارية في نانكينج وبيكين والأقاليم المختلفة . وقد رأى يوان انه لكي يتزوج امبراطورا ، يجب أن يتحقق أولا من ولاء الرجال القسائمين على ادارة الأقاليم وخاصة نواب الامبراطور في هذه الأقاليم . وفي يونيو ١٩١٣ أصدر يوان مرسوما بتنحية ثلاثة من حكام الأقاليم الثوريين عن مناصبهم . وقبل أن يجف المداد الذي كتب به المرسوم ، كان شيانج كاي شيك قد اتصل بالحكام الثلاثة ، واستطاع اقناعهم بأن الكومنتانج هو وحده الهيئة الوطنية الحقيقية في الصين بأجمعها . وأثبت لهم أن الكومنتانج يحظى بتأييد صون يات سن . وبايعاز من كاي شيك بعث لي ليه تشون أحد الحكام الثلاثة برسالة الى يوان يعلن فيها رفضه تنفيذ المرسوم الصادر باعفائه من منصبه ، وأتبع ذلك باصدار أمر الى جنوده باحتلال الاقليم باسم الكومنتانج ، كما دعا البلاد كلها لخلق يوان باسم « الثورة الصينية المجيدة » . وما لبث حكام أقاليم كيانجسو وكوانج تونج وفوكين وسزشوان أن اقتفوا أثره ، ولم يمض أسبوعان حتى وجد يوان نفسه في مواجهة ثورة ثانية .

ماكان في استطاعة تلك القوات المحدودة التي لدى الحاكم أن تواجه الجيش الجديد الذي نظمه يوان ، ولكن النصر في حد ذاته لم يكن شيئا هاما ، فالأهمية الحقيقية تتركز في قيام ثورة ثانية . فهذه الثورة جعلت اسم شيانج كاي شيك يبرز بين الأقلية المتعلمة من الزعماء الثوريين ، كما أنها أدت بالجنرال يوان الى ارتكاب خطأ في التقدير ، فعجل باعلان نفسه امبراطورا قبل أن تسلم البلاد كلها بفكرة أن الجمهورية تحتضر .

وما لبث أن بدأ الطقوس الدينية التي تقترن باعتلاء عرش التنين (عرش الصين) ، ففي مايو ١٩١٤ شق خطا بالمحراث في معبد الزراعة بمدينة بيكين وقدم القربان على مذبح السماء . وقد بدأ لأول وهلة أن يوان بموارده المالية التي لا تنفذ والتي كان يتلقاها من الانجليز والأمريكيين ، قد نجح في انشاء أسرة حاكمة جديدة . لم يكن هناك من يعارضه فرجال الخدمة المدنية القدامى نشأوا على الاعتقاد بأن الملكية هي نظام الحكم الوحيد الذي يمكن أن يقوم في دولة ، كما لم يجعل بخاطر الفلاحين أن هناك بديلا لذلك النظام . ولقد شهدت البلاد حولين كاملين مما يسمونه « الحكم الديمقراطي » الذي ثبت فشله . ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل أن الجيل القديم من أصدقاء صون يات سن كفر بهذه المثالية التي يتضمنها الحكم الجمهوري .

ان الصينيين يمقتون الفشل ، وقد كانت تجربة الحكم الجمهوري في نظرهم أخطر فشل في تاريخ الصين جر على البلاد الكوارث ، وبما أن الامبراطورية قد عادت فكان الأمور تسير مرة ثانية في طريق الإصلاح . وليس في الموقف ما هو جديد ، فان جنديا صينيا استطاع اسقاط أسرة حاكمة وأقام أسرة حاكمة جديدة باعلان نفسه امبراطورا . وقد كان هذا هو الطراز التقليدي لتغير نظم الحكم في الصين منذ فجر التاريخ .

وأقل ما يوصف به هذا التغيير انه أسلوب صيني أصيل ، أما عن الآراء الديمقراطية الغربية ، فان أصدقاء صون يات سن الذين رحبوا أنفسهم بها ، لم تكن لهم ثقة في الأجانب ، ووقفوا ينتظرون الخطوة التالية التي سوف يتخذها كل من يوان وصون يات سن .

أما صون الذي شجعه قيام ثورة ثانية ، فقد أنشأ حكومة في كانتون بمساعدة شيانج كاي شيك ، غير أن حكومته كانت ضعيفة تعتمد في وجودها على ما يجود به عليها ملاك الأراضي المحليون وأمراء الحرب ، ومع ذلك فقد كانت مظهرا للتصميم على القتال . ولما أنس بعض المترددين هذا التصميم تشجعوا وعاهدوا أنفسهم على خدمة قضية الجمهورية فانضموا الى الكومنتانج وفي العام نفسه أنشئ في طوكيو فرع للكومنتانج ، واستطاع هذا الفرع أن يجمع مبلغا كافيا من المال دعم به خزانة الحزب في كانتون .

ولقد صمم يوان على شن هجوم شامل على الكومنتانج قبل تنويعه ولكن حالفه نحس الطالع . ذلك ان الحرب العالمية الاولى اندلح لهيبها في أغسطس ١٩١٤ وجرف تيارها الكاسح دول أوربا الكبرى فلم تجد لديها متسعا من الوقت ولا فائضا من المال لخدمة مصالحها في الصين . ولما كانت اليابان حليفة للدول الغربية ، فقد وكل اليها رعاية جارتها التي عمتها الفوضى . وهكذا وجد يوان نفسه فجأة يعتمد في الحصول على المال على أقل الدول موافقة على فكرة قيام حكومة قوية موحدة في الصين .

وفي اليوم التالي لاعلان الحرب نزلت القوات اليابانية على أرض الصين واستولت على منشآت السكك الحديدية الألمانية في تسنجن ووكياتشاو - تسينان . ووقف يوان عاجزا أمام هذا الغزو ، وكل

ما استطاع عمله هو الاتصال بالحكومة اليابانية والاستفسار عن الشروط التي تفرضها اليابان للتعاون معه . وكان رد اليابان هو «المطالب الاحدي والعشرون» المشهورة التي تهبط بالصين مرة أخرى الى مستوى المستعمرات ومنها ما يلي :-

١ - تنتقل جميع حقوق الألمان وممتلكاتهم في الصين الى الحكومة اليابانية .

٢ - يتم تشغيل جميع مصانع الحديد والصلب في الصين مستقبلا على أساس المشاركة مع اليابان .

٣ - على حكومة الصين أن تتخذ مستشاريها السياسيين والاقتصاديين والعسكريين من بين اليابانيين .

٤ - توضع قوات البوليس في المدن الصينية الكبرى تحت ادارة صينية يابانية مشتركة .

٥ - توضع جميع المناجم والسكك الحديدية ومصانع ومخازن الأسلحة التابعة لحكومة الصين تحت ادارة صينية - يابانية مشتركة .

وهكذا تسير قائمة المطالب الفادحة التي اشترطتها اليابان كي تقبل التعاون مع حكومة الصين . وعلى الرغم من فداحة المطالب فقد قبلها يوان اذ لم يجد لها بديلا . فلو انه دعا البرلمان الى الاجتماع وطلب منه الموافقة على اعتمادات مالية ، لوجد نفسه مضطرا الى التنازل عن بعض سلطاته الأوتوقراطية التي يشرف بها على الدولة وعلى اقتصاديات الصين ومن ناحية أخرى فاذا لم تسعفه اليابان بالمال ، بعد أن انقطعت عنه الموارد البريطانية والفرنسية والألمانية لتفككت امبراطوريته الناشئة ولقيت مصير امبراطورية المانشو ولما علم صون يات سن ورفاقه في الجنوب بأن يوان قد « باع بلاده » لليابان بذل الكومنتانج كل ما يستطيع من جهود ليزج بالبلاد في ثورة مسلحة مرة أخرى فتوجه شيانج كاي شيك الى الأقاليم ليعرض الحكام والقواد العسكريين على الانضمام الى صفوف الكومنتانج ، وقد نجح في اقناع تساي الوصي السابق على العرش بأن ينظم « جيش انقاذ الوطن » وأن يوجه الدعوة الى زملائه الذين يتولون قيادة الجيوش في المناطق الأخرى للعمل على عزل يوان . وقد نجح شيانج كاي شيك في هذه الخطة ، فان جميع القوات المسلحة في جنوبي الصين وجنوبيها الغربي استجابت للدعوة التي وجهها تساي ، مما اضطر يوان الى الخضوع للأمر الواقع فدعا الى اجتماع عام يشترك فيه جميع الزعماء الثوريين . وما انتهى عام ١٩١٥ حتى كان يوان قد فقد كرامته واشرافه على الحكومة . وفي يناير ١٩١٦ أبلغه سفير بريطانيا وفرنسا انه لم يعد موضع ثقة حكومتيهما وفي يونيو من العام نفسه مات من الحزن والكمد . لقد ظلت الصين طوال تسع السنوات التالية مفككة الأوصال لا تجمعها حكومة واحدة ، فاليابانيون يحتلون قطاعا من البلاد بحجة التحكم في الموارد الألمانية ، وكانت هناك حكومة في كانتون يرأسها صون يات سن ، وعدة حكومات أخرى مبعثرة في طول البلاد وعرضها . أما بيكين فقد كانت حكومتها تتغير كل ستة أشهر تبعا لارتفاع نجم أمراء الحرب أو أفوله .

وفي عام ١٩١٧ كانت هناك محاولة لاعادة الملكية ولكنها باءت بالفشل
أما الاضطرابات والثورات فقد عمت أرجاء الصين .

لقد استفادت الصناعة والتجارة الوطنية من هذه الفوضى . فقد
اختفت المنافسة الأوروبية حيث شغلتها الحرب المشتعلة على بعد آلاف
الأميال وبذلك شقت رموس الأموال الوطنية طريقها الى الصناعة والتجارة
وهكذا تجد أن عدد المغازل قفز من ٦٥٠ ألفا في عام ١٩١٣ الى مليون
ومائة وسبعين ألف مغزل في عام ١٩١٩ أى أن الزيادة في عدد المغازل
كانت بنسبة ٨٠٪ . كذلك ارتفعت الطاقة الانتاجية في مصانع النسيج
من ٤٥٠٠ منسج الى ٩٥٠٠ وبدأت في الصين صناعة طحن الدقيق ثم
نمت وازدهرت ، حتى ان الصين أخذت تصدر الدقيق في عام ١٩١٩ بعد
أن كانت من البلاد المستوردة له حتى عام ١٩١٥ . ولكن هذا التقدم
لم يكن مطردا ، وقد تركز حول شنغهاي وتينغسن وتسنجتاو ووهان ،
ومع ذلك فيمكن القول بوجه عام ان صناعة المنسوجات والطحن والكبريت
ومواد الصباغة قد ازدهرت .

لقد كان ازدهار الصناعة في نظر الماركسي الاصيل ذا دلالة كبيرة
ذلك ان عدد عمال المصانع ، وهم فرق الهجوم في الثورة الشيوعية ، قد
ازداد من نصف مليون عام ١٩١٣ الى ما يزيد على مليونين عام
١٩١٩ ، أضف الى ذلك أن ظروف الحياة على درجة خطيرة من السوء
والاضرابات منتشرة والمصانع تغلق أبوابها في وجه العمال من وقت لآخر
'لاذلالهم' . وهكذا كان الجو مهيئا لمولد حزب شيوعي صيني .

وحينما هبت عواصف الثورة الروسية عام ١٩١٧ كان ماوتسى
تونج وليوشاو - تشى لايزالان طالبين في المدرسة يستعدان لامتحان
مسابقة الخدمة المدنية . كانا كثيرى الهرب من المدرسة ، يصرفان أغلب
الوقت في متابعة تطورات الملكية القديمة والحديثة ويشتركان في مواكب
الاحتجاج . وقد نجح ماوتسى تونج في اقناع حاكم هونان بأن يربط
مصيره بمصير الثورة الثانية ، ولما أعدم الحاكم بعد فشل الثورة أصبح
ماو موضع كراهية أهالى الاقليم ، ولكنه لم ينثن عن عزمه ، بل ظل
يختلس أوقات الراحة وفترات الدراسة الخاصة فيذهب لانتقاء
'الاسبرطين' وتدريبهم .

كان ماو يجوب البلاد على قدميه ويعبر مجارى الماء الشديدة البرودة
هائما ويتسلق الجبال ، كل ذلك لانتقاء مجندين لفرقته من الاسبرطين .
وقد عادت عليه هذه الحياة العنيفة بالخير فأصبح صلب العود أهلا
للزعامة ويتحدث ماو نفسه عن هذه الفترة من حياته فيقول انه قطع أربعة
آلاف ميل سيرا على الأقدام في الصين الوسطى وليس معه من الزاد الا
كيس مملوء بالفول الأسود .

لقد كان لنجاح الثورة الروسية أثر عميق في نفس ماوتسى تونج .
خاصة وأن الثورات الكثيرة التى اشترك فيها كانت كل منها تنتهى
بكارثة . غير أنه لم يكن في درجة اقتناع رفيقه ليو شاو - تشى بأن
الشيوعية هى الدواء الناجح لجميع مشكلات الصين . لقد شهدا تجربة

الديموقراطية فى الصين وهى الأخرى شر أجنبى ، ولكن كل الصينيين أجمعوا على أن هذه الديموقراطية فشلت فى بلادهم فشلا ذريعا . كذلك نذكر ماوتسى تونج ، مما ترمى الى سمعه من أنباء روسيا ، ان الروس شعب غريب الأطوار ، وأن روسيا تحت حكم القياصرة قد اقتطعت أجزاء كبيرة من شمال غربى الصين . وقد حاول ليو أن يثبت لماوتسى تونج ان الأزدباد المطرد فى عدد العمال الصينيين معناه أنه سوف يكون فى البلاد عاجلا عدد كاف من هؤلاء العمال لتنظيم جيش من البروليتاريا . ولكن ماو ذكر صديقه بأن الصين بلاد الفلاحين ، وأن بها ٥٥٠ مليوناً من هؤلاء بجانب أقلية ضئيلة من العمال لا تتجاوز المليونين واستطرد ماو قائلاً ان هذه هى نقطة الضعف فى النظام الشيوعى الذى يعتمد على طبقة البروليتاريا (العمال) ، فأوروبا بلاد صناعية ، بها عدد كبير من عمال المصانع الذين يجدون فى الأحزاب الشيوعية الزعامة المنشودة أما فى الصين فان هذه الزعامة يجب أن يبحث عنها فى طبقة المثقفين وهم أقلية ، أو فى طبقة الفلاحين وهم أكثرية ، والأفضل أن تتكون الزعامة فى الصين .
منهما معا .

كان ليو يقرأ مؤلفات لينين ويتعلم اللغة الروسية ، أما ماو فقد كان يقرأ تشن تو - هسيوولو هسوف وهما أعظم الكتاب الصينيين فى زمنه ، وكلاهما عضو فى الكومنتانج .

كان تشن يشن هجوما على ذلك العهد الذى غرق فيه الصينيون الى آذانهم فى تدخين الأفيون ووقفوا موقفا سلبيا أمام ما وجه اليهم من اهانة وما أصابهم من أضرار ، ويهيب بمواطنيه أن يشوروا على مصدر الشر . وهذه دعوة محبة الى نفس ماوتسى تونج ، ولكن تشن كان من ناحية أخرى يميل الى الأخذ بالنظم الغربية ويدعو الى إعادة تنظيم الصين على أسس انجليزية . أما لو فقد كان صورة طبق الأصل من ستالين فى عهده الأول ، فهو وطنى سليم العقيدة ، والى جانب ذلك فلديه روح الدعاية التى يعجب بها ماوتسى تونج .

كتب لو قصة قصيرة عنوانها « يوميات مجنون » ، تفيض بالسخرية اللاذعة للحكم الامبراطورى فى الصين ، كما تبرز صورة ساخرة لشخصية رجل كرية من طراز والد ماو . وقد تأثر ماو بما كتبه الآخرون فبدأ هو الآخر يكتب ، وقد قنع بادی ذى بدء بقرض الشعر وخصوصا الشعر الغنائى الذى ينتهى بمغزى ذى دلالة سياسية . وكان يرسل قصائده الى مجلة « الشباب الحديث » التى أنشئت عام ١٩١٥ . وتعتبر طليعة الدعوة الى الأدب الصينى الجديد . كانت المجلة تدعو الى التخلي عن الأساليب القديمة ، وقد وضعت معايير خلقية جديدة . واستحدثت الحكومة - كيفما كان نوعها - على مضاعفة الاهتمام بالدراسات العلمية . ومع هذه النزعة التقدمية فان المجلة كانت من الحصافة بحيث لم تطالب بالغاء الكتابة الرمزية الصينية واحلال الأبجدية اللاتينية محلها . ذلك أن هذه الكتابة الرمزية هى السبيل الوحيد الذى تستطيع غالبية الصينيين عن طريقه أن تتلقى الآراء من مختلف بقاع الصين . ولا ننسى هنا أن الصين بلاد تضم خمس لغات متباينة وعددا لا يحصى من اللهجات ، وانك لتجد

الصينى ، حتى فى الوقت الحاضر ، يحتفظ بمرفقة . حتى اذا قابل صينييا آخر لأول مرة ، أخرج مرفقته ونقش عليها من الأفكار ما لا يستطيع النطق به فى عبارة مفهومة ، وهذا يوفر على المراسلين الأجانب عناء قصورهم فى التعبير باللغة الصينية .

لقد كان ماوتسى تونج خطاطا ماهرا ، ولذلك استطاع تصوير قصائده ، ثم مقالاته السياسية فيما بعد بوضوح وصدق . ولقد ساعدته ممارسة الكتابة لمجلة « الشباب الجديد » على بلوغ الدور الهام الذى كان ينتظره فى حياته القادمة ، ذلك هو التقدم لامتحان المسابقة للالتحاق بوظائف الحكومة .

جلس ماو لأداء هذا الامتحان فى يناير ١٩١٨ ، ويقول انه لم يكن مضطربا فى أثناء الامتحان اذ قضى الليلة السابقة له يتدارس مواد الامتحان مع صديقه ليوشاوتشى . ولقد جاء والده الى مدينة تشانج شا فى أول أيام الامتحان وأثار دهشة ابنه بأن حضر معه لفة كبيرة من الأطعمة كهدية لذلك الابن . ولم يمكث الوالد حتى ينهى الابن امتحانه ، بل اختفى فجأة كما ظهر فجأة قانعا بأن ابنه الأخرق قد أصبح فى عداد المتعلمين .

وكان يوم ١٠ من مايو يوم دهشة للجميع حينما علموا أن ماوتسى تونج كان فى مقدمة الناجحين . وانه الحق بوظيفة مساعد أمين مكتبة فى المكتبة المركزية فى بيكين .

ولهذه المناسبة أقام أحباء ماو وليو حفلا ، اذ لم يكن أحد منهم يتوقع أن يصيب ماو كل هذا التوفيق . ولندكر هنا أن اشتراك ماو فى النشاط الثورى كان يضطره كثيرا للتخلف عن المدرسة حتى ان مدير المدرسة كان يخشى من أن يعجز ماو عن تعويض ما فاتة . كذلك كان بعض أصدقائه يخشون أن يكون ما عرف عنه من إثارة الاضطراب والشغب ، سببا فى استبعاد اسمه من قائمة المرشحين للوظائف . وهنا يعلق ماو على الموقف فيقول : « كانت امتحانات المسابقة تسير على أساليب عتيقة سواء فى مادتها أو فى طريقتها ، ولكن كان رائدها العدل المطلق . ولم يكن من السهل على أية حكومة أن تحاول شراء ذمم المتحنيين ، وذلك على الرغم من أن الاضطراب الذى تفشى فى أعقاب إعلان الجمهورية الأولى أشاع الفوضى فى جهاز الخدمة المدنية بدرجة لم تستطع أن تتخلص منها فيما بعد » .

وفى يونيو رحل ماو الى بيكين ، أما صديقه ليو شاو - تشى فلم يجد ما يفره بالبقاء فى مدينة تشانج شا بعد أن غادرها (صفيه) فولى وجهه شطر شنغهاى للبحث عن عمل ومواصلة دراسة « البروليتاريا » الصينية ليرى ان كانت تصلح أساسا لإنشاء نظام شيوعى .

لقد افترق الصديقان فى محطة سكة حديد تشانج شا ، ولم يتقابلا الا بعد عشر سنوات ، ولم يعيشا معا الا بعد خمس عشرة سنة . ذلك أن الصين لم تكن بعد على استعداد لقبولهما ولا لقبول ما تحمله راساهما من أفكار .

لقد أحب ماو مدينة بيكين وقيد اسمه كطالب فى الجامعة بمجرد وصوله ثم وفق الى غرفة صغيرة للسكن فى مواجهة مسكن البروفسور

بانج أستاذ علم الأخلاق . لم يكن عمله بالمكتبة شاقا ، أما المحاضرات التي كان مطالبا بحضورها فلم تكن كثيرة وكان من المتوقع أن يعد نفسه للترقية بأن يقرأ قراءة واعية أكبر عدد مما تحت يده من الكتب . ولم يكن لديه من شكوى غير ضالة راتبه لدرجة أنه لم يستطع شراء الطعام إلا مرة واحدة في اليوم . ولكن أحد زملائه بالمكتبة أسر إليه قائلا : « ان المدير قد أبلغني عند قدومي الى المكتبة أن لي الحق في التهام ما في الكتب من علم وفي هذا غنى عن أكل البطيخ » .

وسرعان ما اكتسب ماو محبة زملائه ، فقد كان ذكيا في غير غرور ولا ادعاء ولم يكتف عن هؤلاء الزملاء أنه بالرغم مما لدى أسرته من ثراء نسبي ، فهو في قرارة نفسه فلاح ، وأنه أول جيل متعلم بين آل ماو . كان يمزج مع هؤلاء الزملاء مثلما يمزج مع أصدقائه ، وفي أثناء المحادثة يستعمل من فاحش القول وبذيئه ما كان يستعمله والده . ولطالما أثار الجدل مع هؤلاء الزملاء حول الثورة والأجانب ، وكانت غالبية زملائه في المكتبة من أنصار الكومنتانج ، الذي تتلخص سياسته في توحيد الصين وإعادة ما كان لبيكين من مجد زائل . ولكن الحزب حاول في ١٩١٩ أن يسعى الى تحقيق أهدافه بالتعاون مع « أولئك الأجانب الأشرار » أو على الأقل مع من كان على علاقة ودية مع الجمهورية من أولئك الأشرار .

ولما كان ماو يكره الأجانب ، شأنه في ذلك شأن كل أهالي هونان ، فإن فكرة التعاون معهم كانت في نظره شرا مستطيرا ، ولكن زملاءه في المكتبة كانوا على النقيض من ذلك يرون التعاون مع الأجانب أمرا ضروريا للغاية ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل انهم كانوا يحبون هؤلاء الأجانب .

في مدينة بيكين ، حيث توجد جميع الهيئات الدبلوماسية الغربية كانت روح التجديد بين الصينيين ، وخاصة بين الأقلية المثقفة منهم ، تقضى بأن يظهر كل منهم ولاءه لبلد غربي ، فهذا من الموالين لأمريكا وذاك من الموالين لفرنسا وهكذا ، ولكن ماوتسي تونج نزع ثقته من كل من هو غير صيني ، وخاصة الجنس الأبيض من أي عنصر كان .

لم يكن ماو ليظهر في الجامعة الا نادرا في خلال العام الاول ، وعلى كل فقد كان طالبا منتسبا ولا حق له في الاندماج في الوسط الجامعي . ولا في حضور حفلات الشاي والتعارف التي لا تنتهي . وقد استعاض عن ذلك بتمضية وقت فراغه مع زملائه في المكتبة أو في القراءة . ولقد قرأ في المكتبة مؤلفات الاقتصاديين الانجليز من أمثال آدم سميث وستيوارت مل وجيفونز . لقد كانوا أجانب ولكنهم كانوا يعالجون موضوعات عامة ، بخلاف كارل ماركس .

ولقد تأثر ماو بمسا قراءه لهؤلاء الكتاب ، ولكن تأثره الحقيقي كان يتمثل في شعوره بالحاجة لعمل شيء ينفع بلاده . فهذا في نظره أفضل من استيعاب نظريات اقتصادية للآخرين . ولقد دلت بصيرته على أنه اذا أريد بالصين أن تنجو من الاحتلال الياباني فليس هناك مجال لاضاعة الوقت سدى خاصة وان هذا الاحتلال الياباني سوف يمتد أجله ويشتد ضرره أكثر من فترة الاستغلال الأوربي للبلاد وهنا يبدأ الخلاف بينه وبين

الشيوعيين في بيكين فهم يزعمون ان الوقت لم يحن بعد لاتخاذ عمل ايجابي ، وأنه من الخير الانتظار حتى يتسع نطاق الصناعة ويصبح لديهم هيئة كبرى من العمال وهم « المادة الخام للثورة الشيوعية » . أما ماونسي تونج فقد كان يؤمن بأن مدينة بيكين بها ما يكفي من «المادة الخام» للثورة الوطنية . وفعلا بدأ العمل بما لديه من امكانيات .

في ربيع ١٩١٩ اجتمع الحلفاء في قصر فرساي لوضع مسودة المعاهدة التي بها تنتهى الحرب العالمية الاولى . وكان في فرساي وفد صيني لأن الصين كانت قد أعلنت الحرب على ألمانيا عام ١٩١٥ ، كي يستطيع يوان أن يسلم الممتلكات والامتيازات الألمانية في الصين الى اليابان بطريقة قانونية على اعتبار أنها من ممتلكات الاعداء . ولكن الوفد الصينى لم يجد بين الوفود من يهتم بشأنه .

عقدت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة اتفاقية مع اليابان يتم بموجبها وضع جميع ممتلكات وأموال ألمانيا المصادرة تحت اشراف « لجنة الحماية الدائمة » في طوكيو . وهذا معناه تسليم اراض صينية الى دولة ليس بينها وبين الصين علاقات ودية . ولما بلغت بيكين انباء احياء المطالب اليابانية الاحدى والعشرين ، وان الوفد الصينى في فرساي على وشك توقيع معاهدة دولية بالتسليم بهذه المطالب أصبحت البلاد تغل كالمرجل .

وقر في نفس ماو الشاب أن الوقت قد حان لأن يفعل من أجل بكين ما كان يريد أن يفعله من أجل تشانج شيا أى أن يجعلها مركزا لاجتماع الصين ضد كل من يحاول استغلال الصينيين ، خاصة اذا كان غير صينى .

لم يكن بجانبه ليو شاو - تشى ليسدى اليه النصيح ، ولكن التجارب علمته ، وما فشل في تنفيذه أمام قصر الحاكم في هونان ، يستطيع تنفيذه اليوم في بيكين أمام القصر الامبراطورى .

جمع ماو حوله نواة لهيئة نظامية من الشباب ، وقسم المدينة الى مناطق ، وكلف كلا من زملائه الاشراف على منطقة منها ، ثم وضع خطة دقيقة لمن يقومون بالهتافات بادئين بالمناطق ومتجهين الى قلب المدينة ، وكلف كل قائد منطقة أن يعقد اجتماعا في مساء ٣ مايو وأن يعين هتافيه ، وفي منتصف ٤ مايو يبدأ الزحف على أن يتجه الجميع الى ميدان تين آن من

وفي يوم ٣ من مايو ، كان من حسن حظ ماو أن تواترت الشائعات في مدينة بيكين بأن معاهدة فرساي قد تم التوقيع عليها صباح ذلك اليوم وأن اليابان ، بموجب نصوص المعاهدة ، قد اقتطعت لنفسها جانبا من أرض الصين وما لبث أربعون ألفا من شباب ماو الزاحفين أن تقدموا هاتفين « حافظوا على سيادة بلادنا » « أنزلوا العقاب بالخونة » « لا نوقع معاهدة فرساي » « الغوا الاحدى وعشرين مطلباً » .

وقاد ماو بنفسه فريقا من المتظاهرين الى دار تساو جولين الذى كان نائبا لوزير الخارجية في عهد يوان ووقع بقبول المطالب اليابانية ، فضربوه ضربا موجعا وأشعلوا النار في داره .

أما في الميدان الرئيسي فكان المتظاهرون يهتفون طبقا للخطة المرسومة وكان كل شيء يسير طبقا للتعليمات .

هنا ارتفعت الحكومة في بيكين فعجلت بإرسال قوات إلى قلب المدينة ، وقد استطاعت هذه القوات تشتيت المتظاهرين بعد أن ارتكبت كثيرا من أعمال القسوة والعنف . وقبل أن ينفذ المتظاهرون كانوا قد أشعلوا النار في دور عدد كبير ، من كبار رجال الحكومة وأصيب كثير ممن بداخل هذه الدور . تحصن بعض كبار أصحاب المناصب في دار البرلمان وأرسلوا برقيات إلى الوفد الصيني في فرساي يحذرونه من توقيع المعاهدة والا فإنهم سوف يذبحون جميعا ، وهكذا امتنعت الصين عن توقيع المعاهدة وفي اليوم التالي ، وهو يوم ٥ من مايو قامت جماعة ماوتسى تونج بتوزيع نشرات دعت فيها طلبة المدارس الثانوية والجامعة إلى إضراب عام ، وقد نجح الإضراب نجاحا تاما ، فقد خلت حجرات الدراسة من التلاميذ وأبهاء المحاضرات من طلبة الجامعة . وسرعان ما انتشرت أنباء المظاهرة والإضراب في جميع أنحاء الصين . واتصل ماو بصديقه ليو وأعلمه بما قام به ، وطلب إليه أن يقوم عاجلا بتنظيم مظاهرة مشابهة في شنغهاي .

كذلك قام زعماء الطلبة - في تينتنس وتانتينج وووهان وكانتو - بمظاهرات مماثلة . وفي ٥ من يونيو نظم ليو إضرابا عاما بين عمال النسيج في شنغهاي البالغ عددهم عشرين ألفا ، وظل الإضراب قائما حتى قامت فئات العمال الأخرى بالإضراب وبذلك شلت حركة المدينة .

ولم تتمكن الحكومة من إنهاء موجة الإضراب والمظاهرات إلا بعد أن استخدمت كل ما تستطيع من قواتها المسلحة ، ولكن البلاد ظلت طوال السنوات الست التالية في ثورة وغليان . وبين عشية وضحاها أصبح اسم ماوتسى تونج على كل لسان . وألقى نفسه موضع رعاية النخبة المثقفة في مدينة بيكين وقدم إلى كل شخصية هامة وخاصة أساتذة الجامعة وزوجاتهم . وكان أحب شيء لديه أنه أصبح موضع ترحيب في المنزل المواجه لسكنه في الجانب المقابل من الشارع . كان في هذا المنزل كما ذكرنا من قبل البرفسور يانج . وهو وإن لم يكن متحدثا لبقا ، كما كانت حفلات الشاي التي يعدها محوطة بالشكليات التي تبعث على الضيق ، إلا أن ماوتسى تونج وجد عن ذلك عزاء جميلا ذلك أن الاستاذ يانج كانت له ابنة جميلة تدعى كاي هوى . ولقد أحبها ماو وهي الأخرى بادلته حبا بحب ، مع نحافته وشعره الذي لم تعمل فيه يد الحلاق قط . أخذ ماو والفتاة كاي يتبادلان أحاديث الهوى عبر مائدة الشاي ثم انتقلا بغرامهما إلى المكتبة وأكملوا اللقاء في المتنزه العام .

وأخذ ماو يكتب لها رسائل الغزل المسهبة ، ويرسل لها قصاصات أودعها فيض قلبه . وما كان لفتاة أن تمتنع على شاب جمع بين الشهرة والعاطفة المشبوبة والمستقبل الأدبي الحالد . وأخيرا في ربيع ١٩٢٠ تم الزواج بين المحبين .

كان ماوتسى تونج وكاي سيدين على الرغم من فقرهما ، وقد انتقل ماو بكتبه إلى دار حميه البروفسور يانج .

لقد أدى نجاح ماو باعتباراه الرأس المدبر لمظاهرة ٤ مايو الى تغيير هام في حياته . فقد كان بين اصدقاء الأستاذ يانج الحميمين واحد المترددين على داره أستاذ جامعي آخر اسمه تشن تو هسيو وهو أستاذ الاقتصاد وأحد المحاضرين اللامعين . وقد خلب تشن لب ماو بعرضه ارائع لنظريات الاقتصاديين الاقدمين وترجمة تلك النظريات التي عفا عليها الزمن الى برنامج انشائي لانقاذ الصين . كذلك استرعى ذلك اسباب الذي تزعم المظاهرات وهو لم يتجاوز ستة وعشرين ربيعا ، انتباه الأستاذ تشن ، وقدر تشن ان هذا الشاب سوف يفعل للصين ما فعله لينين لروسيا .

مارتسى تونج يعتنق الشيوعية .

ولما كان الاستاذ تشن شيوعيا ، فان ماو بأحاديثه معه وجد نفسه يتعمق شيئا فشيئا فى دراسة النظريات الماركسية والأساليب الشيوعية ولما اعترض ماو بأن ماركس كان يستنتج نظرياته من حوادث جرت فى بلاد أوربيه تسيطر عليها الرأسمالية ، رد عليه تشن بأن ماركس كان أوربيا ، واستخدم الحقائق التى فى متناول يده ، واذا كان ماو يرى أن بعض نظريات ماركس لا تصلح للصين فليس علاج ذلك نبذ نظريات ماركس كلية ، بل استخدام طريقة ماركس فى الوصول الى استنتاجات تنطبق على المجتمع الصينى . كذلك اعترض ماو بأن الشيوعيين يتحدثون كثيرا عن روسيا والثورة الروسية ورد عليه تشن بأن روسيا هى البلد الوحيد الذى وضعت فيه نظريات ماركس الثورية موضع التنفيذ . وكلما عجل الشيوعيون الصينيون بتطبيق هذه النظريات أمكنهم الحديث عن الثورة الصينية . وأخيرا قال تشن : تذكر ياماو أن ماركس كان ألمانيا عاش أغلب حياته فى المنفى ، وأنه كان يهوديا واذا فهو رجل لاوطن له . ولسوف نهىء له وطننا بأن نجعله صينيا .

ولقد أحس ماو بأنه يضعف أمام حجج الاستاذ تشن ثم حدث أن اتخذت روسيا ، عن غير قصد ، خطوة أقنعت ماو نهائيا بأنها قد تخلت عن نزعاتها القديمة . ذلك أن جيوش القيصر كانت قد أخذت تتسلل الى منشوريا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى أثناء القرن التاسع عشر اطرد تدفق العسكرين والمدنيين الروس على الاقليم ، فالمدنيون على اعتبار أنهم فتيون جاءوا لانشاء سكة حديد سيبيريا ، والعسكريون على أنهم جاءوا لحراسة الخط . وقد أقام هؤلاء الروس قواعد فى المناطق الشمالية من الصين . ولم يصدر من أباطرة المانشو أى اعتراض جدى على هذا العدوان الروسى ولو أنهم يرجعون فى أصولهم الى منشوريا . وبرر أباطرة المانشو موقفهم بأن قواتهم العسكرية لا قبل لها بمواجهة الروس وأن الروس على أى حال كانوا بنائين لا هدامين وأنه من المحتمل ان يجرى يوم يصبح فيه مابنوه ملكا للصين .

وما كان يدور بخلد أحد قبل عام ١٩١٧ أن شمال منشوريا سوف يعود الى الصين مرة أخرى . ولكن فى عام ١٩٢٠ أصبح الخيال حقيقة وذلك بدون أى مطلب تقدمت به حكومة بيكين ، فقد تقدمت الحكومة السوفيتية بعرض الى حكومة الصين يقضى بنزولها عن كل حقوقها فى اراضى الصين كحق الاتجار تحت حماية القانون الروسى وحق الاعفاء من الضرائب الصينية وحق انشاء مستعمرات روسيه . وزاد فى أهمية هذا العرض الروسى اقترانه باقتراح اضافى بطلب فتح باب المفاوضات بين روسيا السوفيتية والصين لعقد اتفاقية تقوم روسيا بموجبها بدفع مبالغ

في مقابل امتيازاتها الخاصة في منشوريا الشمالية . ولم تطالب روسيا
بأى ثمن لهذا العرض السخى الا اكتساب صداقة الشعب الصينى .

وفى يونيو عام ١٩٢٠ وصل الى بيكين أدولف جوفاً المبعوث الروسى
المكلف من قبل بلاده بتقديم العرض بطريقة رسمية . ولقد أثار قدوم
جوفاً اهتماماً كبيراً فى بيكين ، فهو أول ممثل رسمى لدولة أجنبية قدم
الى بيكين ليعطى لا لياخذ . والصينيون المعادون للشيوعية أدركوا أن أى
اجراء يؤدى الى جلب المنفعة لبلادهم من الخارج على أن يتسم بروح الاخاء
ويحقق الفائدة جدير بالتقدير . ولما كان الاستاذ تشن زعيم الشيوعيين
فى بيكين فقد نيط به اصطحاب المبعوث الروسى واکرام وفادته .

وقد حرص تشن على تقديم جوفاً لكل من يشملهم برعايته ومن بين
هؤلاء ماوتسى تونج . وقد أجرى ماو أحاديث طويلة مع الزائر القادم من
« ذلك العالم الجديد » عالم الوحدة الاشتراكية ، وقد كان تأثر ماو بالزائر
أعمق من تأثره بالاستاذ تشن الذى كان يحاول اقناعه فى رفق . ويقول
ماو ان أحاديث جوفاً كانت من نوع جديد مخالف لما درج عليه ممثلو
بريطانيا وأمريكا ، فهى مزيج من الأسف على استغلال الصين فى الماضى
والأمل فى مستقبل يسوده التعاون .

وقد أدرك صون يات سن فى كانتون ما سوف يكون لزيارة جوفاً
من أثر على المترددين . ولم يكن صون معادياً للاشتراكية من حيث المبدأ
ولكنه كان يؤمن بأنه يجب سلوك طريق سلمى ايجابى لحل مشكلات
الصين . واذا كانت النظم البرلمانية البريطانية والفرنسية والأمريكية قد
فشلت تجربتها فى الصين، فعلى هذه الدول الثلاث أن تبحث عن وسيلة أخرى
لمساعدة هذه البلاد ، وأقل ما ينتظر منها هو منافسة الاتحاد السوفيتى
فى تقديم عروض جديدة لاصلاح أخطاء الماضى والتفكير عن استغلالها
للصين فى خلال القرن التاسع عشر . وعلى هذه الدول أن تعترف بحكومة
فى كانتون على اعتبار أنها الحكومة الشرعية فى الصين وتسحب اعتراضها
من سلسلة امراء الحرب الذين كانوا يعملون باسم حكومة بيكين . والأمل
الآخر لدى صون يات سن هو أن الجمهورية يمكن انقاذها بمساعدة
بريطانيا .

أما شيانج كاي شيك الذى لم يكن من محبى بريطانيا ، فقد اتجه
الى أمريكا . وفى يوليو ١٩٢٠ عرض صون على بريطانيا رسمياً أن تؤيد
برنامج لاصلاح الصين وتبادل السفراء مع حكومته فى كانتون . وقام
شيانج كاي شيك من جانبه بتقديم مثل هذا العرض الى حكومة واشنطن ،
ولكن الاقتراحين لقياً من الجانبين أذناً صماء . ولم تكتف بريطانيا برفض
الاعتراف بحكومة صون يات سن بل عنفته على مطالبتها بالتنازل عن
بعض حقوقها غير المعقولة . فى ذلك الوقت كان ماوتسى تونج متردداً فى
موقفه يقلب فكره بين حجج الاستاذ تشن والممثل الأعلى للتعاون الذى
قدمه جوفاً . فلما سمع بأن الكومنتانج لم يلق الا الامتهان من الدول
الغربية الكبرى والصد من أمريكا ، لم يبق لديه ما يدعو للتردد والانتظار .
لقد تبدد فى نفسه كل أمل فى « التقدم دون تقليد لبريطانيا وأمريكا ،
وعرف أين يجد أصدقاء الصين .

لقد كانت بريطانيا وفرنسا وأمريكا تتحدث كثيرا عن الثورة والديموقراطية وتعبد ثقافة أسلافها من الاغريق والرومان ولكنها لم تكن على استعداد للأخذ بيد الصين في كفاحها من أجل الحرية والاشياء والمساواة . بل هي مصممة على التمتع بامتيازاتها في المدن الصينية معفاة من الضرائب ومن التدخل في شئونها ومن تطبيق القوانين المحلبة على رعاياها . وهناك في الجانب الآخر الروس الذين لم يقفوا عند التحدث عن الثورة والاشياء بل مارسوها ، واذن فصديقه ليوشا - تشي كان على حق .

وفي سبتمبر ١٩٢٠ ذهب ماوتسى تونج ليودع جوفو في طريق عودته الى موسكو . ووقف على رصيف المحطة هو والاستاذ تشن ونفر من ممثلى الحكومة الصينية والزعماء الشيوعيين في الصين ، فأخذ جوفو يعيد على مسامعهم تصميم الحكومة السوفيتية على مساعدة الصين في محنتها . وألح الى أنه كلما بادر الصينيون بالتخلص من الحكومات الضعيفة المستهتررة المترددة فى بيكين واقامة حكومة موحدة قديرة كان ذلك فى مصلحتهم . وتدارك جوفو الموقف عاجلا فقال « وعلى كل فهذا شأن الصين وحدها » . فالاتحاد السوفيتى يود أن يجرى مفاوضات على أساس المساواة لا أن يملأ ارادته على المفاوض الآخر .

ومن الروايات التى تناقلها الحزب الشيوعى الصينى أنه بعد سفر جوفو وجه ماوتسى تونج الحديث الى الاستاذ تشن قائلا « هذا رجل معقول ولم لا يكون لدينا حزب شيوعى فى الصين ؟ »

ورد تشن : نحن فى أشد الحاجة الى مثل هذا الحزب ويجب أن ننشئه . وقال ماو « اذا أنشئ حزب شيوعى صينى فسوف أنضم اليه .

وهنا أخفى الاستاذ تشن ابتهاجه وأجاب فى رزانة : أنت وأنا سوف نتعاون معا فى انشاء هذا الحزب .

وهكذا نشأ الحزب الشيوعى الصينى .

الفصل الرابع

من الأشياء التي تحوطها السرية في تاريخ الصين معرفة المؤسس الحقيقي للحزب الشيوعي الصيني . فيقول تونج بي - وى أنه هو الذي أسس الحزب في إقليم هوبيه بتاريخ سبتمبر ١٩٢٠ ، أما لي نا - تشاو الذي كتب أول تفسير صيني للماركسية بعنوان (الماركسية كما أفهمها) فيقول أنه أسس أول جماعة شيوعية في تينتنسن حوالى منتصف عمام ١٩١٩ . ويقول ليو شاو - تشى أنه هو مؤسس الحزب بعد زيارة الاستاذ تشن له في أغسطس ١٩٢٠ ، ولكنه لم يكرر دعواه هذه منذ انشاء الجمهورية الشعبية في الصين . ومهما يكن واضح أول قانون أساسى لأول فرع للحزب الشيوعي الصيني ، فإن أول تنظيم جدى لهذا الحزب هو الذي أقامه ماوتسى تونج والاستاذ تشن فى بيكين ، وهذه المنظمة اتخذت لنفسها اسم الحزب الشيوعي الصيني ، وأصبحت بعد تسعة وعشرين عاما نواة للدولة الشيوعية الجديدة فى الصين . وقد صحب انشاء الحزب دعاية واسعة .

ولما تلقى صون يات سن وشيانج كاي شيك أنباء تأسيس الحزب الشيوعي الصينى أصابهما الفزع ، وأخذ صون يبحث عن وسيلة يثبت بها أن الشيوعية لا تلائم الصين ، أما شيانج كاي شيك فقد أخذ يعمل بنشاط ليجعل من الكومنتانج منافسا قويا للحزب الشيوعي ، وترك النظريات والمسائل المذهبية للدكتور صون . وقد عمد كاي شيك الى حل حزبه القائم بعد أن أشبع أعضائه تعنيفا وزجرا . ثم أعاد تنظيمه على نسق الحزب الشيوعي السوفيتى ، مع ما يقترون به التنظيم الجديد من جهاز الخلايا فى المدن واللجان الاقليمية ورؤساء الادارات السياسية (القوميسار) ، لا بل ان الكومنتانج الجديد اتخذ له مكتبا سياسيا كالأحزاب الشيوعية ، ولما تبين لشيانج كاي شيك ان التنظيم الجديد أصبح ذا فاعلية ، شرع يقوى قبضته على جنوبى الصين ويبعث بقوميساريه نحو الشمال .

النزاع بين الكومنتانج والشيوعيين

ولما سمع ليو شاو - تشى أن كاي شيك أعاد تنظيم الكومنتانج أدرك ان السبب الحقيقى فى عجز ثورة ١٩١١ عن اقامة حكومة قوية هو الحاجة الشاملة للتنظيم فى جميع صوره السياسية والصناعية والتجارية ، لقد دب الفناء فى جهاز الخدمة المدنية الامبراطورية منذ وفاة يوان ، ولم يحل محله جهاز آخر ، أما فى الأقاليم فان العصابات المسلحة من الجند أخذت تطوف بالبلاد فتستولى على ما يقع تحت أيديها

من طعام وشراب وتثير الرعب فى قلوب الفلاحين . وملاك الاراضى
القدامى فروا الى المدن وتركوا الفلاحين دون أية زعامة سواء أكانت حسنة
أم سيئة ، وبالإيجاز فقد كانت الفوضى شاملة .

وكان لابد من انشاء جهاز جديد للحكم ، ولكن لم يوجد بين
الصينيين من يدرك الطريق الى ذلك . تلفت ليو شاو - تشى حوله ووجد
أن هناك بلدا واحدا فى العالم بجانب الصين ، كان عليه أن يخلق دولة
من العدم وقد استطاع هذا البلد أن يحقق فى ثلاث سنوات ابتداء من
١٩١٧ ماعجزت الصين عن تحقيقه فى تسع سنوات ابتداء من ١٩١١ .
لذلك قرر ليو السفر الى روسيا السوفيتية ليرى كيف شرع الروس فى
بناء دولتهم من جديد وإعادة النظام الى نصابه ، ولم يجد مشقة فى إيجاد
وسيلة للسفر ، ذلك أنه كان هناك عملاء للسوفيت فى كل ركن وزاوية
فى مدينة شنغهاى . أخذ ليو يبدى رغبته علنا فى أنه يريد السفر الى
الاتحاد السوفيتى (للدراسة) وبعد عدة مقابلات سرية قدمت له
الحكومة الروسية منحة دراسية للالتحاق بجامعة الشرق الأقصى فى
موسكو وأنه يستطيع السفر فوراً .

سافر ليو الى روسيا دون رؤية صديقه ماوتسى تونج لأنه كان على
يقين من أن ماو لن يوافق على سفره على الرغم من أنه أصبح شيوعيا ،
ذلك أن ماو لم ير فى الروس الا جانب عن الصين مع ماهم عليه من الطيبة
وأنهم الدعاة الأول للشيوعية ، ولهذا المناسبة فان ماوتسى تونج هو
الزعيم الشيوعى الوحيد الذى لم يتلق تعليمه فى موسكو ، وهو لذلك
يعتقد أنه كشيوعى صينى خير من أقرانه من أمثال ليو ، الذين حجوا
الى موسكو .

كان أمام ماو عمل كثير فى بيكين . ولما لم يستطع مواصلة العمل
فى المكتبة لكثرة العراقيل التى وضعتها الحكومة فى طريقه ، غادرها
وبدأ نشاطه علنا بالالتحاق بأحدى المنظمات السياسية التى كانت متهمة
بالقيام بنشاط هدام على الرغم من أنها لم تكن ممنوعة قانونا من مزاوله
النشاط . كان ماو يقوم بخدمات كثيرة لحزبه وهذا زوده بمورد طيب
من المال من مصادر كثيرة ، وكانت أهم مشاغله مع أترابه من الشباب الذين
يحسن التفاهم معهم كما يحسن زعامتهم وتوجيههم .

ولقد أسس أول جبهة من الشباب الصينى أطلق عليها اسم «الرابطة
الوطنية للشباب الصينى» ، وجند فى رابطته ألوفاً من الشبان الذين
لا يدينون بالشيوعية ، وكان يقصد به تنسيق النشاط الاشتراكى بين
من لا يتجاوزون الثلاثين من الشبان الصينيين حيثما وجدهم ، حتى ولو
كانوا خارج البلاد ، ولذلك أخذ يتراسل على نطاق واسع مع الطلبة
الصينيين فى بريطانيا وفرنسا وأمريكا ويستحثهم على التعجيل بالعودة
الى بلادهم بمجرد الانتهاء من الدراسة كما يطلب اليهم أن يعملوا فى
الوقت نفسه على تكوين روابط من الشباب الصينى فى البلاد التى
يتلقون العلم بها ، ويحاولون الاتصال بالعناصر اليسارية وجذبها الى
صفوفهم . وكان ممثله فى باريس شوان - لاي الطالب فى السوربون
وكان همه الأكبر سواء فى داخل الصين، أو فى خارجها ، أن ينشئ وحدة

منظمة من الشباب الصينى لديها الوقت والنشاط اللازمان لاعادة بنساء الصين كدولة اشتراكية .

لقد كان يبدو من يوم الى يوم ان الصين فى حاجة الى تجديد شامل ، فالصناعة الصينية عادت الى التدهور بعد فترة قصيرة من الازدهار فى اثناء الحرب العظمى ، وصناعة المنسوجات تكاد تكون كلها فى ايدي اليابانيين حتى لقد ارتفع عدد المنازل اليابانية فى الصين من ٢٩٠ ألفا فى عام ١٩١٨ الى ٨٦٠ ألفا فى عام ١٩٢١ . وقامت المصارف الامريكية بتمويل جميع انواع النشاط التجارى كما تولت الاشراف على خطوط الاسلاك التلغرافية البحرية وحصلت من ذلك على ارباح طائلة . ولما كان هدف بريطانيا وامريكا فى ذلك الوقت هو ايجاد حكومة صينية تستطيع اقرار السلام فى البلاد لفترة معقولة ، فقد ايدنا فينج كو - تشانج الذى كان اميرا للحرب فى اقليم جيهول فى ذلك الحين ، وقامت بتمويل حملة اعداها فنج عام ١٩٢٠ على أمل ايجاد حكومة قوية فى الصين ، ولم يرق فى عين اليابانيين وجسود دكتاتورية عسكرية صينية تشعربأنها مدينة لمنافسى اليابان فى التجارة ، ولذلك قررت هى الأخرى تمويل حملة يقودها أحد أمراء الحرب الآخرين وهو توان تشى - جوى المسيطر على اقليم آنهوى . وهكذا انتقلت محاولة الاستقرار الى حرب أهلية بين شمالى الصين ووسطها ، وهذه الحرب دمرت جانبا كبيرا من البلاد التى كانت الأطراف المتعارضة تسعى لبعث الاستقرار فيها . هكذا خرت الصين على وجهها منهوكة القوى بين حرب أهلية فى اقاليمها الوسطى والشمالية ، وفئة من رجال الأعمال الجشعين الذين اعتصروا قطرات الدم الباقية فى الاقاليم الجنوبية أملا فى تعويض مافقده خلال الحرب العظمى .

استطاع فنج كو تشانج فى ربيع ١٩٢١ أن يقضى على جيش آنهوى وان يضعف تشانج تو - لينى أحد أذئاب اليابان ، الذى نصب نفسه ملكا على شمال شرقى الصين ، وبذلك ظل فنج طوال الثمانية عشر شهرا التالية حاكما فى بيكين بلا منازع ، حتى لقد علق السفير البريطانى على موقفه قائلا انه يكاد يكون حكومة صينية . ومما جعل فنج محببا لدى هذا السفير انه كان بطبيعته معارضا للشيوعية ، وما ان وضع قدمه فى القصر الامبراطورى حتى بدأ يحل الحزب الشيوعى الحديث العهد فى بيكين ، وأصدر أوامره باختطاف كل الزعماء الشيوعيين الذين يبشرون بمستقبل زاهر . وكان من حظ ماوتسى - تونج أن تسربت الأنباء الى الاستاذ تشن فابلغ ماو الخبر ، ولم يسع ماوتسى تونج الا أن يحزم بعض متاعه وكتبه ويصطحب زوجته ويغادر بيكين خفية كما دخلها خفية منذ ثلاث سنوات .

ولقد اقترح عليه الاستاذ تشن أن يعود الى اقليم هونان ويصبح المنظم الأول للحزب الشيوعى هناك . ولم يرحب ماو بفكرة الانتقال الى هونان لأنه اعتبر أن الانتقال من العاصمة الى الاقاليم خطوة الى الوراء بالاضافة الى ما فيها من حظ بكرامته . ولما كان صديقه ليو شاو - تشى فى روسيا فلم يكن فى استطاعته التوجه الى شنغهاى ، وأخيرا اقنعت زوجته بالسفر الى هونان .

وصل ماو وزوجته الى مدينة تشانج شا عاصمة اقليم هونان في مايو ١٩٢١ ، وهناك عاد ماو الى الاختلاط برفاق صباه واستطاع تكوين فرع للحزب الشيوعي في المدينة .

وقد أبلغه حاكم الاقليم أنه لن يستطيع عقد اجتماعات أو اعداد مظاهرات استقرازية تحت حماية البوليس ، ولكن اذا تمت اجتماعاته في هدوء تام فلن يطلق البوليس النار على المجتمعين .

وفي ١٥ من يونيو ١٩٢١ ظهر في شوارع تشانج شا أول عدد من صحيفة هسيانج تشيانج التي أنشأها ماوتسى - تونج ، وكان يقف بنفسه في الشارع تساعد زوجته وأصدقائه لتوزيع أعداد الصحيفة . ولما كان ماو محبوبا من أهالي المدينة وأن زوجته أجمل موزعة للصحف ظهرت بين أهالي تشانج شا فقد لقيت الصحيفة راجا .

لو أن فتاة جميلة مثل كاي - هوى (زوجة ماو) ظهرت هكذا في شوارع المدينة قبل ذلك بعقد أو عقدين لاعتبرت من بنات الهوى اللاتي يعرضن أنفسهن للراغبين ، ولكن ثورة ١٩١١ قد بعثت في نفوس الصينيين قيما جديدة فبطل بيع الفتيات الى بيوت الدعارة كما بطل نظام التسرى وأصبح من حق الفتاة أن تذهب الى المدرسة وأن تمارس التجارة ، بل أن تتولى الوظائف العامة .

لم يكن ماوتسى تونج الوحيد بين الشباب المتعلم ، الذي أنشأ له جريدة ، فان كل شاب متعلم صيني ، طموح الى مستقبل زاهر أنشأ له جريدة أيضا . فمثلا شواين - لاي أنشأ له جريدة بعد عودته من باريس عام ١٩٢٢ وأصدقاء ماو في بيكين أنشأوا صحيفة « الصين الفتاة » وأنشأ أصدقاء ليو شاو - تشى صحيفة في شنغهاي .

ويبدو من رواج هذه الصحف أن الثورة الشيوعية كانت على الابواب وفي يوليو ١٩٢١ عقد الحزب الشيوعي الصيني أول مؤتمر له في شنغهاي وكان يمثل اقليم هونان في المؤتمر ماوتسى - تونج ، ولقد تولى جميع أعضاء الوفود التي اشتركت في هذا المؤتمر مناصب مختلفة في جمهورية الصين فيما بعد .

ولقد قرر المؤتمر ان الوقت قد حان للقيام بثورة شيوعية في الصين على نسق الثورة الروسية ، ولكن يجب قبل اقامة حكومة شيوعية أن تنتشر الفوضى في البلاد على نطاق واسع . فهذا هو الجو الملائم الذي تنشأ فيه الشيوعية وتترعرع . ولذلك استقر رأى الوفود على القيام بحركة شاملة لاثارة الاضراب والاعتصام في جميع أنحاء الصين حتى يشيع الاضطراب في البلاد ولا يستطيع الدكتاتوريون العسكريون مواجهة الموقف فيتخلوا عن الحكم . وقد أنشئت سكرتيرية لنقابات العمال لوضع خطط الاضراب ومحاولة اغراء العمال الصينيين بالانضمام الى نقابات العمال الصحيحة بدلا من السعي لتحويلهم فورا الى جمعيات سرية . وقد اقترح ماوتسى - تونج على سكرتيرية نقابة العمال انشاء صحيفة تساهم فيها الوفود المختلفة بتجاربه وخبراتها في ميدان « كفاح الطبقات العاملة »

فقبل اقتراحه وأنشئت صحيفة العمال الاسبوعية تم بدأت السكرتيرية تنفيذ خطط الاضراب فورا .

ففى يناير ١٩٢٢ دعت الأقلية الشيوعية فى المجلس العام لاتحاد عمال البحر الصينيين فى هنج كنج الى الاضراب من أجل رفع الاجور ، ولكن أصحاب السفن وغالبيتهم من البريطانيين رفضوا التفاهم مع المجلس . ولم يمض أسبوع حتى امتنع عن العمل ثلاثون ألفا من عمال البحر وعمال الموانئ ووقفت حركته الشحن والتفريغ والملاحة فى هنج كنج . ولقد كان لنجاح هذا الاضراب أثره الكبير وخاصة على العمال الصينيين الذين لم يشتركوا فى الاضراب ، فما كان يدور بخلداهم أن تصل قسوة الاضراب الى هذا الحد ، وفى شهر فبراير وجه اتحاد البحارة نداء الى بقية نقابات العمال كى يتضامنوا مع زملائهم وفى مدى ٢٤ ساعة استجاب للنداء أكثر من ستين ألف عامل . ولقد أبلغ سكرتير لجنة الاضراب العامة أن سكرتيرية نقابات العمال الشيوعيين لديها الكفاية من الاغذية والاعمال فى كانتون وأنه اذا استطاع العمال الصينيون القيام بهجرة جماعية من هنج كنج فان هذا سوف يشل حركة المستعمرة البريطانية - ولما شرع العمال فى الانتقال من هنج كنج الى أرض الصين فزع الحاكم وأمر البوليس وقوات الامن المراقبة فى كولون ان تعيد العمال المهاجرين . وقد حدث صدام بين العمال والقوات العسكرية أدى الى اصابة بضع مئات من العمال ولكن هذا بدلا من أن يقضى على الاضراب مثلما كان يحدث فى الماضى ، نشره على أرض الصين نفسها .

وهنا يقول ماوتسى تونج : «لقد حظى الاضراب بتأييد جميع الصينيين لانه كان موجها ضد الأجانب الذين تمثلهم بريطانيا فى هذا الحادث ، أما الصينيون فى الخارج ، حتى أولئك الذين لا يعطفون على الثورة ، فقد أرسلوا مبالغ من المال لتعزيز الاضراب وموقفنا هنا مخالف لما حدث فى روسيا ، لأن الرأسماليين الروس الذين كانوا يعيشون فى الخارج فى أثناء الثورة الروسية كانوا يساعدون الطبقة الرأسمالية فى روسيا . ان الشعور القومى تغلب على عقبة الفروق الطبقة » .

وبعد ثمانية أسابيع أصاب أصحاب السفن ورجال الاعمال فى هنج كنج الهلع فسلموا بمطالب العمال وكان لهذا أثره الكبير فى تقوية الحركة النقابية فكون عمال سكة حديد بيكين - هانكاو نقابة عامة . ولكن حكومة فنج بادرت باعلان عدم قانونية انشاء هذه النقابة ، فرد العمال بمظاهرة كبرى . وفى ٤ من فبراير ١٩٢٣ أعلنت النقابة الاضراب العام من مركزها فى بيكين ، ولم تمض ثلاث ساعات حتى توقفت الحركة توقفا تاما على طول سكة حديد بيكين - هانكاو .

منح قنج ابن عمه دوى - فو سلطة انهاء الاضراب ، ولما كان فو رجلا ضيق الأفق يرى أن اطلاق النار هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على كل اضراب فقد عبا كل قوات الحكومة لمواجهة الموقف . وكلما التقت قواته بالمضربين أطلقت عليهم النار ، ولما ألقت القبض على لينى هسيانج - تشن زعيم حركة الاضراب أمرته بتوجيه نداء الى المضربين بأن يعودوا الى العمل بعد أن أوسعته ضربا . ولكن الرجل كان من

الشجاعة بحيث قال « لن أدعو الى وقف الاضراب ولو كان فى ذلك حثى » ولقد لقي حتفه ، ولكن الاضراب لم يتوقف .

ان نجاح اضراب عمال البحر فى هنج كنج وعمال السكك الحديدية بين بيكين وهانكاو واصرار الدول الاوربية على رفض تقديم المعونة الى صون يات سن لتعزيز حكومته فى كانتون ، كل هذا دفع صون يات سن لزيادة التقارب مع اليساريين فقد رأى أن الشيوعيين ولو أنهم أقلية الا أنه لا يصح تجاهلهم خصوصا بعد نجاح حركات العمال فى هنج كنج وسكة حديد بيكين - هانكاو ، أضف الى ذلك أن هؤلاء الشيوعيين يحظون بعون مادي وأدبي من الكومنترون (الدولى الثالث) ولما رأى شيانج كاي شيك أن صون يات سن ينزلق الى « الهاوية الحمراء » أخذ يعجل باعادة تنظيم الكومنتانج بتطبيق الاساليب التى اتبعها الشيوعيون منذ قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، وأقنع الدكتور صون يات سن بأن يجتمع مع ممثل روسيا ، أدولف جوفافى مدينة شنغهاى وأن يحصل منه على تعهد بأن الاتحاد السوفيتى لن يقحم نفسه فى السياسة الداخلية للصين . كذلك عمد شيانج كاي شيك الى اقناع جوفافا باصدار بيان بأن الشيوعية « غير ملائمة للصين » كما حصل منه على وعد بمعونة سوفيتية للكومنتانج بصفته الحزب الذى يمثل الحكومة الحقيقية للثورة الصينية ، وفى مقابل ذلك يفتح الباب أمام الشيوعيين للانضمام الى الكومنتانج وتسند اليهم المناصب بصفتهم أعضاء فى الحزب ويختار منهم المنظمون السياسيون والضباط وقد أثارت هذه الشروط قلق كاي شيك ولكنه لم يستطع معارضتها ، لا بل ان جوفافا دعاه للسفر الى موسكو لدراسة طرق تنظيم الحزب الشيوعى الروسى وخاصة الطريقة التى بها تم تحويل الجيش الاحمر الى وحدة المناهضة للثورة ، وذلك بتوجيه الجهاز الحزبى نفسه .

ولما ذهب ماوتسى تونج الى كانتون فى يونيو ١٩٢٣ وجد أن الكومنتانج أصبح صورة طبق الأصل من الحزب الشيوعى ، وأعلن صون يات سن ليلة عقد المؤتمر السنوى للحزب أن سياسته تتضمن التحالف مع الاتحاد السوفيتى والتعاون مع الحزب الشيوعى وتقديم المساعدة للعمال والفلاحين .

وفى اكتوبر ١٩٢٣ عاد كاي شيك من موسكو متوثبا وأعلن عزمه على انشاء أكاديمية عسكرية ، مما بعث الحزن فى نفس ماوتسى تونج وغيره من زعماء الشيوعيين فى الصين . وأصبح كاي شيك مديرا للكلية ، وكانت مهمته تدريب فرق الهجوم على محاربة الدكتاتوريين العسكريين فى الشمال وتحرير البلاد وتوحيدها طبقا للمبادئ الديمقراطية .

ولقد أحسن الدكتور صون استقبال كاي شيك عند عودته من موسكو ولكنه الملح الى أنه ينبغى أن يضم مجلس ادارة الكلية العسكرية بعض الشيوعيين البارزين وحجته فى ذلك أنه اذا استبعدهم كاي شيك فقد يعمدون الى انشاء كلية خاصة بهم . وافق كاي شيك على هذا الاقتراح ودعا «العناصر المهدبة» من الشيوعيين للانضمام الى مجلس الكلية ، فقبل دعوته شواين لاي وبه تشينى ينج ، وكذلك التحق بها كل الشيوعيين البارزين فى الصين حتى

ليقال بحق ان هيئة اركان حرب جيش الصين الشيوعية تلقت تدريبها العسكري على أيدي شيانج كاي شيك .

وفي يناير ١٩٢٤ اجتمعت أول لجنة مشتركة تضم ممثلين للحزب الشيوعي والكومنتانج في مدينة كانتون لبحث تكوين «جبهة شعبية» ضد الحكومة العسكرية في الشمال . واشترك ماوتسي تونج في الاجتماع باعتباره رئيس رابطة الشباب الاشتراكي . وبعد مضي أسبوع من المساومات العنيفة بين الشيوعيين والكومنتانج اتخذ المجتمعون قرارا أطلق عليه اسم «بيان أول مؤتمر وطني للكومنتانج» .

وكانت «الجبهة الشعبية» في نظر الشيوعيين قبولا لسياسة مناهضة النفوذ الاستعماري والاقطاع ، وموافقة على مبدأ انضمام أعضاء الحزب الشيوعي وأعضاء رابطة الشباب الاشتراكي الى الكومنتانج بصفاتهم الشخصية واستهدافا لتحويل الكومنتانج الى رابطة ثورية حقيقية بين العمال وصغار البورجوازيين وكذلك البورجوازية الوطنية . وبهذه الطريقة يستطيع الحزب الشيوعي تطعيم الثورة بدم جديد . وكان اتجاه ماوتسي تونج وشواين لاي هو اتاحة الفرصة أمام العناصر الشيوعية للتسرب الى صفوف الكومنتانج حتى اذا حان وقت العمل أمكن القيام بحركة تطهير للكومنتانج من غير الشيوعيين واطلاق اسم جديد عليه .

وقد أسر كان شيك الى صهره سونج أنه بموافقة على ادخال الشيوعيين في عضوية الكومنتانج يستطيع أن يراقب اتجاهاتهم الفكرية ويستغل جهودهم ويقوم بحركة تطهير عندما يحين حينها .

في هذا الجو المشحون بالخداع الباسم بدأت الحملة لتوحيد الصين . أصبح من المألوف قيام المظاهرات وتقديم الاحجاجات والزحف الشامل لتقديم المطالب والدعاية المعادية لبريطانيا . وقد أفرغ هذا النشاط الوطني الجالية البريطانية في كانتون فأنشأت لها حرسا خاصا في اكتوبر ١٩٢٤ ، وأطلقت عليه اسم «قوات المتطوعين من تجار كانتون» . وقد استطاع المتطوعون اقناع الجيش الخاص الذي يقوده الدكتاتور العسكري المحلي تشن ليم - باك بالقيام بثورة هدفها القضاء على الكومنتانج واغتيال صون يات سن . ولم يكن لدى الثوار ما يحلونه محل حكومة كانتون غير دكتاتورية عسكرية يتولاها تشن نفسه ، ولكنها في رأيهم أفضل من حكومة مشوبة بالتسلل الشيوعي .

من الصعب أن نتصور الاضطرابات الهستيرية التي أصابت القطاعات الأقل استنارة في المجتمع الاوربي في أعقاب الثورة الروسية . فقد انتشرت بين هؤلاء قصص مفرغة تصور امتداد «موجة الدم» وتكهنات بأنه في فترة خمس سنوات سوف يقوم «الحر» بذبح كل أوربي وهو نائم في فراشه فلاعجب اذن أن بذلت الجالية الاوربية في كانتون أقصى ما تستطيع من جهد للقضاء على الكومنتانج في وضعه الجديد .

ولكن حملة تشن ليم - بات فشلت وتبددت قواتها أمام الرعيل الاول

من خريجي الاكاديمية العسكرية الذين تلقوا تدريباً قوياً على أيدي المدربين الروس .

ولما رأى اليابانيون أن حكومة كانتون أصبحت العوبة في أيدي البريطانيين ، انتهزوا الفرصة للتخلص من حكومة بيكين ، فصبوا الأموال صبا في أيدي توان تشي - جوى - أحد الدكتاتوريين العسكريين الذي هزم منذ عامين في آنهوى وبذلك استطاع توان القضاء على حكومة فنج .

ولكن هذا النصر جاء متأخراً فقد ولى زمن سيطرة الأجانب على الصين عن طريق إقامة دكتاتوريات عسكرية موالية لهم واستطاع الكومنتانج والشيوعيون فيما بينهما إنشاء شبكة من الهيئات الثورية في طول البلاد وعرضها . وما أن جلس توان قليلاً على عرش التين حتى قدم إليه التماس أعده الكومنتانج والشيوعيون لغيابه في كانتون . وتتلخص مطالب هؤلاء في إعادة توحيد الصين وإنشاء جمعية وطنية . وقد نيّطت بماوتسى تونج مهمة تنظيم لجان للمطالبة بتوحيد الصين في هونان وشنغهاي وشيكيانج وكوانتونج وهوبيه . وكان هذا أمراً هيناً على ماو فقد أصبح في استطاعته الآن إقامة مظاهرات في جميع أنحاء الصين ، وما على حزبه إلا أن يحدد الزمان والمكان وحجم الجمهور الذي يريد الحزب أن يشركه في المظاهرة .

ولقد بلغت نغمة المطالب الديموقراطية درجة عالية فتحوّلت إلى ضجيج صاخب أقض مضجع توان، فبادر بارسال ابن عمه إلى كانتون لتوجيه الدعوة إلى الدكتور صن يات سن كي يزور العاصمة ويبداً المفاوضات لإعادة توحيد الجمهورية الصينية .

لم يشعر صن يات سن بارتياح إلى فكرة إجراء مفاوضات مع توان، ذلك أن المفاوضات مع توان تعنى في نظره المفاوضة مع اليابان . ولما كان يخشى أن يستغل الشيوعيون سفره إلى العاصمة فينشروا الدعاية ضده فقد نشر قبل مغادرته كانتون بياناً خاصاً بالرحلة إلى الشمال أعرب فيه عن موقفه الوطنى المتطرف ضد الاستعمار والاقطاع . وأعلن ألا مهادة بينه وبين الأجانب أو بين الصينيين الذين يضعون أنفسهم تحت حماية الأجانب .

إذا كان توان قد تخيل باتخاذ خطوة المفاوضات أن يجعل من صن يات سن رئيساً لجمهورية صورية فقد خاب فآله . ذلك أن صن يات سن وإن كانت قد تقدمت به السن ، فقد رفض أى اقتراح يهدف إلى تخلي حكومة كانتون عن تحالفها مع الاتحاد السوفيتى فى مقابل حلف مع اليابان كما رفض أى اتفاق لا يحقق للصين الوحدة . ظل هو وتوان طوال شتاء ١٩٢٤-١٩٢٥ يلجان مرة إلى المساومة وأخرى إلى التهديد وثالثة إلى الإغراء ولكن لم تسفر اجتماعاتهما عن أية نتيجة . ولقد أنهكت تلك الفترة الطويلة من المفاوضات قوى صن يات سن العجوز ومات فجأة يوم ١٢ من مارس ١٩٢٥ .

لم يكن صن يات سن زعيماً عظيماً ولكنه ساهم أكثر من أى صينى آخر فى التعجيل بسقوط المانشو ، كما أن تمسكه الشديد بفكرة الحكم

الجمهورى كان ذا أثر قوى على جميع الصينيين حتى الشيوعيين الذين كانوا يشكون فى نضجه السياسى ، وأصبح بعد وفاته شهيدا فى نظرهم . وهنا نقتبس من السجلات الرسمية لتاريخ الصين مايلى : «ان الحداد الوطنى على الثائر الديموقراطى العظيم صنون يات سن تحول الى حملة واسعة للدعاية السياسية » .

وبعد وفاة صنون يات سن أصبح من الواضح ان شيانج كاي شيك لن يكون أمامه منافس على زعامة الكومنتانج . فقد كان كاي شيك هو الذى يوجه صنون يات سن طوال العامين الأخيرين من حياته ، كما اتخذ لنفسه منصب الرئيس المؤقت للجنة التنفيذية المركزية عام ١٩٢٥ وظل يشغل هذا المنصب مدة ثلاثة وعشرين عاما .

ولما تولى شيانج كاي شيك زعامة الكومنتانج أصبح الحزب الشيوعى الصينى فى موقف حرج ، فقد اشتهر بأنه عدو لدود للشيوعية ولكنه تلقى جانبا من دراسته فى موسكو وتعلم جميع الأساليب الشيوعية ، وهذا مما يزيد الموقف تعقيدا أمام الشيوعيين لانه سوف يدرك ما ينصبون له من شباك . وصار من الواضح أمام ماوتسى تونج ان كاي شيك سوف يقضى على الحزب الشيوعى ان عاجلا أو آجلا ، ولم يسع ماو حين ذاك الا أن يعد نشرة يقرر فيها أن الشيوعية الصينية فى خطر ويوحى بحركة شاملة لزعامة العمال والفلاحين . ولقد قررت سكرتيرية نقابات العمال بدء حملة لاثارة الاضطرابات تتضاءل بجانبها أية حملة سابقة ، فاخذت المصانع اليابانية فى شنغهاى تطرد كبار العمال وتحل محلهم الصغار ، وتحمل الصينيون هذا الاجراء اليابانى بصبر اذ لم تكن أمامهم وسيلة لمعارضته والا حرمت عائلات بأكملها الحصول على القوت الضرورى .

احتمل الصينيون هذا الاجراء التعسفى وقتا ما ، ولكن فى ١٠ مايو ١٩٢٥ عمد صاحب مصنع يابانى قصير النظر الى طرد كل عامل كبير فى مصنعه وأعلن فى زهو أنه من الآن فصاعدا لن يوظف فى مصنعه الا الصبية الذين لا تزيد سنهم على العاشرة .

وفى ١٤ من مايو وجه الحزب الشيوعى نداء الى جميع عمال النسيج فى شنغهاى للقيام باضراب عام بسبب الطرد الجماعى للغزاليين الكبار وتشغيل الصبية ، وفى اليوم الثانى للاضراب أطلق الحرس اليابانى النار على منظمى حركة الاضراب فقتل وأصاب حوالى اثنى عشر منهم . وفى ٣٠ من مايو سار طلبة شنغهاى الذين يسيطر عليهم الشيوعيون فى شوارع المدينة يوزعون نشرات احتجاج ضد اطلاق النار على المضربين بلا تمييز . ولم يكن هذا أمرا جديدا . فقد جرت العادة من قبل على أن يطلق البوليس النار على المتظاهرين ، ولكن مدير البوليس البريطانى فى شنغهاى أساء التصرف فعمد الى القاء القبض على الطلبة الذين يوزعون المنشورات ، ولما رفض بعض هؤلاء الطلبة الاذعان الى أوامر القبض أطلق البوليس النار على الجمهور الذى أحاط بهم ، ولم تمض ساعة بعد هذا الحادث حتى كانت المدينة كلها فى هياج صاخب ، ولم يستطع مدير البوليس أن يعيد النظام الا بعد أن استدعى كل قوات المايشيا المرابطة فى المدينة . وفى أول يونيو

اتصل أعضاء الحزب الشيوعي الصيني برجال الأعمال واصحاب المصانع الصينيين ودعواهم الى اضراب عام من أجل وحدة الصين وضد الأجانب ، وقد نجح هذا الاضراب نجاحا كاملا اذ اشترك فيه كل صيني في المدينة ، وشكلت لجنة مشتركة من العمال والطلبة ورجال الأعمال للإشراف على الاضراب . ولقد أثارت هذه الحركة فزع السلطات في مدينة شنغهاي فطلبت المساعدة من حاكم هنج كنج . وهنسا بذرت السفن الحربية البريطانية واليابانية والأمريكية بالتوجه نحو نهر هوانج هو وانزال قوات بالمدينة ولكن هذا لم يفت في عضد المضربين ، فقد كانت المدينة جميعها تؤيدهم .

وأخيرا عمدت السفارة البريطانية في شنغهاي الى تفكيك وحدة الصينيين فاضحت لرجال الأعمال وأعضاء الجالية التجارية الصينية في شنغهاي أن تحالفهم مع الشيوعيين أمر مستحيل لتعارض أهداف الطرفين . وقد نجحت المحاولة البريطانية وانسحب هؤلاء من حركة الاضراب . في أغسطس انتهى الاضراب بزيادة محسوسة في أجور العمال الصينيين وإبطال تشغيل الأطفال ، وكان الشيوعيون قد نظموا اضرابا في هنج كنج ، اشترك فيه مائة ألف من العمال الصينيين لإعلان تضامنهم مع اخوانهم في شنغهاي ، وعلى الفور أعلن حاكم هنج كنج الأحكام العرفية وأقفل الطريق بين الجزيرة وساحل الصين ، ولكن المضربين لم تعقهم هذه الاجراءات فعبروا الحدود وتدفقوا على مدينة كانتون ، حيث اشتركوا مع زملائهم في نقابات العمل المحلية وشلوا حركة المدينة . وكانت نتيجة الاضراب الذي قام به عمال هنج كنج أن توقفت الحركة فيها مدة ثلاثة أشهر ، بل ان الاضراب لم ينته الا بعد ستة عشر شهرا وهو يعتبر من أطول الاضرابات في التاريخ .

ولقد تعلم شيانج كاي شيك أشياء جديدة بالإضافة الى ما تعلمه في موسكو عن التنظيم الحزبي ، فقد أدرك الآن أن اسهل طريقة تضمن للحزب النمو والتقدم أن يزجى الثناء لكل حركة يقوم بها أعضاؤه لذلك فقد بادر شيانج كاي شيك بإصدار نشرة هنا فيها أعضاء الكومنتانج الذين اشتركوا في اضرابات هنج كنج وشنغهاي على نجاح حركتهم وذلك على الرغم من أن دورهم فيها كان صغيرا اذا ما قيس بدور الشيوعيين .

أما ماوتسي تونج فقد صمم من جانبه على القيام بحملة دعاية يبين فيها أن الفضل في نجاح الاضراب يرجع الى الحزب الشيوعي ويعرض بشيانج كاي شيك على اعتبار أنه رجل انتهازي وقح . ولما كان البروفسور تشن يؤمن دائما بأن من الممكن التعاون مع كاي شيك والكومنتانج فقد أثنى ماو عن عزمه وأشار عليه بالعودة الى هونان لاكتساب انصار جدد للحزب الشيوعي من بين الفلاحين وأن يبتعد عن الكومنتانج .

لقد كان البروفسور تشن مخطئا في تقديره لموقف شيانج كاي شيك ذلك أن كاي شيك كان يتحين الفرص للتخلص من الشيوعيين ففي عام ١٩٢٥ ، نظم الحزب الشيوعي والكومنتانج حملة مشتركة ضد تشن تشيونج

ينج الذي أقام دكتاتورية عسكرية في إقليم كوانتونغ . فما دام تشن مسلحا ونشيطا تظل مدينة كانتون معرضة للهيـسـاج . وكانت الحملة المشتركة مكونة من الفلاحين يقودهم طلبة الكلية الحربية وبعض المستشارين السوفييت . وقد استطاعت هذه القوة الصغيرة الدقيقة التنظيم ان تشتت قوات تشن الكبيرة وتحتل القسم الشرقي من كوانتونغ . وقد ابتهج شيانج كاي شيك بأنباء النصر ولكنه فزع حينما علم أن الشيوعيين بين طلبة الكلية الحربية كانوا يستدعون مندوبيهم السياسيين بعد كل انتصار وينظمون الفلاحين في جمعيات تعاونية سياسية . لم تتخذ هذه التعاونيات شكل المزارع الجماعية ولكنها كانت خليطا مغريا من التسويق التعاوني وشراء البذور التعاونية و فرق الدفاع الاقليمي ، ولم يبلغ عام ١٩٢٥ ، نهايته حتى أصبحت جمعيات الفلاحين في إقليم كوانتونغ تضم ستمائة ألف عضو . .

كان من الصعب على أية هيئة أن تقف من هذا التنظيم الدقيق موقف المنافس . وعلى الرغم من الاتفاق القائم بين الشيوعيين والكومنتانج على تجهيز حملة للقضاء على سيطرة الدكتاتوريين العسكريين في شمال الصين فإن كاي شيك ما كان ليرضى عن ذلك التنظيم التعاوني الشيوعي الذي قد يحول البلاد بأجمعها الى مثل ما حدث في إقليم كوانتونغ . ولو قبل الاشتغال بأعداد حملة الشمال فقد تتحول الصين الى الحكم الشيوعي قبل أن تستولى حملة على بيكين وهذا مالا يمكن أن يخطر لشيانج كاي شيك على بال . اذا لم يبق أمام كاي شيك الا أن يطهر الأكاديمية العسكرية من العناصر الشيوعية ثم يبدأ هذا التطهير في الجيش الذي كان ضباطه مزيجا من أعضاء الكومنتانج والشيوعيين .

ولكن كيف السبيل الى هذا التطهير ؟

في ١٨ من مارس ١٩٢٦ بعث كاي شيك برقية الى لي تشيه - لونج وهو شيوعي كان يعمل مديرا للإدارة البحرية ، يكلفه إرسال الطراد تشانجشان الى هوانبوا ، وحينما وصل الطراد الى المكان المقصود أصدر كاي شيك تعليماته فورا الى رجاله باعتقال كل شيوعي بارز في الكلية العسكرية وكل ضابط شيوعي في القوات الثورية الوطنية في المنطقة، وقد حاول تبرير عمله هذا بأن الشيوعيين كانوا يدبرون خطة لاجداث انقلاب بمساعدة الطراد تشانجشان الذي يتولى قيادته ضباط شيوعيون .

كانت حادثة الطراد تشانجشان في الدوائر الأوربية مجرد أسطورة أما في الدوائر الصينية فقد أثبتت أن أساليب الخداع والغدر لم تضل طريقها . وقد اتبع كاي شيك هذا الحادث باستصدار قرار من اللجنة المركزية بادخال تحسينات على التنظيم الحزبي للكومنتانج لان الشيوعيين في رأيه كانوا يستعدون لتولي حكم الصين وعلى ذلك فيجب استبعادهم تدريجيا من عضوية الكامنتانج ثم القضاء عليهم .

وقد تضمن القرار مايلي :-

١ - قائمة بأسماء الشيوعيين المعتمدين أعضاء في الكومنتانج تسلم لشيانج كاي شيك نفسه .

٢ - طرد الشيوعيين من المناصب العليا التي يشغلونها في الكومنتانج بحيث لا تزيد أنصبتهم من المراكز الحزبية في أى وقت عن الثلث .

٣ - تحريم اختصار الشيوعيين لرياسة الادارات المركزية للكومنتانج .

وعلق كاي شيك على القرار قائلا ان الوقت لم يحن لقطع العلاقات نهائيا مع الشيوعيين ولكن هذه بداية طيبة وعلى كل فبعد أن يتم غزو شمالى الصين بمساعدة الشيوعيين يصبح من المستطاع حين ذاك الانفصال النهائى عن الشيوعيين دون اراقة دماء .

أما الشيوعيون من جانبهم فقد استقبلوا حادث الطراد تشانجشان وقرار الكومنتانج برباطة جأش واعتقد كثير من زعماء الشيوعيين أن حملة الشمال المزمع الشروع فيها في شهر يوليو لن تؤدي فقط الى توحيد الصين بل الى قيام حكومة شيوعية بها . ولم يهتم هؤلاء الزعماء بما يفعله كاي شيك في كانتون ولكن بما يجب أن يفعله المنظمون الشيوعيون في الاقاليم حيث يوجد ملايين الفلاحين .

كان القائم على حركة تنظيم الفلاحين في اقليم هونان هو ماوتسى - تونج فقد ترك ادارة الصحيفة لزوجته وشرع في تنظيم التعاونيات الزراعية بهمة لا تعرف الملل .

لقد فر كثير من ملاك الاراضى الى تشيانج شا عاصمة هونان بعد أن انتشر الشغب وعم الاضطراب وأصبحت حياتهم معرضة للخطر . وقد أخذ ماو يجوب الاقليم طولا وعرضا ويحرض الفلاحين على أن يتخذوا من الاجراءات مايستحيل معه عودة الملاك الى اراضيهم وتم ذلك عن طريق بيع الاراضى لمستأجريها في مزادات صورية ثم أعد أحد أصدقاء ماو من المخامين حجج التملك الجديدة . ولم تقف الجمعيات التعاونية التي أنشأها ماوتسى تونج موقف المعارضة أمام رغبة الفلاحين الجامعة في ملكية الاراضى التي يزرعونها وكل ماطلبتة منهم هو شراء البذور تعاونيا وبيع الارز تعاونيا مع تحديد سعر البذور والارز مقدما قبل طرحهما في السوق، وهنا لم ينس ماو أن يذكر الفلاحين بأن الحزب الشيوعى هو الذى فعل ذلك من أجلهم وعليهم ألا ينسوا له هذه اليد . وفى أواخر عام ١٩٢٦ بلغ عدد الفلاحين المشتركين في تعاونيات ماوتسى تونج أكثر من مليونين .

وفى يوليو ١٩٢٦ بدأت حملة الشمال من مدينة كانتون وكانت مجهزة تجهيزا طيبا طبقا للمعايير الصينية كما كان يقودها فئة من شباب الضباط الشيوعيين والبعض الآخر « وطنيون » وهو الاسم الجديد الذى أطلقه أعضاء الكومنتانج على جماعتهم .

بدأت الفرقة التي يقودها ييه تنج الشيوعى زحفها على هونان وكان

فيه تنج يتوقع معركة عنيفة خصوصا حول تشانج شا حيث ركز الدكتاتور العسكرى فى تشيهلى قواته ، ولكنه حينما زحف نحو الشمال وجد أن الفلاحين قد نظموا انفسهم فى شكل كتائب من المتطوعين وعلى رأس كل كتيبة قائد شيوعى كذلك وجد فيه تنج أن ماوتسى تونج قد نظم وحدات تموينية على طول الطريق وقد كانت هذه الوحدات انفع للحملة من حماسة كتائب الفلاحين الذين كان سلاحهم الفئوس والنبابيت وقد كتب القائد فيه تنج عن الحملة يقول : حققت هذه الحملة نصرا كاملا ولم يكن ذلك راجعا الى شجاعة الجند الذين تحت أمرتى فحسب ولكن الى تلك المقدرة النادرة التى استطاع بها القائد المحلى ماوتسى تونج أن يعبى العمال والفلاحين فى الاقليم لخدمة الحملة . أما عصاة الدكتاتور العسكرى فلم يتم اندحارها على أيدي الجند فقط بل كان السبب الاصلى فى هزيمتها اتحاد الفلاحين ووقوفهم صفا واحدا بجانب الجند .

أما القوات الرئيسية لحملة الشمال فقد أخذت تتقدم تقدما مطردا ولو انها واجهت بعض المتاعب فاستولت على نانكنج فى مارس ١٩٢٧ وفى شهر مايو أصبح جميع وادى نهر اليانجتسى تحت سيطرتها . ولقد ظل العمال فى المدن الصناعية يواصلون الاضراب طوال عهد الحملة مما أغرق البلاد فى فوضى شاملة وأصبح من الصعب على البريطانيين والفرنسيين واليابانيين المقيمين فى الصين أن يدركوا تفسير الحوادث الجارية فى البلاد لقد حدث فى اقليم ووهان وحده أكثر من ثلاثمائة اضراب فى الفترة من أكتوبر ١٩٢٦ الى يناير ١٩٢٧ وفى ٣ من يناير ١٩٢٧ دخلت القوات الوطنية ووهان وحدث أول صدام بينها وبين الحامية البريطانية . وأدرك البريطانيون أن ما يواجهونه ليس واحدا من تلك الجماعات المشاغبة التى اعتادوا مواجهتها وتشتيتها وانما هى قوة مسلحة حسنة التدريب فاضطروا الى عقد هدنة دائمة مع اللجنة الوطنية فى ووهان . ولم تكن هذه الهدنة مجرد اتفاق لوقف إطلاق النار ولكنها تجاوزت ذلك بكثير ، ذلك أن البريطانيين وافقوا على التنازل عن حقوق الامتياز التى لهم فى المنطقة فى مقابل ضمان سلامة أرواحهم وممتلكاتهم ، ولقد كان نزول البريطانيين عن حقوق الامتياز فى هانكاو وكنكيانج أول اعتراف من الدول الأوربية بأن الصينيين مصممون وقادرون على إعادة «تنظيم البيت» وفى فبراير ١٩٢٧ دخلت القوات الوطنية مدينة هانجشو حيث استقبلتها الحكومة الشيوعية المحلية بالترحيب وفى شنغهاى نظم الفرع المحلى للحزب الشيوعى الصينى اضرابات ظلت قائمة حتى وصلت القوات الوطنية أبواب المدينة .

هكذا تحقق نجاح الحملة فهزت قوات الدكتاتورين العسكرين وأخضعت الجاليات الاجنبية لاشراف صينى . ولننقل هنا تعليقا للسفير البريطانى على الموقف اذ يقول : ليس أمامنا الآن الا أمل وحيد يبعث على التفاؤل ، ذلك هو أن يدب الخلاف بين الصينيين وتتفرق كلمتهم .

كان يشارك السفير البريطانى فى رأى شيانج كاي شيك ذلك أنه على الرغم من ابتهاجه بنجاح حملة الشمال التى كان هو قائدها الاسمى فقد أفزعه مارآه من نفوذ قوى الشيوعيين فى المدن الكبرى وفى أربعة أو خمسة من الأقاليم وأدرك أن الوقت قد حان لتسوية حسابه مع هؤلاء الشيوعيين وانه ان لم يبادر بسحقهم فسوف ينقلبون عليه ويعلنون حل

الكومنتانج . وكان من حسن حظ كاي شيك أن البروفسور تشن تو - هسيو زعيم الحزب الشيوعي الصيني كان لا يزال على رأيه من التعاون بين الشيوعيين والكومنتانج وأنه ليس من الصعب اقناع هذا الزعيم الشيوعي بإصدار أمره إلى القواد الشيوعيين بأن يسلموا ماتحت أمرتهم من قوات إلى القيادة العليا الجديدة للكومنتانج . ولما تحقق لشيانج كاي شيك ما أراد من إبعاد الجند مؤقتا عن ميدان المعركة بينه وبين الشيوعيين ركز جهوده في القضاء على الشيوعيين المدنيين .

اتبع كاي شيك سياسة مكيفلية فأغرى بعض مثيرى الشعب المحترفين بتحدى الشيوعيين المنوط بهم مراقبة تنفيذ اضراب عمال المصانع في شنغهاي ولما ضاق هؤلاء المراقبون بمثيرى الشعب أطلقوا النار فى الهواء فانتهز كاي شيك الفرصة وأصدر أمره بتجريدهم من السلاح وتسليمه للبوليس باسم الأمن والنظام . وفى اليوم التالى لحادث تسليم الأسلحة عقد العمال اجتماعا عاما ثم زحفوا على مقر القيادة العامة للقوات الوطنية للمطالبة برد السلاح . ولم يسمع كاي شيك إلا أن يصدر أمره إلى الحرس بإطلاق النار عليهم بحجة المحافظة على النظام ، وفى أقل من ساعة قتل من العمال المتظاهرين مالا يقل عن ألف .

الحرب الاهلية فى الصين بين الشيوعيين والكومنتانج

كانت الحوادث التى أعقبت يوم ١٢ ابريل عام ١٩٢٧ بداية الحرب الاهلية بين الكومنتانج والشيوعيين ، تلك الحرب التى ظلت مشتعلة لا يخبو لها أوار إلى مايقرب من عشرين عاما .

ولقد أدرك شيانج كاي شيك أن أنباء تجريد مراقبى الاضراب الشيوعيين من سلاحهم سوف تبلغ إلى المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى وأن الحزب سوف يضع حدا للتعاون مع الكومنتانج بوجه عام ومع كاي شيك بنوع أخص وذلك على الرغم مما قد يقدمه البروفسور من نصيح ومن هنا لم يشأ الانتظار حتى يثار الشيوعيون لانفسهم فأصدر أمرا عاما بالقاء القبض على كل عضو فى الحزب الشيوعى الصينى فى جميع أنحاء البلاد ، ثم نقل عاصمته إلى نانكينج حتى يكون فى مركز وسط لاجراء عملية التطهير .

وقد رد المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى عاجلا على اجراءات كاي شيك التى بلغت فوراً من أصدقائه فى الكومنتانج . قرر الشيوعيون اقامة حكومة الصين الحقيقية فاتصلوا أولا بوانج تشنج وبي الحاكم المحلى من قبل الكومنتانج وأفهموه أنه أعظم كفاية من شيانج كاي شيك وأنهم يرحبون بالتعاون معه . ولم يكن وانج فى حاجة إلى أكثر من ايماءة للتنكر إلى شيانج كاي شيك رسمياً من الحزب واعلان ووهان عاصمة للصين وكذلك اختيار وانج رئيساً مؤقتاً للجمهورية الجديدة .

ولكن النجاح الذى حققه الشيوعيون كان قصير الاجل ، ذلك أن

الجانب الاكبر من الصين كان تحت سيطرة كاي شيك الذي نجح في الحملة التي شنّها على الشيوعيين في أرجاء البلاد .

استطاع كاي شيك أن يعيد وونج الى حظيرة الكومنتانج . اما الشيوعيون في ووهان فقد لقوا حتفهم شأنهم في ذلك شأن زملائهم في كل مكان آخر في الصين .

ولقد بلغت ماوتسى تونج في هونان انباء المذابح التي اقامها كاي شيك للشيوعيين ولكنه لم يعبأ بها لاطمئنانه الى قوة مركز الحزب الشيوعي في هونان وهكذا أمضى هو وزوجته صيفا سعيدا واعتقد أخيرا أن هونان سوف تكون المركز الرئيسي للثورة الشيوعية .

وبينما ماوتسى تونج ينعم بحياته الهادئة في تشانج شيا عاصمة هونان اذ به في احدى ليالي أغسطس ١٩٢٧ يسمع فجأة انباء اشتعال النار في المدينة وطلقات البنادق والمدافع السريعة يتردد صداها في كل زاوية وركن وصيحات الرجال وصراخ النساء يتعالى وقد سحبوا على وجوههم سحبا الى الشوارع وقطعت رؤوسهم أو اطلقت عليهم النار ، ذلك أن نحو سبعة آلاف من خيرة جنود شيانج كاي شيك استطاعوا التسلل الى المدينة وبدعوا المذبحة . فرمى وزوجته الى دار صديق ولما تلقيا انباء مذابح ووهان ورأيا أن الصين كلها أصبحت الآن في قبضة شيانج كاي شيك وجدا أن وسيلة النجاة الوحيدة أمامهما هي الفرار جنوبا الى هونان أو شمالا الى الاتحاد السوفيتي .

تردد ماوتسى تونج في الفرار لاعتقاده أن شيانج كاي شيك لم يبلغ من القوة ومن التغلب على كل أجهزة الحزب الشيوعي ماصوره له أصدقاؤه وقرر أن يقوم بجولته في المدينة عله يستثير العمال أو منظمات الفلاحين ضد زعيم العصابات « شيانج كاي شيك » ، ولما أصرت زوجته على اصطحابه خرجا معا تحت جنح الظلام يتلمسان سبيلا الى دور الاصدقاء وهنا أدرك أن ما سمعه كان قابلا بجانب ما شاهده . لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر المقاومة فقد أصدر البروفيسور تشن تو - باسم المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني بأن على جميع أعضاء الحزب أن يضعوا السلاح ويتعاونوا تعاوننا كاملا مع حكومة الصين الشرعية تحت رئاسة شيانج كاي شيك .

كان ذلك الامر الصادر من تشن محوطا بالغموض ولذلك فانه في يوم أول أغسطس اجتمع بعض أعضاء الحزب الشيوعي في زانتشانج تحت زعامة شواين لاي وقرروا تجاهل التعليمات الصادرة اليهم ونظموا حركة ثورية كبيرة قوامها الفلاحون في مقاطعة كيانجسى واستطاعوا أن يكوّنوا من هؤلاء الفلاحين نواة أول جيش شيوعي صيني ولا تزال الصين تحتفل بيوم أول أغسطس باعتباره « يوم الجيش » .

لكن ماوتسى تونج لم يسمع بهذا النصر الجديد الذي أحرزه شواين- لاي في اقليم كيانجسى ، وأخذ يطوف بأنحاء المدينة هو وزوجته بين طلقات النار وصراخ الضحايا وأخيرا وقع ماو وزوجته أسيرين في أيدي رجال الكومنتانج .

أراد قائد الفصيلة التي أسرتهم أن يقتلهم ولكن بعض رجاله ، وقد كان يعرف ماوتسى تونج أشار على الضابط بالاحتفاظ به حيا وهكذا نقل ماوتسى تونج إلى إحدى الثكنات وبدأ استجوابه وأخيرا ألقى به فى السجن بعيدا عن زوجته .

استطاع ماو بعد عشاء ان يهرب من سجنه ويتخذ سبيله الى الحقول المجاورة طلبا للنجاة . وفى الصباح الباكر حينما كان فى مخبئه فى الحقول شهد موكبا يسير الهوينى متجها نحو أعمدة استخدمت كمسانق على حافة الحقل . وشهد زوجته تنتحب بين الصفوف السائرة إلى مصيرها المخيف ، ثم رآها بعد ذلك مشدودة الى أحد أعمدة الموت ، وأخيرا شاهد جسما مدلى من حبل المشنقة وهو يتأرجح على جوانب العمود .

أخذ ماوتسى تونج ينتحب ويصب لعناته صبا على أولئك القساة الذين مثلوا بزوجته ، ولما أرخى الليل سدوله زحف الى حيث توجد جثة زوجته فودعها الوداع الاخير .

ولما رأى نفسه وحيدا وسط العاصفة التى حطمت حياته ودمرت حربه فر الى المرتفعات القائمة فى منطقة الحدود بين اقليمى كيانجسى وهونان .

وفى طريقه الى منطقة الحدود برح به الحزن والاسى فسطر هذه الابيات التى تفيض هما وشجنا ومرارة :

قطعت يدى على حبال المشنقة .

فلم تخرج نقطة دم واحدة من عروقى .

وبدلا من الدم شاهدت الحنان والرافة ينتزعان من بين جنبى .

الفصل الخامس

إذا ما عدنا بالذاكرة الى الماضى وألقينا نظرة بعيدة عن الانحياز الى سلوك كل من اشترك فى الثورة الصينية الثانية (١٩٢٦ - ١٩٢٧) فلن يدهشنا أن نلمس الغباوة وسوء التصرف من هؤلاء جميعا باستثناء شيانج كاي شيك .

فبغض النظر عما قيل فى كاي شيك من أنه زعيم عصابات لا ضمير له ، فما من شك فى أن هذا الرجل كان وطنيا مخلصا شعر بما تعرضت له بلاده من خزي وعار وما كانت عليه زراعتها وصناعاتها من تخلف واضطراب وما وصلت اليه من انحطاط وهوان فى نظر الدول الغربية التي ثبتت أقدامها على أرض الصين . آثار سخطه وجود قوات أجنبية بصفة حرس فى مناطق الامتياز على طول سواحل الصين ، على الرغم من مزاعم الدول الغربية بأن لوجود هذه القوات ما يبرره . كذلك اعتقد شيانج كاي شيك أن وجود الدكتاتورين العسكريين ظاهرة خطيرة منافية لروح عصره وأنها أكبر عقبة فى سبيل التقدم نحو الوحدة الصينية ، وما دام الامر كذلك فلا بد من التخلص من الاجانب ومن الدكتاتوريين .

واعتقد كاي شيك أنه اذا ما تخلص من هذين الخطرين وأصبح الجو مهيأ لانشاء دولة صينية حديثة ، فسوف يكون هو المهندس الاكبر المشرف على تخطيط الدولة الناشئة .

كان شيانج كاي شيك يكره الشيوعيين للسبب الذى من أجله يكره البريطانيين كانت الشيوعية فى نظره عقيدة أجنبية مثل فكرة العدالة والقوانين التي حاول البريطانيون ادخالها على المجتمع الصينى، وقد أثبتت له حوادث ١٩١١ أن محاولة انشاء حكم برلمانى على النمط البريطانى مصيرها الفشل لسبب بسيط وهو أنها نظام برلمانى مستورد للشعب الصينى ، اما ادخال النظم الديموقراطية البريطانية فى الصين فهو بدوره سوف يجعل الصين على درجة من التبعية لبريطانيا ومثلها فى ذلك مثل خادم يشعر بتبعيته لسيده بمجرد أن يلبس ما خلعه عليه هذا السيد من ثيابه ، هكذا رأى كاي شيك فى الشيوعية المستوردة من روسيا أو بالاحرى من ألمانيا شرا أجنبيا لا يقل خطره عن الديموقراطية البرلمانية الغربية ولكن لانسى من ناحية أخرى ان شيانج كاي شيك قد ولد وفى دمه نزعة دكتاتورية ، كأنه صورة أخرى لموسولينى أو هتار . وقر فى ذهنه أنه هو الرجل الذى سوف يحقق ما يجب تحقيقه ، ولما كان القلق والضجريدفعان الى النزعة الدكتاتورية أكثر من شهوة السيطرة فان كاي شيك كان لديه منهما الكثير ولذلك نجده

في فتوة انتصاره على الشيوعيين وقد أفقدته نشوة النصر عناصر الاتزان وخيل إليه انه القادر على كل شيء فانهدر الى الهوة السحيقة بالسرعة التي تردى بها بل من موسولينى وهتلر . ركب الشيطان رأسه فعمد الى القتل والاغتيال ورفع المشانق واقامة المذابح ولن يستطيع تبرير موقفه بان مافعله صدر عن نوايا طيبة فقد كان كل ما يفعله طيباً مادام هو مصدره ولعل مادفعه الى الاسترسال في الغواية والضلال هو ماركب في طبيعته من حب السيطرة وكذلك ماأثارت تصرفات منافسيه داخل الصين وخارجها .

لم تقدم الدول الغربية أى عون لشيانج كاي شيك في بداية المعركة خاصة وقد كانت تتلقى أنباء خاطئة عن سير الحوادث عامى ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، فحينما بلغت اضطرابات شنغهاي غايتها من السوء ، أمضى ستانلى بولدوين رئيس وزراء بريطانيا ساعة في وزارة الخارجية البريطانية للبحث في موضوع « الموقف في الشرق الاقصى » ولم يكن بين النواب المحافظين في بريطانيا الذين لهم مصالح في الصين الا فئة قليلة تدرك أن شنغهاي عام ١٩٢٧ قد تصير الى ما صارت اليه بطرسبورج (بتروجراد أو ليننجراد فيما بعد) عام ١٩١٧ ، وأن هناك مقدمات لثورة حمراء عارمة سوف تكتسح الشرق الاقصى بأكمله .

ويقال ان بولدوين بعد أن قرأ التقارير الواردة من شنغهاي وكانتون اتجه نحو خريطة للصين معلفة في مكتب وزير الخارجية البريطانية وبعد أن ألقى نظرة على الخريطة صاح قائلاً « عجباً ، كنت أظن مدينة كانتون في شمالي الصين فاذا هي في جنوبيه » وكان بجانبه وزير خارجيته أوستن تشمبرلين الذى أضاف قائلاً :

« لابد أنك تعلم ان الصين أكبر بكثير من اليابان » .

وانما أسوق لك هذا حتى لا تدهش اذا علمت أن بريطانيا أساءت فهم الثورة الصينية كما أساءت تقديرها سواء بسواء . ولقد اتبعت بريطانيا سياستها التقليدية فحملت سفنها الحربية بالجنود ووجهتها الى الموانى الصينية بما فيها شنغهاي ولكنها وجدت أن من الخير ألا تتورط في أى اجراء عسكري ، ذلك أن السفير البريطانى الذى ابتهج بالشقاق بين كاي شيك والشيوعيين فضل الترقب والانتظار على أمل انتهاز القرصة المواتية، ومادرى « سعادته » ان هذا الشقاق أصبح من مشكلات الصين الداخلية المحضه ولا شأن للأجانب به .

بله العلاقات بين أمريكا و شيانج كاي شيك : -

لقد اندلع لهيب الثورة الصينية وعقد الصينيون الحناصر على ألا يلقوا السلاح حتى يخرج آخر أجنى من بلادهم وتستعيد عزتها وكرامتها ، ولايهم في هذا المجال الى من تسند زعامة الثورة وانما المهم هو أن تحقق هدفها .

كان الأمريكيون في البداية على شيء من حسن الادراك فاعتقدوا انهم يستطيعون السير في ركب الثورة بشرط ألا تكون زعامتها شيوعية وبذلك يحققون ما يصبون اليه من كسب مادي ، كذلك لم يجدوا حرجا في أن يكونوا بالنسبة لهذه الثورة من العاطفين وان لم يكونوا من المؤيدين . وهم في ذلك قد تجنبوا ما وقع فيه الانجليز من خطأ بالابتعاد عن شيانج كاي شيك على اعتبار أنه « شيوعي كالأخرين » وأدركت غالبية هؤلاء الأمريكيين أن شيانج كاي شيك هو أمل الأجانب الوحيد في البقاء في الصين لفترة قصيرة وليس من المستبعد أن تطول هذه الفترة . هكذا بدأت أمريكا بدهاء تقديم المعونة لمنكوبي المجاعة في الصين وترسم خطط التنظيم الزراعي . وكلما تقدم شيانج كاي شيك خطوة إلى الامام في القضاء على الشيوعيين وحل اتحادات الفلاحين ، زوده الأمريكيون المستنيرون بمشروعات جديدة للتعاون على أسس غير شيوعية .

وإذا كانت المشروعات الأمريكية لم يقدر لها النجاح فان لذلك سببين: أولهما أن أمريكا قدمت المشروعات دون أن تقدم المال اللازم لتنفيذها ولم يكن هذا المال متوافرا لدى كاي شيك ، والسبب الثاني هو أن كاي شيك نفسه لم يوجه للفلاحين اهتماما كبيرا وهو في ذلك على طرفي نقيض مع ماوتسي تونج .

لم تنتبه أمريكا لحطتها في الاحجام عن تقديم معونة مادية كبرى لشيانج كاي شيك الا بعد عشرين عاما ، وهي في هذا تقامر على جواد خاسر . وفي عام ١٩٢٧ كانت كفه كاي شيك راجحه وفي استطاعته أن يقضي نهائيا على الشيوعيين ومنظماتهم في الصين لأن الحزب الشيوعي الصيني في ذلك الحين كان متمسكا بالمذهبية الماركسية اللينينية ، يتلقى التعليمات من موسكو وينفذها مهما يكن فيها من غباوة . وكان الرأي في موسكو هو أن الثورة الشيوعية ضرب من العبث اذا لم تقم على تحالف بين العمال والطبقة المستغنية أما الفلاحون فلا أهمية لهم في الحركة الثورية وليسوا الا المطية التي تنتقل عليها الحركة في مراحل تقدمها المختلفة ، وغاب عن ادراك موسكو ان سر نجاح الثورة الحمراء في الصين ليس في أيدي هؤلاء العمال وانما هو في أيدي الفلاحين كذلك غاب عن ادراك موسكو أن الفلاحين الصينيين كان في استطاعتهم فتح باب الثورة على مصراعيه عام ١٩٢٧ بقليل من المساعدة وشيء من قوة الدفع .

لذلك نجد موسكو تصدر تعليماتها الى البروفسور تشن بان يسلم زمام الأمور الى الكومنتانج بدلا من أن يتقدم الصفوف ويتولى السلطة باسم الحزب الشيوعي ، اعتقادا منها بأن الوقت لم يحن بعد لاستيلاء الشيوعيين على السلطة وأنهم يستطيعون هدم الكومنتانج باستمرار التسلسل الى صفوفه .

ولكن مشورة موسكو على تشن بالتسليم للكومنتانج اتاحت الفرصة أمام شيانج كاي شيك لبدء مذابح الشيوعيين وكان الحزب الشيوعي

السوفييتي بذلك أشار على زميله الصيني بالانتحار ، وهذا مالا ينسأه الأحياء الذين عاصروا ماوتسي تونج في أثناء الحوادث الرهيبة ، ولما انهارت حكومه ووهان وبدأت مذابح الشيوعيين أصدرت موسكو تعليمات جديدة الى شيوعى الصين بأن « يعانلوا حتى الموت فى كل شارع » وهكذا تقع موسكو فى الخطأ للمرة الثانية اذ يفوتها ادراك أن قوة الشيوعيين الحقيقية ليست فى المدن وانما هى خارج المدن ، وكان من نتيجة هذه الأخطاء أن تأخرت ثورة الصين النهائية عشرين عاما أخرى .

حينما سمع ماوتسي تونج أنباء التعليمات الجديدة التى أصدرتها موسكو الى الحزب الشيوعى الصينى ذق رأسه بكلتا يديه ساخطا على هذا التصرف اللاحق ، كيف لا وقد ظل منذ شبابه ينادى بأن الثورة الصينية يجب أن تخرج من « حقل الأرز » لا من « المصنع » ، وليس أمام الحزب الشيوعى من أمل فى كسب معركة ١٩٢٦ - ١٩٢٧ ضد الكومنتانج الا أن يقنع الفلاحين بالقيام بثورة عارمة ، ولذلك اتصل بكل من شواين - لاي وتشو هتية قائد الجيش الأحمر الأول فأشار على شواين لاي بأن يصدر أوامره الى الجيش بالزحف على هونان بأسرع ما يمكن . ذلك أن عمال تشانج شا وقفوا ينتظرون ما يفعله الشيوعيون للانتقام لأنفسهم ممن أقاموا مذابح ١٠ أغسطس حتى اذا ما أنسوا من هؤلاء القوة انضموا اليهم ، أما الفلاحون فى اقليم هونان فكانوا فى انتظار ظهور ماوتسي تونج مرة أخرى ليقضى على البقية الباقية من ملاك الاراضى ويقسمها بينهم .

ذهب شواين لاي وتشوتيه الى رئيس اللجنة السياسية المركزية للحزب الشيوعى الصينى وطلبا منه الاذن بالزحف على هونان فرفض معتذرا بأن موسكو لم تصدر بعد تعليمات بإشراك الفلاحين فى الثورة ، وأن دور الفلاحين سوف يجرى فيما بعد حينما يستولى العمال على السلطة .

لم يقبل شواين - لاي وتشوتيه اعتذار رئيس اللجنة المركزية فزحفا بقواتهما على تشانج شا عاصمة اقليم هونان ولكنهما منيا بالهزيمة وهنا فر تشوتيه من المعركة ثم التقى بماوتسي تونج معتصبا بالجبال مع ألف من الأشداء من أبناء اقليم هونان . وفى أكتوبر سنة ١٩٢٧ رفع كل من ماوتسي - تونج وتشوتيه العلم الأحمر على مابقى من الصين خارج نفوذ الكومنتانج . وتعتبر اليوم قمة جبل تشنج كانجشا ملتقى ماو وتشو مصدر الهام للفنانين الصينيين من رسامين وحفارين وشعراء .

نعود الى شيانج كاي شيك فنجدده مطمئنا الى موقفه بعد أن قضى على فلول الشيوعيين وبعد أن جاءت التقارير من مساعديه فى جنوبى الصين ووسطها بأن الكومنتانج مسيطر على المنطقتين ، وبعد أن أعلن العمال فى المدن الكبرى ولاهم وتأييدهم « للحزب الوطنى » وفضلا عن ذلك كله فقد كان مطمئنا الى اخلاص الطبقة المتعلمة ، أما التجار ورجال الأعمال فقد انحازوا اليه لانه تعهد بحماية ممتلكاتهم من التأميم على أيدي الشيوعيين أو الاستغلال على أيدي الأجانب .

لما انس شيانج كاي شيك من نفسه القوة شرع يستعد لحملة نهائية يخضع بها جميع الصين الى سيطرته . ففي الشمال استطاعت قواته تعقب الدكتاتورين العسكريين الذين كانوا يعملون بتأييد من اليابان ، وفي ١٩٢٨ سقطت بيدين في أيدي قوات الكومنتانج بعد أن قضى اليابانيون على آخر دكتاتور وهو نشانج تسولينى اذ لم تعد لهم مصلحة في بقائه حيا . ولما استتب الأمر لشيانج كاي شيك في جميع أنحاء الصين ظلت البلاد عامين كاملين تنتظر من « القائد الأعلى » أن يفى بوعوده وقبل أن يشرع كاي شيك في أية اصلاحات داخلية توجه الى ارواح سلف أسرة منج الامبراطورية معلنا أنه سوف ينقل العاصمة من بيكين الى نانكين في مكان متوسط في الصين وعلى بعد من غزوات اليابانيين ، وفي ذلك الوقت اعترفت الدول الغربية بحكومته وتبادلت معه السفراء .

بدا أولا كان كاي شيك يسير قدما نحو تحقيق ما وعد به فوافقت كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة على الدخول في مفاوضات معه لانها امتيازاتها الخاصة في الصين، وفعلا أخذت الدول الثلاث بعض مستعمراتها في الصين ووضعت جانبها آخر منها تحت ادارة مشتركة . وهناك وزارة الخارجية الصينية تطالب بقوة بان تعود السيادة الصينية الكاملة فورا الى المؤسسات الدولية في شنغهاي وهنج كنج وواي هاي واي ، ولم يسمح الطبقات المتعلمة والتجار والعمال الا أن يهتموا بحياة شيانج كاي شيك .

ولم يقف كاي شيك عند هذا الحد ففتحت مدارس جديدة وشقت الطرق وامتد السكك الحديدية وأخذ في اعداد دستور للصين الجديدة ، وهكذا استتب الأمن واستقر النظام في الصين من بكين الى كانتون .

ولكن هناك فوق قمم جبال تشنج كانجشان جلس ماوتسى تونج وتشوتيه يخللان الموقف ويبحثان عن سبب فشلهما في السيطرة على الثورة على حين جج شيانج كاي شيك . وبعد اعمال الفكر استقر رأيهما على أن فشلهما يرجع الى موسكو ، وهنا وضع « بيانهما الشيوعى الخاص » يعارضان به البيان الشيوعى الذى أصدره كارل ماركسى وفردريك انجلز عام ١٩٤٨ وينص بيانهما على مايلي : -

تجاهل المدن - قاتل في الريف - الفلاحون أولا - العمال ثانيا - اصلح الارض وامتلكها - اترك المصانع وشأنها - جند جيشا أحمر جديدا من الفلاحين - عس في الريف حتى تكتمل ثورة الفلاحين نضجها .

هكذا شرع ماوتسى تونج وتشوتيه في العمل لتجنيد الفلاحين للعمل والقتال فبدا أولا بانشاء مزارع جماعية وجمعيات تعاونية نموذجية في المناطق الجبلية ، وكانا يهبطان الى الوديان من وقت لآخر لينشرا الدعوة ويقتلا ملاك الارض ، وكان لابد أن يثير نشاطهما الانتباه فتقاطر الفلاحون للانضمام الى صفوفهما اذ كان يكفي الفلاح وجود أية هيئة معادية لملاك الارض فينضم اليها . أما الطبقة المتعلمة فقد تجنبت ماوتسى تونج في البداية لانها اعتبرته فلاحا همجيا مثل زعيم ثورة كاي بيه وهذا مما أخل التضامن بين الطبقة المتعلمة والفلاحين ، ذلك التضامن الذى حقق لماوتسى تونج النجاح في النهاية .

ولقد فزع الروس عندما بلغتهم أنباء زعيم العصابات الشاب (ماوتسى تونج) الذى كان يضع الفلاحين فى المقام الأول بدلا من العمال متخذاً شعار الحزب الشيوعى ستارا له ، ولذلك أصدرت موسكو تعليماتها بطرد ماوتسى تونج من عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى وأصرت على أن يقدم اعتذارا عن سلوكه الخاطىء ، ولكن ماو رفض تقديم هذا الاعتذار . وفى سنة ١٩٢٩ تقرر طرد ماوتسى تونج من الحزب الشيوعى الصينى وهذه تعتبر من أكبر أخطاء الكومنترن .

لم يهتم ماو بقرار الطرد كما أن أصدقاءه لم يعترفوا بهذا القرار ، ولم يكن ذلك منهم عدم اكتراث بالمكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى أو الحزب الشيوعى السوفيتى ولكن لأنهم يرون أن قرار طرد ماو صدر دون حضوره ، وأن اللجنة المركزية أصدرت القرار فى كانتون فى حين كان ماو معتصما بالجبال .

لقد نما الجيش الجديد الذى جنده ماوتسى تونج وتشوتيه وأخذ يغير على المناطق المجاورة من وقت لآخر ليقتل ملاك الأراضى ويحل محلهم مزارع تعاونية تقوم على حراستها حاميات قوية أطلق عليها اسم «القواعد الثورية» .

وفى عام ١٩٢٩ قاد ماو حملة الى جنوبى اقليم كيانجسى وغربى اقليم فوكين حيث أسس القاعدة الثورية الرئيسية . ولم تأت بداية عام ١٩٣٠ حتى كان لديه خمس عشرة قاعدة يقوم على حراستها جيش أحمر قوامه ستون ألف رجل ، وقد ظلت هذه القواعد الثورية نموذجا للتعاون بين الجند والفلاحين حتى تم استسلام الكومنتانج عام ١٩٤٩ .

سمع شيانج كاي شيك أنباء هذا الجيش الأحمر بمزيج من الغضب والانكار ذلك أنه كان يعلم بوجود ماوتسى تونج ولكنه كان يعتبره رجلا خارجا على القانون لا أهمية له ، أما أن يصبح لدى ماو جيش مكون من ستين ألف جندي يؤيدهم مليونان من الفلاحين فهذا أمر يستحق إعادة النظر . ومن ناحية أخرى علم شيانج كاي شيك بأن اليابانيين يستعدون لحرب هجومية على منشوريا قد تتطور الى غزو الصين نفسها ، وعليه قبل مواجهة اليابانيين أن يقضى على الشيوعيين أولا . هكذا ترك شيانج كاي شيك اليابانيين يتوغلون داخل أراضى الصين طوال الأعوام الستة التالية بينما هو مشغول بمحاربة الشيوعيين . وقد اجتاحت ثلاث مجاعات متتالية شمالي الاقليم فى هذه الأعوام الستة ولم يستطع كاي شيك تقديم المؤن والاسعافات اللازمة لمنكوبى المجاعة لانهماكه فى قتال الشيوعيين ، أو لأنه كان يأمل اضعاف حكام المناطق الشمالية الغربية للصين حتى لا ينافسوه فى السيطرة على البلاد . ومهما كانت الدوافع فان كاي شيك عبأ كل طاقات الاقتصاد الصينى لمحاربة الشيوعيين وتعقبهم فيما تلا ذلك من سنوات حتى دارت عليه الدائرة وخرج هو من الصين مدحورا . ما كان ماوتسى - تونج يخشى هجوما مضادا من الكومنتانج ، فان ما حققه من إعادة تنظيم الانتاج فى المناطق الزراعية التى استطاع الوصول اليها وإقامة حاميات بتلك المناطق أكسبت حكومة «العمال والفلاحين» التى أنشأها تأييدا شعبيا واسعا ، فلم يكن بين رجاله طابور خامس ، ولم

يقتصر الأمر على اشراك الفلاحين قلبيا في التجارب الجديدة للملكية الأرض
بل ان صغار أصحاب الأعمال وصغار أصحاب المصانع اقبلوا على الانضمام
تحت لواء حزبه .

لقد ألغيت كل الديون والضرائب التي سبق ان النزم بها الفلاحون
وصغار المنتجين للحكومة المركزية في تانكنج وبدأ الجميع علاقات جديدة
مع حكومة ماوتسي-تونج . أما من الناحية الاستراتيجية فقد كان معتصما
بمنطقة جبلية ولن يستطيع أعظم قواد حرب العصابات عبقرية أن يفتح
عليه عرينه في الجبال ، فهي سلسلة جدياء وعرة تمتد أكثر من مائة ميل
على طول خط الحدود بين اقليمى هونان وكيانجسى وليس بها الا خمسة
ممرات ضيقة ياقى المهاجم حتفه اذا عن له محاولة اجتياز هذه الممرات .

ولكن وعورة المنطقة وصعوبة الوصول اليها جعلها منسككة التموين
غاية في التعقيد ، فالأدوات الطبية تكاد تكون في حكم العدم ولذلك أخذ
ماوتسي تونج يعود نفسه على العلاج بمعجون الأعشاب والمساحيق التي
يعدها الفلاحون والتي لا تزال تنافس البنسلين في الصيدليات في وقتنا
الحاضر ، أما المواد الغذائية فكان ينقلها الحمالون على ظهورهم من أسفل
الوادي الى قمم الجبال ، وكل ما يمكن تجفيفه وتعليقه وتلخينه وضع في
المخازن استعدادا لمواجهة حصار محتمل ، وأخذ الجنود في تربيته الماعز
والخنازير فوق الجبال متحملين الرائحة الكريهة في سبيل جرعة من
اللبن أو شريحة من اللحم بين آونة وأخرى . وبرغم كل هذه المشاق فقد
كانت الروح المعنوية عالية والأسلحة على درجة طيبة من الصيانة وان
كانت غالبيتها من الصنف العتيق . ولقد بدأ شيانج كاي شيك أولى
حملاته لتطويق الثوار في نوفمبر ١٩٣٠ ، وكانت هذه الحملة تضم مائة
ألف من الجند الأقوياء ووجهتها القاعدة الثورية المركزية في جدى تشن
أما حامية القاعدة فكان تعدادها أربعين ألفا من الثوار تحت قيادة تشوتيه .
ولما سمع ماوتسي - تونج بأن قوات كاي شيك تحاصر القاعدة الثورية
الرئيسية انتقى تسعة آلاف من خيرة جنده وكون منهم فرقة فدائيين قادها
بنفسه وفاجأ بها العدو فاخترق صفوفه تحت جنح الظلام ، ولم يسع جنود
كاي شيك التي أذهلتها المفاجأة الا أن تولى الادبار ، وهكذا فشلت حملة
التطويق الأولى .

وفي فبراير ١٩٣١ ضاعف كاي شيك قواته في هونان فبلغت مائتي
ألف وبدأ حملة التطويق الثانية ، ولقد ارتكب جنسوده خطأ فاحشا إذ
هاجموا الفلاحين في القاعدة الثورية على اعتبار أنهم متضامنون مع قوات
ماوتسي تونج المسلحة ، وهذا الخطأ كلف كاي شيك كسيرا فقد وجدت
قواته جيشا غير مسلح من الفلاحين يعترض سبيلها ويرهقها كلما توقفت
قليلا لاعادة التنظيم ، ولم ينته شهر ابريل حتى كانت كل منطقة الحدود
بين اقليمى كيانجسى وفوكينى في ثورة صريحة ضد قوات كاي شيك على
الرغم من أن هذه القوات لم تكن قد التقت بقوات الثوار حتى ذلك الحين .

وفي شهر مايو ظهر ماوتسي تونج بقواته فطرد حملة شيانج كاي
شيك التي أنهكها التعب مسافة مائتي ميل في فترة لا تزيد عن أربعة
عشر يوما .

ولقد وهنت عزائم جنود كاي شيك وفقدوا روحهم المعنوية فولوا
الأدبار متجهين نحو الشرق طلبا للنجاة . ولما بلغت أنباء هذا الإذلال
مسامع شيانج كاي شيك فى نانكينج اتصل من فوره بالمفوضيات
البريطانية والألمانية واليابانية واقترح على ممثلى الدول الثلاث « القيام
بحملة دولية مشتركة للقضاء على الشيوعيين » .

ولكن هؤلاء الممثلين قابلوا اقتراحه بفتسور ولم يقدموا له الا بعض
الخبراء العسكريين الذين لم تشترك غالبيتهم فى حروب العصابات أو فى
العمليات الحربية فى الجبال ، ولا يستثنى من هؤلاء الا المستشار
العسكرى البريطانى الذى اكتسب خبرة واسعة فى الحروب الجبلية فى أثناء
خدمته بالهند غير أن مخابرات كاي شيك كانت من الضعف بحيث لم يجد
أية ثمرة من خبرة هذا الضابط البريطانى .

وفى حملة التطويق الثالثة ألقى شيانج كاي شيك فى الميدان
بثلاثمائة وعشرين ألف جندى وقد حاولت قواته الهجوم فى جبهة عريضة
على طول حدود اقليم كيانجسى ولكنها منيت بالهزيمة . وقامت محاولة
أخرى للتسلل عبر الممرات الجبلية الى حيث معاقل الثوار فلقى المتسللون
مصرعهم ، وبذلت هذه القوات جهودا يائسة فى القتال عند هسنگكو
ولكنها ارتدت بعسء أن خلفت وراءها ثلاثين ألفا من القتلى فى الميدان .
وأخيرا يئس شيانج كاي شيك من اخضاع الثوار بالقوة فأخذ يدبر خطة
أخرى للقضاء على جمهورية « العمال والفلاحين » المثيرة للسخرة فى نظره
التي أنشأها ماوتسى تونج .

وبعد حملة التطويق الثالثة بعث المستشار العسكرى اليابانى للحملة
تقريراً الى حكومة طوكيو ينبئها ان قوات شيانج كاي شيك بلغت من
العجز درجة لا تستطيع معها التغلب على «عصابات» ماوتسى تونج ، فكيف
إذا تعرضت لهجوم الجيش اليابانى ، وشجع هذا التقرير اليابان
فشنت هجوما مفاجئا على الحامية الصينية فى مكدن فى ١٨ من سبتمبر
١٩٣١ ، وكان هذا الهجوم المفاجئ بداية الحرب الصينية اليابانية التى
ظلت نيرانها تشتعل طوال أربعة عشر عاما .

ولما بلغت أنباء الهجوم اليابانى مسامع شيانج كاي شيك علق على
الحادث قائلا : « لو صح ما سمعت فانى أفضل أن يغزو اليابانيون
الصين بدلا من أن يسيطر عليها الشيوعيون » . وما كان هذا التعليق
ليحبه الى نفوس مؤيديه من الوطنيين .

وفى ١٩ سبتمبر أصدر أمره الى قواته بأن تقاوم اليابانيين مقاومة
صورية ثم تنسحب الى خطوط دفاع قوية فى الجنوب . كان هذا الاجراء
سليما من الناحية الاستراتيجية ولكنه كان تصرفا أخرق من الناحية
السياسية ، فما ان بدأ انسحاب قوات شيانج كاي شيك حتى أصدر
الحزب الشيوعى الصينى بيانا دعا فيه الى تعبئة الشعب الصينى بأجمعه
لمعركة ضد القوى الاستعمارية فى شمال شرقى الصين . وهذه مهارة
سياسية من الشيوعيين أكسبتهم تقدير الرأى العام الصينى وان كانت
عديمة الجدوى من الناحية العسكرية لأن أقصى القوات الشيوعية شمالا
كانت على بعد مائة ميل من الوحدات اليابانية الزاحفة .

وفى ١٠ من أكتوبر ١٩٣١ أدرك شيانج كاي شيك خطاه السياسى اذ بدأ التصريح الشيوعى يعمل عمله فى نفوس الشعب الصينى فقامت مظاهرات صاخبة فى العيد السنوى العشرين لثورة الصينيه « ثورة ١٩١١ » وطالب المتظاهرون فى حماسة بتعبئة القوى الشعبيه لطرد اليابانيين من البلاد . ولم تكن الدعوة الى محاربة اليابان فى هذه المرة مقصورة على منظمات العمال التى يحركها الشيوعيون بل انضم الى فرق المتطوعين لمحاربة اليابان الطلبة والمنظمات السياسيه الصينيه وأخيرا المجتمع الصينى على اختلاف طبقاته . لا بل ان رجال الأعمال والتجار الصينيين فى المدن الكبرى تجاھلوا تعليمات الكومنتانج وبدءوا مقاطعة البضائع اليابانيه وأعلنوا تصميمهم على قطع كل علاقة تجارية لهم مع اليابان فورا .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فالصحف التى درجت على تأييد كاي شيك والدعاية للكومنتانج أخذت تستحث القائد الأعلى على الأيضيع الوقت والمال فى محاولة القضاء على « العصابات » وأن يركز جهوده فى توحيد البلاد ضد اليابان .

وفى ٤ من نوفمبر خرج ثلاثون ألف طالب فى مظاهرة بمدينة نانكينج عاصمة الكومنتانج وهذا أول مظهر لتخلى الطبقات المتعلمة الصينيه عن شيانج كاي شيك . ومن سوء طالع ان البوليس واجه مظاهرات المتعلمين الصينيين بقسوة ووحشية جعلت الناجين منهم يفرون وثبا فوق جثث قتلاهم .

لقد انتشرت الاضرابات فى جميع أنحاء الصين ولم يكتف العمال فى شمال الصين بالتخلى عن أعمالهم ، بل انهم تسلحوا واعتصموا بالمرتفعات، وأخذوا يشنون حرب العصابات على الجيش اليابانى من كل جانب .

ولما تقدم اليابانيون جنوبا نحو شنغهاى تكون فى مؤخرتهم جيش من المتطوعين قوامه ثلاثمائة ألف من الرجال والنساء وأخذ يرهق اليابانيين ويقطع خطوط تموينهم .

لم تكن هذه القوة من الشيوعيين ومع ذلك فلاسباب غامضة ، رفض كاي شيك أن يزودها بالضباط أو السلاح حتى اضطرت الى الارتداد نحو الحقول ووقفت تنتظر قدوم الشيوعيين .

وفى ٢٨ من مارس سنة ١٩٣٢ كانت القوات اليابانية على مشارف شنغهاى وأعان القائد اليابانى فى زهو آن فى استطاعته الاستيلاء على المدينة فيما لايزيد على أربع ساعات ، ولم يكن هذا رايه وحده وانما شاركه فيه كل المراقبين الأجانب الذين شهدوا المعركة . ولشد ما دهش الجميع حينما هبت الحامية الصينيه فى المدينة للدفاع عنها واستطاعت طرد اليابانيين من شنغهاى وتتبعهم حتى مصب نهر يانجتسى ، ولم تكن الحامية الصينيه وحدها فى المعركة بل ان جميع السكان من الصينيين وقفوا من ورائها صفوفًا متراسة ذودا عن أرض الوطن ضد العدو الأجنبى ، وبادر الصينيون فى الخارج بارسال الأغذية والمال بأقصى سرعة ممكنة ، وأنشأ الطلبة ورجال الأعمال

مستشفيات الطوارئ ومخازن التموين مما أذهل اليابانيين وجعلهم يقفون حيارى لا يدركون تفسيراً لهذه الحماسة الوطنية ، فما كان يدور بخلد أحد أن في استطاعة الصينيين أن يقدموا للمعركة قوات على هذه الدرجة من الكفاية .

إزاء هذه المفاجأة العسكرية الصينية اضطرت اليابان إلى تعبئة ثلث قواتها البرية والبحرية بعد أن أيقنت أن غزو الصين ليس بالسهولة التي تصورتها من قبل ، وأرسلت امدادات هائلة إلى القوات الغازية في شنغهاي وغمرت الفيادة أربع مرات في عدد قليل من الأسابيع ، كل ذلك على أمل أن تجد سبيلاً للاستيلاء النهائي على المدينة . وأخيراً ارتدت القوات الصينية المدافعة عن المدينة بعد أن خسرت ٤٢ ألفاً بين قتيل وجريح .

وفي يوم ٥ من مايو وقع الكومنتانج معاهدة صلح مع اليابان في شنغهاي ونصت المعاهدة على تحريم اقتراب أي قوات صينية من المدينة وأن تكون حاميتها في المستقبل من اليابانيين وتعهد شيانج كاي شيك بإيقاف جميع أنواع النشاط المعادي لليابان على أرض الصين .

وفي يونيو سنة ١٩٣٢ أجرى ماوتسي تونج أول انتخابات في إقليم كيانجسي لإنشاء مجلس السوفيت الاقليمي ، وانتخب هو رئيس المجلس التنفيذي لحكومة العمال والفلاحين .

وفي ١٠ من أغسطس أعلن ماوتسي تونج الحرب على اليابان باسم حكومته الجديدة .

لقد ضاق اليابانيون بهذا الاعلان أشد مما ضاق به شيانج كاي شيك وكلف القائد العام الياباني شيانج كاي شيك أن يلتزم بشروط معاهدة الصلح المعقودة في شنغهاي ويقضى على العصابات مهما كلفه ذلك من مال أو رجال أو عتاد .

وفي أواخر يونيو عبأ كاي شيك نصف مليون جندي لمهاجمة الثوار ولكن حملته باءت بالفشل واضطر إلى الرجوع لليابانيين ليثيروا عليه بما يجب عمله ، وقد أشار عليه هؤلاء بأن الوسيلة الوحيدة لهزيمة الثوار هي إيقاف حملاته على معاقل الثوار في الجبال ومحاصرة المنطقة حتى يموت هؤلاء الثوار جوعاً .

هكذا نجد أنه في خريف ١٩٣٢ ضرب حصار كامل حول إقليم كيانجسي فأخذ ماوتسي يعيد تنظيم الاقليم لمواجهة الحصار وهنا يقول ماو « كان أول اجراء اقتصادي اتخذناه لمقاومة الحصار هو العمل على زيادة الانتاج الزراعي أما الفلاحون الذين لم يكونوا قد انضموا بعد إلى المزارع الجماعية فقد أعيد تنظيمهم في فرق للعون المتبادل وفرق لفلاحة الأرض ، ونظمت جمعية تعاونية جديدة لثيران جر المركبات وغيرها من الحيوانات وكان من شأن هذا النظام التعاوني أن تكلف أسر معينة مهمة التضامن في توفير الغذاء لهذه الحيوانات وهكذا أصبحنا مستقلين استقلالاً كاملاً عن العالم الخارجي . ولقد أنشأنا صناعات محلية للورق والغزل والنسيج وتكرير السكر والتعدين وصناعة الأدوات الزراعية . »

هكذا سارت الحياة هينة في جمهورية كيانجسى الصغيرة كما لو ان الحصار الذى فرضه كاي شيك لوجود له ، وان ماو حريصا على المحافظة على مستوى المعيشة بين السكان المدنيين فى القواعد الثورية ليضمن ولاءهم المستمر ولاول مرة فى تاريخ الصين يجد المعوزون مايكفيهم من غذاء مع توافر اسباب الأمن والمحافظة على الحياة . ولم يعجز ماوتسى تونج عن تزويد جيشه بقوات جديدة من المجندين وكانت طريقته فى ذلك أن يقوم بجولة فى المزارع التعاونية ثم يشير اشارة عابرة الى أن لديه كمية من البنادق المسروقة وأنه فى حاجة الى انشاء كتيبة جديدة لتحمى مؤخرة جيشه وهنا يبادر الفلاحون بتقديم أنفسهم للتجنيد ، حتى أنه فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ كان جيش ماو يضم ٨٦ ٪ من أبناء منطقة شانجهانج وحدها ما بين رجل وامرأة .

وانتشرت المدارس فى جمهورية ماوتسى تونج الصغيرة وأنشأ ماو بنفسه جريدة أخذ ينشر فيها أشعاره وأوامره اليومية . وأنشأ فريق من الطلبة مدرسة لتعليم فن التمثيل أطلقوا عليها اسم مدرسة جوركى وقد خرجت أكثر من ألف ممثل وممثلة أخذوا يطوفون بلاد الاقليم لعرض مسرحياتهم كما دربوا الفلاحين على اعداد المسرحيات وعرضها . كل هذا حدث فى جمهورية ماوتسى تونج الصغيرة التى تحاصرها قوات الحكومة الشرعية من كل جانب ولا يعترف بها العالم الخارجى . أما الاتحاد السوفيتى فقد كان لا يزال مرتبطا بالحزب الشيوعى الصينى الذى أصدر قرارا بطرد ماوتسى تونج من عضويته . وكان هذا الحزب الشيوعى الصينى قد أصبح أقلية ضئيلة مكونة من المكتب السياسى فقط واقتصرت مهمته على اصدار نشرات عن المذهب الماركسى ، وانقطع كل اتصال بينه وبين الشعب الصينى ، حتى مع العمال الذين يعنى بهم الكومنترن كل العناية .

وفى فبراير سنة ١٩٣٣ استأنف اليابانيون عدوانهم على الصين فهاجموا جيهول وزحفوا متجهين نحو بيكين وتينتنسن ، وقد لاحظ المراقبون الاجانب ان قوات الكومنتانج كانت تفوق القوات اليابانية الغازية بنسبة ١٠ : ١ ولو كان لدى قوات الكومنتانج من الكفاية العسكرية نصف ما كان لدى حايه شنغهاى التى صدت اليابانيين اذا لاستطاعت صد هذه القوات اليابانية المعتدية دون عناء . ولامر ما أصدر شيانج كاي شيك أوامره الى جنوده بالانسحاب من ميدان القتال وحظر عليها ابداء أى مقاومة . بل أنه فى الواقع رفض الاعتراف بأن اليابانيين الغزاة من الاعداء . وفى مايو سنة ١٩٣٣ وقع اتفاقية تانجكو التى بمقتضاها ضمنت اليابان سيادتها على الاقاليم الثلاثة الواقعة فى شمال شرقى الصين فى مقابل اخلاء هوبيه وبذلك سقط سور الصين العظيم فى أيدي اليابانيين .

ولا يذرى أحد ما كان يجول بخاطر كاي شيك حينما قبل توقيع هذا الاتفاق ولكن أصدقاءه عللوا أنفسهم بأنه قد يكون من وراء ذلك كسب للصين .

وفى يونيو سنة ١٩٣٣ زحف اليابانيون على اقليم شهاار وأصدر كاي شيك أوامره لجنوده مرة أخرى بأن يمتنعوا عن القتال ولكن طفح الكيل ولم يعد فى طوق قوات الكومنتانج أن ينفذوا الأمر بالارتداد ، فنظموا قوة

أطلقوا عليها اسم « القوات الشعبية المتحالفة لمقاومة اليابان » واستطاعوا في يوم واحد أن يطردوا اليابانيين من إقليم شاهاار . وفي الوقت نفسه أعلن الجيش التاسع عشر الذي اشتهر بأعمال البطولة في شنغهاي والذي كان مشتركاً حينذاك في محاصرة جمهورية ماوتسى تونج، عزمه على فض الحصار وإنشاء حكومة خاصة به في إقليم فوكي . وصرح زعماء هذه الحركة بأنهم لا يرغبون في خدمة ماو أو الاشتراك معه في الحكم ولكنهم في الوقت نفسه أعلنوا تصميمهم على القتال بجانب قوات ماو ضد اليابانيين .

أما شيانج كاي شيك فكان في واد والشعب الصيني في واد آخر ، وكانت وجهته إعداد حملة جديدة ضد الشيوعيين الصينيين لا ضد اليابانيين وأبلغ قواده أنه سوف يستعين في هذه الحملة بالقوات اليابانية . كذلك صرح كاي شيك بأنه قد « أجر » شمالي الصين لليابانيين في مقابل مساعدتهم له وهنا استدرك قائلاً : « إذا ما انتهينسا من الشيوعيين نوجه ضرباتنا لليابانيين » .

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٣ بدأت قوات شيانج كاي شيك المحاصرة لجمهورية ماوتسى تونج زحفها على الإقليم وقد بلغت هذه القوات مليوناً من الرجال الأشداء المسلحين تسليحاً جيداً وعلى نسبة عالية من التدريب . وفضلاً عن ذلك فقد كان لدى هذه القوات الزاحفة عدد كبير من الخبراء العسكريين الألمان والأمريكيين واليابانيين والفرنسيين . والغريب في الأمر أن بريطانيا لم تشترك في هذه المناورة المخزية .

سارت الحملة في ببطء وحذر شديد وذلك كي تكون قبضتها قوية على كل شبر من الأرض تطؤه أقدام الجند ، وكان الهدف هو تضيق الحناق على جيش ماوتسى تونج المعتصم بالجبال .

وأخذ ماو يرقب هذا الزحف البطيء في غير مأجزع ذلك لتقديره أن القوات الزاحفة لن تستطيع بلوغ القاعدة الرئيسية لقواته إلا بعد عام، كما أنها مع هذه الدرجة من الزحف البطيء لن تستطيع بلوغ مخبئه قبل خمس سنوات .

وكان من رأى ماوتسى تونج اغراء القوات الزاحفة بالتقدم في الجبال ثم الانقضاض عليها حينما تحين فرصة مواتية ولكن بعض قواده ومنهم ينج تيه هواي خالفوا رأيه وأصرروا على الدفاع السلبي . ولقد ظل ماو عاماً كاملاً يحاول اقناع معارضيه بفساد خططهم وأخيراً اقتنعوا بفكرته وبدأت سلسلة من الانتصارات .

وفي ١١ من أكتوبر سنة ١٩٣٤ توجه تشوتيه وشواين - لاي الى الكهف الذي يقيم به ماوتسى تونج لتقديم تقريرهما الشهري له . وكان ماو جالساً على الأرض يذر الفلفل الأحمر على وعاء من الأرز المطهو وبجانبه زوجته الجديدة .

وقد جلس تشوتيه وشواين لاي بجانبه على الأرض وسلماه التقرير ومعه قائمة بالمصابين والمجندين الجدد . أطلع ماو على التقرير ثم استأنف وجبته المفضلة بعد أن اطمأن الى حاله قواته المسلحة . حقيقة أن عدد

المجندين الجدد في تناقص ولكن لا يزال لديه احتياطي كبير . والقَتلى بين قواته لم يتجاوزوا عشرة آلاف بين رجل وامرأة وإذا فلا يزال لديه سبعون ألف رجل على أتم صلاحية لخوض المعارك .

وقد ظل شواين لاى صامتا حتى انتهى ماو من طعامه فقال له : -

« ان المؤن كادت تنفذ وليس لدينا منها مايكفيها حتى أواخر الشتاء . اما الذخيرة فما لدينا منها يكاد لا يكفي هجوما كبيرا هذا الى جانب أن المؤن لم تعد تصلنا من الخارج ، كما أنه ليس في استطاعتنا نحن أن نخرج من معاقلنا في الجبال لنحصل على ما نحتاج اليه من المؤن .

وهنا نظر اليه ماوتسى تونج مبتسما ثم اذعننى على الارض ورسم خريطة على أرض الكهف ، ثم اُردف قائلا : -

« لقد صممت على الخروج من هذا المعقل ، وليس في الدنيا مستحيل » .

ثم أشار الى مكان على الخريطة ومضى يقول : -

« فى هذا المكان يمر جبل ومركز قوات الكومنتانج فيه ضعيف . لقد أعبى شيانج كاي شيك كثيرا من ضباطه الذين توجهوا لمحاربة اليابانيين وهذا ترك أثرا سيئا فى نفوس جنودهم .

« من هنا نستطيع فك الحصار .

« سوف نتجه الى المرتفعات فى الشمال فيما وراء النهر الأصفر فهناك الخط الامامى للمعركة . هناك اليابانيون ولكن كاي شيك ليس لديه أصدقاء فى اقليم شنسى . سوف نحصل على الطعام ونواصل القتال ، بل سوف نحصل على المؤن من اليابانيين أنفسهم » .

هنا نظر شووتيه الى الخريطة محملا ثم اتجه ببصره الى ماو قائلا : -

« ان بيننا وبين شنسى ستة آلاف ميل ، فكيف نستطيع الوصول اليها ؟ »

هنا انتصب ماوتسى تونج قائما ورسم بقلمه خطا على الشراب ثم قال : -

« نذهب سيرا على الأقدام » .

الفصل السادس

لقد كان « الزحف الطويل » لجيش ماوتسي تونج الثوري من أعظم الأعمال الباهرة التي تحققت في القرن العشرين، فقد استطاع ماو أن ينقل جمهوريته الجديدة بكامل هيئتها من مدينتين وعسكريين من الأطراف الجنوبية للصين الوسطى إلى أقصى شمال الصين وهي مسافة لا تقل عن ستة آلاف ميل ، سيرا على الأقدام ، في مناطق معادية وتحت تهديد قوات شيانج كاي شيك التي تفوقها عددا وقوة بمراحل كثيرة . ويرجع نجاحه في تحقيق هذه المغامرة الهائلة إلى ما حبته به الطبيعة من قدرة فائقة على الزعامة ، وقدرة أخرى لا تقل عنها قوة على بث روح الولاء والاخلاص بين أنصاره ومؤيديه .

في ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٤ غادرت القوات الرئيسية للجيش الثوري التي تبلغ خمسين ألف جندي قواعد الثورية في إقليم كيانجسى وتسللت عن طريق الوديان الجبلية من وراء حرس شيانج كاي شيك وهم نيام في ثكناتهم خارج حدود جوى تشن . كان هذا الجيش الثوري خليطا غريبا من الرجال والنساء قل أن ظهر بينهم الزى العسكري لعدم توافره ، أما أسلحة هذا الجيش فهي في تنوعها وتباينها أشد عجبا من هيكل الجيش نفسه ، فهي بين بندقية أمريكية أو بريطانية اختطفت من جنود كاي شيك أو مجموعة من المدافع السريعة الروسية ، بعضها صالح للعمل والبعض الآخر غير صالح ، أو سيف أو منجل أو سكين أو خفاف مشدود إلى عصا ، كانت رهوس بعض الجند معصوبة بلحائف من القماش وقد تجمد عليها الدم من آثار الجروح ، ولكن الجيش زحف في صمت ، وليس بين أفراد من يشكو .

وبعد أن تسللت القوات الرئيسية عبر الوديان استيقظ حرس كاي شيك من نومهم فهاجمتهم مؤخرة الجيش الثوري وبدأت معركة بينهما انتهت بفناء الطرفين .

ودع ماوتسي تونج مسقط رأسه الذي لم يره بعد ذلك إلا بعد أن أصبح الجزء الأكبر من الصين في قبضته ، وسار الجيش الثوري بسرعة تتضاءل بجانبها سرعة جيش هانيبال في زحفه على روما ، وكلما مر بقرية علاهتاف الفلاحين بالهتاف والترحيب .

وكلما سمع كاي شيك بمرور الجيش الثوري في منطقة عجل بإرسال قواته لصد هذا الجيش ولكن أي له ذلك وقد أجمع سكان المنطقة على إخفاء أنباء الزحف عن كاي شيك ورجاله . ولما يئس « القائد الأعظم » من العثور على الجيش الزاحف أصدر بيانات متتالية يعلن فيها أن قوات الثوار قد تبذرت تحت تأثير الهجمات المشتركة لجنوده وكذلك تحت تأثير التعب والجوع والعوامل الجوية ، وظل كاي شيك يصدر نشرات بهذا المعنى طوال الاثني عشر شهرا التالية .

وفى ٢٠ من ديسمبر وصلت قوات ماوتسى تونج الى وادى نهر
ووكيانج وهناك وجدت امامها حامية قوية من قوات الكومنتانج معسكرة
على شاطئ النهر .

استعرض ماو قواته فوجد انها قد فقدت فى المرحلة الاولى من الزحف
سبعة آلاف جندي وأن الباقين قد أخذ منهم التعب والجوع كل ماخذ .
وهنا حاول بعض مساعديه ان يثنوه عن مواصلة الزحف حتى ينتهى فصل
الشتاء ولكن ماو رد عليهم قائلا: « لا رجعة الى الوراء ، وليمت من بيننا
من يمت ، ولكنه سوف يموت بطلا » . وتقدم الجيش الثورى الزاحف
وبدأت المعركة مع قوات الكومنتانج المزودة بأحدث الأسلحة وسقط فى
المعركة ثلاثة عشر ألفا من الطرفين ، وانتصر الجيش الزاحف بعد أن حطم
الروح المعنوية بين قوات الكومنتانج .

وحيثما بلغ الجيش الثورى الزاحف تسوينى فى اقليم سزشوان
توقف قليلا للراحة وهنا عقد ماوتسى تونج مجلسا ثوريا شكله من قواده
ومن أعضاء المكتب السياسى لحكومته واقترح على المجلس الاتجاه غربا
نحو حدود التبت مما أثار ذهول مستمعيه دهشة واستنكارا ، ولما نظر
ماو الى الوجوه الشاحبة والنظرات الزائفة من حوله اتجه الى شرفة السرادق
وحده . وبعد قليل لحق به شواين لاي ليقول : « لقد قررنا جميعا
التوجه الى التبت » .

ابتسم ماو فى اعياء وعاد الى صحبه . لقد ثبت مركزه فى الزعامة ،
ومادام المكتب السياسى قد أيد زعامته للحزب الشيوعى فى الصين فلا بد
أن توافق موسكو من جانبها على ذلك . وعلى فرض أن هناك عقبات
لا يدركها فهو لن يعبا بشئ هناك الآن من ينازعه السلطة واذا سارت
الأمور فى مجاريها فسوف يصبح يوما ما صاحب الكلمة الاولى فى الصين .

دخل ماو الى حيث توجد زوجته الثانية فوجدها تحتضر بسبب
الاعياء وقسوة العيش ولم تمض سويعات حتى توفيت . وبعد قليل تقدم
ماو بجيشه نحو اقليم يونان .

يقع اقليم يونان فى الطرف الجنوبي الغربى للصين وهو اسما جزء
من الصين واذا فهو يدين بالولاء للكومنتانج ولو بصفة شكلية . وكان
يحكمه مندوب من الكومنتانج واثنان من زعماء العصابات ، هما تشانج
ولونج . وكان كل مواطن فى يونان ينتمى الى احدى العصابات ، وقد
يرتفع شأن زعيم احدى العصابات فيصبح حاكما أو مندوبا للكومنتانج أو
ثريا يعيش فى بذخ على ما نهبه من أموال . والزراعة الوحيدة الهامة هى
زراعة الخشخاش لاستخراج الأفيون . ولقد استطاع ماوتسى تونج ان
يتخذ من رجال العصابات فى يونان أعوانا له يحمونه من الغارات المحلية
ويرشدونه الى المسالك الجبلية فى أثناء الزحف . وهكذا نجده يواصل
السير شمالا متخذنا من رجال العصابات طليعة ومؤخرة لجيشه .

وحيثما وصلت القوات الثورية الزاحفة الى نهر تانغ اعترضها كوبرى
يربط جانبي النهر وكان على الشاطئ المقابل حامية قوية من جنود
الكومنتانج وهنا قام الجيش الثورى بعمل قد يعتبر بطولة جنونية ، ذلك

ان جند ماو اندفعوا عبر الكوبرى تحت وايل من رصاص الكومنتانج، وعلى الرغم من أن أعدادا كبيرة منهم كانت تتساقط صرعى تحت نيران المدافع فقد استطاع أربعة وعشرون ألفا منهم أن ينتقلوا الى الشاطئ المقابل ، ولقد أذهلت هذه البطولة جنود الكومنتانج قولوا الأذبار .

أكمل ماو ورجاله الزحف فوق قمم الجبال وبين المستنقعات وهم يقتاتون بالأعشاب وبما يقدمه لهم أهل الريف من حيوان الياك حتى بلغوا اقليم شنسى وخطوا الرحال فى مدينة ووتشى تشن حيث التقت بهم بقية فرق الجيش الثورى .

لقد بدأ ماوتسى تونج زحفه التاريخى بخمسين ألفا من الأشداء وما أن وصل نهاية المرحلة حتى بقى لديه خمسة عشر ألفا فقط ، أما النساء فلم يبق منهن الا تسع فقط .

لقد كان هذا الزحف أكبر دعاية لماوتسى تونج فقد مرت القوات الزاحفة بأحد عشر اقليما صينيا يقطنها مائتا مليون نفس وامتدت موجة الدعاية من اقليمى كوانتونج وكوانج سى فى أقصى جنوبى الصين الى اقليم شنسى فى أقصى الشمال .

ولما استقر ماوتسى تونج آمنا فى اقليم شنسى بدأ ينشئ أول مجلس سوفيتى، وفى أواخر عام ١٩٣٥ أعلن مدينة باو أون عاصمة لحكومته الجديدة فى الشمال ولقد أحبه الفلاحون فى اقليمه الجديد حبا جما ، بل انه كان يبدو فى أوائل شتاء هذا العام أن الصين كلها ليس أحب الى قلبها من الثلاثى المظفر ماوتسى تونج وشواين لاي وتشوتيه .

بدأ تشوتيه يدرب البقية الباقية من الجيش الثورى بمساعدة لينى بياو الذى أصبح فيما بعد أكبر خبير عالمى فى حرب العصابات ، وفى ٥ من ديسمبر ١٩٣٥ افتتحا كلية عسكرية تتسع لثمانمائة طالب ، وكان الهدف من انشاء الكلية هو تدريب فئة من الضباط استعدادا للمعركة التالية ضد قوات الكومنتانج .

أما مهمة شواين لاي فى الحكومة الجديدة فهي التمويل ، ولقد استطاع أن يملأ الكهوف بالكرب والدخن والأعشاب ، كذلك نيط به محاولة ضم تشانج هسوى ليانج ابن الدكتاتور العسكرى السابق تشانج تسولينى الى صفوف الثوار على الرغم من أنه كان فى ذلك الوقت قائدا عاما لقوات الكومنتانج فى شمال شرقى الصين .

كان ماوتسى تونج رئيس الحكومة الجديدة يسكن فى كهف حجرى مكون من حجرة واحدة ذات منفذ واحد . ولم يكن يقف على حراسة هذا الرئيس غير جندى واحد ، وكان فى استطاعة هذا الجندى أن يصوب بندقيته فى أثناء الليل الى رأس ماوتسى تونج فيرديه قتيلا وبذلك يتسلم من حكومة شيانج كاي شيك ربع مليون دولار ثمنا لرأس «زعيم العصابات الثائر على حكومة الصين الشرعية» .

وهكذا أخذ زعماء الحكومة الجديدة يستعدون للجولة الثانية ضد شيانج كاي شيك وقوات الكومنتانج .

الفصل السابع

لقد كان لنجاح «الزحف الطويل» أسوأ أثر على مركز شيانج كاي شيك من أية هزيمة حربية ، فقد أضاع خمس سنوات كاملة في اقتفاء أثر جيش مجهول الوجود لا يفكر في الالتحام مع جيشه في معركة ، ومع ذلك فإن هذا الجيش الخفى قد أصبح على درجة كبيرة من الخبرة في حرب العصابات بل إن المحاولات التي بذلتها قوات كاي شيك للقضاء على جيش ماوتسى تونج بعثت في هذا الجيش صلابة العود وقوة التدريب التي سوف يستخدمها يوما ما أحسن استخدام ضد كاي شيك وجيوشه . والواقع أن حملات التطويق التي أعدها شيانج كاي شيك لمحاصرة جيش ماوتسى تونج والقضاء عليه كانت فكرة خاطئة منذ البداية .

لو أن كاي شيك نظر إلى التهديد الشيوعي نظرة واقعية منذ عام ١٩٣٠ اذن لاستطاع مواجهة الشيوعيين في عقر دارهم وتبديد شملهم ، ولو أنه وجه اهتمامه الكامل إلى تحسين ظروف المعيشة في الريف الصيني ، لما أمكن ماوتسى تونج أن يعبئ تلك القوى الهائلة من الفلاحين على الرغم مما امتاز به ماو من نشأته الأولى كفلاح صيني ، ولو فكر شيانج كاي شيك في إعداد برنامج سليم التخطيط للإصلاح الزراعي يقضى به على الملكية الاقطاعية للأرض الزراعية ويحولها إلى تعاونيات لقضى بالفشل على التعاونيات التي أنشأها ماوتسى تونج ، فقد كان لديه الخبراء الفنيون من الصينيين ومن الأمريكيين ، ولديه الأموال وإذا ففى استطاعته زيادة الانتاج الزراعي إلى حد يرتفع معه مستوى المعيشة في الريف الصيني بنسبة كبيرة .

من أراد كسب ولاء الفلاح الصيني فليملأ معدته بالأرز . ولو جال بخاطر كاي شيك أن يضع برنامجا مثاليا لانقاذ منكوبي المجاعات ، ولو فكر في وضع حد لوحشية ملاك الأراضي الغديمي الضمير الذين كانوا يختطفون أرض الفلاح الصيني وهو يتضور جوعا ويعطونه أبخس الأثمان لو تم كل ذلك لما وجد الشيوعيون أمامهم اقطاعيات زراعية كبرى يوزعونها على الفلاحين بعد أن يحيطوا عملهم بدعاية واسعة .

ولنعد مرة أخرى لنقول : لو أن كاي شيك حدد ايجارات الأراضي الزراعية وجعل فئات الضرائب المحلية معقولة محتملة ووضع نظاما عادلا لجباية هذه الضرائب لفاز بالشكر والامتنان بين طبقة الفلاحين . وأخيرا لو أنه عبأ الشعب الصيني منذ البداية لمحاربة اليابانيين المعتدين ، وأوقف تلك المضايقات التي كان يوجهها إلى البريطانيين حتى يظهر بمظهر الوطني الغيور ، اذا لاستطاع كسب الأوروبيين إلى جانبه في حملته داخل الصين وخارجها .

الواقع أن شيانج كاي شيك كان حاكما ظالما وقائدا فاشلا . استند في بسط سيطرته الضعيفة على الصين على ثورة ١٩١١ ووجه كل اهتمامه الى العمال في المدن على اعتبار أنهم الرمز الحي الذي تتمثل فيه صلبه الثورة ثم أخذ ينشئ الطرق ويمد السكك الحديدية ، شأنه في ذلك شأن شبيهه موسوليني وكل دكتاتور آخر منذ فجر التاريخ . ولكن عمله هذا لم يزد شعبيته ولم تستفد منه الا الاقليات الأجنبية المعادية ، وهكذا أخذت شعبيته تهبط الى الحضيض فقد نقر منه المثقفون لانه بدا في أعينهم وقد تنكر لثورة ١٩١١ وكان المفروض فيه أن ينصب نفسه للدفاع عنها . وأكثر من اللجاجة والدعاية الزائفة حول وطنيته في حين قد تنسازل لليابانيين عن مساحات واسعة من أرض الصين في مقابل مساعدات عقيمة للقضاء على الشيوعيين . ووعد الشعب بالدستور ولكنه لم ينجز وعده . ولم تتح لهذا الشعب الفرصة كي يشترك في حكومة البلاد ويوجه سياستها طبقا لمبادئ ثورة ١٩١١ . لا بل ان هذا الشعب ما كان ليعترض على دكتاتوريته لو أنها كانت دكتاتورية رشيدة صالحة .

أما التجار فقد بدؤوا ينزعون ثقتهم من شيانج كاي شيك باعتباره حاميه ضد الشيوعية ، فقد رأوه عاجزا عن إيقاف «الزحف الطويل» ومن هنا وقر في أذهانهم أنه لو دخل في معركة ضد الشيوعيين فسوف تكون من نصيبه الهزيمة ، أضف الى ذلك أن التجار حقدوا عليه وعلى أصدقائه لاستخدامهم النفوذ السياسي في سبيل الثراء الشخصي ، ذلك أنه لم يواف عام ١٩٣٥ حتى كانت الصين كلها ملكا لأربع أسر : أسرة شيانج كاي شيك نفسه ، وأسرة سونج وهي أسرة زوجته وأسرة كونج وأسرة تشن . كانت الأسر الأربع تقسم فيما بينها السيطرة على البنوك الحكومية الأربعة وهي البنك المركزي وبنك الصين وبنك المواصلات وبنك الزراعة . وعن طريق هذه البنوك الأربعة كانت الأسر الأربع تسيطر على جميع الأعمال المصرفية في الصين ومن ثم على الاقتصاد الصيني بأكمله . كانت كل قروض الحكومة تعقد عن طريق أحد البنوك الأربعة . ومن الطبيعي أن يسعى كل بنك للحصول على أكبر قدر من الضمانات الحكومية مما ترتب عليه تضخم نقدي لا يتناسب مطلقا مع الطاقة الانتاجية أو الاستهلاكية . وفي عام ١٩٣٥ حملت أسرة سونج ، شيانج كاي شيك على إصدار قانون يجعل لأوراق النقد التي تصدرها البنوك الأربعة «قوة الإبراء الكاملة» مع سحب العملة الفضية من التعامل ، وكان من نتيجة ذلك ارتفاع أسهم هذه البنوك ارتفاعا كبيرا في جميع أنحاء الصين ، وسحب سبائك الفضة وتخزينها في أقبية البنوك الأربعة .

واحتكرت الأسر الأربع سوق الارز . والقطن وصناعة الدخان كما احتكرت تحديد الأسعار والحصص عن طريق مكتب الكومنتانج في نانكينج وعقدت قروضا مع البنوك الخارجية واحتكرت السيطرة على صناعات الصلب والصناعات الهندسية وصناعة العدد والآلات الناشئة وأخيرا اشترت الأسر الأربع أراضي الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب بأبخس الأثمان .

هكذا أصبحت ادارة الجهاز الحكومي في أيدي الأسر الأربع وكان

هدفها من ممارسة السلطة الحصول على أكبر درجة من الثراء مع محاولة عدم الاضرار كثيرا بالصين وكانت بيبي بنج زوجة شيانج كاي شيك وشقيقة أرملة الدكتور صنون يات سن ، هي الرأس المدبر للمشروعات المسالية وبرنامج الاثراء ، وقد قالت عنها أرملة صنون يات سن : -

ان شقيقتي ذكية وبعيدة النظر ، فهي لاتعتمد الى شراء او بيع الاسهم والسندات الا بعد ان تتلقى معلومات من أصدقائها عن أى تغير جديد يطرأ على سياسة الحكومة المالية .

كان حظ شيانج كاي شيك من الثراء عريضا ، ولكن مركزه السياسى اخذ ينحدر من سبب الى أسوأ ، ففي يونيو ١٩٣٥ أرغم على عقد اتفاق مع اليابان يقضى بتنازل الصين عن جميع اقليم هوبينى والجللاء عن شاهار وتحت ضغط حكومة طوكيو رتب حملة للدعاية بين الشعب الصينى بان اليابانيين اخوان مخلصون وانهم ماوطنوا أرض الصين الا لتخليص حضارة الجنس الأصفر مما يهددها من خطر أوربى ، ولكن أنى لمثل هذه الحملة أن تنجح فى حين لا يمر يوم الا وتفتصب اليابان أرضا صينية جديدة .

وفى الأول من أغسطس ١٩٣٥ وجه الحزب الشيوعى الصينى نداء الى الشعب يدعو فيه الى «مقاومة اليابانيين وانقاذ الوطن» . وطالب الحزب بوضع حد للحرب الأهلية وتكوين جبهة ضد اليابان ، ولما تلقت العصابات الصينية المسلحة فى شمال شرق الصين أنباء هذه الدعوة رحبت بها ووحدت قواتها تحت اسم « القوات المتحالفة الجديدة ضد الخطر اليابانى» واختارت لقيادتها يانج تشنج -يو . ولم يمض غير قليل حتى أصبحت هذه القوة تضم ٤٥ ألفا ، ووقفت قوات شيانج كاي شيك المرابطة فى شمال الصين منها موقف من لايسطيع عمل شيء ولا يريد عمل شيء . أما كاي شيك نفسه فلا يدرى أحد ان كان قد أساء تقدير ذلك الشعور المتزايد المعادى لليابان أم أن حملته ضد الشيوعية قد أعمته عن كل شيء ما عدا الخطر الشيوعى ، ولكن من المؤكد أن سلوكه كان سلوك رجل لايبسالى بالنزعة الوطنية المفروض أن يكون هو رمزا لها . ولقد ظل طوال العام التالى يرتكب خطأ اثر خطأ ، وأخيرا كما يقول ماوتسى تونج جرفه التيار .

لما بلغت بيكين أنباء نجاح «الزحف الطويل» ووصول ماو وقواته الى نهاية المرحلة فى اقليم شنسى ، قرر الطلبة فى بيكين القيام بمظاهرة فوجهوا الدعوة الى اخوانهم فى الاقليم ، وفى اليوم المحدد تجمعوا فى ميدان تين آن مين وهم ينشدون أناشيد «جيش المتطوعين الزاحف» ويهتفون بشعارات حرمتها حكومة شيانج كاي شيك مثل « نريد تخليص الوطن من براثن الاستعمار» ، «الحرب ضد اليابان» ، «الصينى لايجارب أخاه الصينى» ، ويترنمون بأشعار حماسية منها : انهضوا يامن تابون الذل والعبودية . وشيدوا بأجسادكم ودمائكم ، سورا جديدا للصين .

ثم سارت المظاهرة نحو مركز قيادة قوات الكومنتانج ليقدموا التماسا للحاكم المحلى ، وظلوا فى أماكنهم حول القصر الامبراطورى الشتوى فى انتظار الجنرال سونج أو من يمثله . وكان سونج يحكم هوبى وشساهاار باعتبارها اقليما مستقلا منذ اتفاقية يونيو مع اليابان ، وكان ينتظر فرصة

مواتية تمكنه من الارتقاء في أحضان اليابان ووضع نفسه تحت حمايتهم خاصة وأن الجنرال دواهارا المفاوض الياباني في اتفاقية يونيو وعد بمنحه عشرة ملايين دولار صيني أن أعلن انفصال اقليمه عن حكومة تانكنج وهكذا اعتبر سونج أن مظاهرة الطلبة نعمة وهبتها له السماء . فبينما كانت جموع الطلبة تحاصر القصر الامبراطوري اذ بالجنرال سونج يرسل برقية الى دواهارا ينبئنه بأن محاولة فصل اقليم هوبي وشاهار في الظروف الجارية يعتبر انتحارا لكليهما ، ولم يسع دواهارا ازاء هذا الموقف الا أن يستعد فورا للرحيل الى طوكيو .

وقد أراد البوليس المحلي أن يطلق النار على الطلبة لولا أن رأى فريقا من الصحفيين البريطانيين والأمريكيين واقفين لمشاهدة ما يحدث ، وهنا اضطر البوليس لمعاملة الطلبة بالدين . ولكن لما بلغت أنباء المظاهرة مسامع شيانج كاي شيك في تانكنج هب ثائرا وصب غضبه على الجنرال سونج والبوليس المحلي لسماحهما «للمشاهدين» بمحاصرة القصر ، وأدرك كاي شيك أنه اذا استمر المتظاهرون في هتافاتهم الوطنية فلن تمضي بضع ساعات حتى تغلق المدينة أبوابها وتنضم الى مظاهرة الطلبة ، ولذا فقد اتصل تليفونيا بابن أخيه الذي كان يعمل مديرا للبوليس السياسي في بيكين وأمره بتشتيت المتظاهرين . وصدع ابن أخيه بالأمر فجمع رجاله من السفاحين والقتلة والسفلة وزودهم بالمدافع السريعة في انتظار صدور الأمر بحصد المتظاهرين ، لكنه لم يأنس من نفسه الجرأة على اصدار الأمر بإطلاق النار ما دام الصحفيون والمصورون الاجانب واقفين على استعداد لتسجيل حوادث المذبحة ، بل انه لم يجرؤ على اصدار هذا الامر ، حتى عندما مر المتظاهرون من تحت «البوابة السماوية» مطالبين باستقالة عمه (شيانج كاي شيك) .

وفي ١٦ من ديسمبر تكررت المظاهرة ، وكانت في هذه المرة عامة شاملة فان أنباء نجاح حركة ٩ من ديسمبر شجعت الطلبة في المدن الأخرى فقاموا بمظاهرات في تينتنسن وشنغهاي وكانتون وهانكاو . أضف الى ذلك أن طلبة جامعة منشوريا الذين وفدوا على بيكين بعد أن اجتاحت اليابانيون اقليمهم انتقلوا الى سيان فو وأنشئوا لهم جامعة منشورية جديدة ، وكانت سيان فو تقف في الصفوف الأولى ضد ماوتسى تونج وقواته في شنسي ، ولكنها الآن غيرت موقفها وأعلنت «التآخي» بين القوات المحلية وقوات ماوتسى تونج في سبيل تحرير الوطن من العدو الأجنبي .

وفي يناير ١٩٣٦ تجمع نحو ثلاثة آلاف من طلبة بيكين وتينتنسن وقرروا تشكيل «فرقة الدعاية» ثم أخذوا يجوبون البلاد على طول سكة حديد بيكين - هانكاو لينشروا الدعاية بين مواطنيهم ضد اليابانيين ، وهكذا اكتسح التيار الوطني جميع سكان المنطقة من شيوعيين ومعارضين للشيوعية ولما سمع كاي شيك بأنباء فرقة الدعاية قرر إلغاء التصريحات المخفضة الممنوحة للطلبة عند سفرهم بالسكك الحديدية ، ولكن المجتمع الصيني وقف مؤيدا للطلبة مما اضطر كاي شيك الى ابقاء هذا الامتياز .

وفي فبراير ١٩٣٦ عبر جيش «القوات المتحالفة ضد اليابان» النهر الأصفر عند حدود شنسي ، وهناك اشتبكوا في معركة مع بعض قوات

الكومنتانج ولكن حين أمسى الليل ، تصافح الطرفان وهتف ممشاوهما :
«الصيني لا يحارب أخاه الصيني» .

وأخذت فكرة تكوين «جبهة شعبية» ضد اليابان تنشر في شمال الصين بين قوات الكومنتانج والمدنيين الموالين لشيانج كاي شيك . وفي مارس ١٩٣٦ ، عاد ليو شاورتشي صديق ماوتسى تونج من موسكو بعد أن تلقى تدريباً كاملاً على «فنون الدعاية لانهار الطبقة العساملة» وبمجرد وصوله انتخبه الشيوعيون الصينيون المنظم الأول للحزب الشيوعي الصيني .

ذهب ليو فوراً الى شينغهاي حيث يتجمع أكثر من ثلث عمال الصين وأخذ ينظم الاضرابات والزحف الجماعي ، واستطاع في مايو أن يدعو الى اضراب عام ضد أصحاب المصانع اليابانيين ، وقد اشترك في الاضراب ٤٥ ألفاً من العمال ، غير أن ليو أدرك أن قوة البوليس في المسكن أقوى من أن يواجهها بعماله ولذلك فقد تعلم شيئاً جديداً وهو أن حركة الفلاحين ذات أهمية عظيمة إذا أريد لطبقة البروليتاريا أن تحقق أهدافها ، وما أن اقتنع بفكرته الجديدة حتى تخلى عن العمال لفترة بلغت خمس سنوات . ثم اتجه نحو الشمال للانضمام الى ماوتسى تونج في اقليم شنسي ، وهناك أنشأ حكومة شيوعية صينية داخل نطاق حكومة الكومنتانج .

وما وافى شهر ديسمبر ١٩٣٦ حتى تم التآخي بين قوات الكومنتانج وجيش ماوتسى تونج وأقلعت قوات الكومنتانج نهائياً عن فكرة القضاء على «الجيش الأحمر» وأخذ شواين لاي يتردد على مركز قيادة جيش الجنرال شيانج بصفته صديقاً لاعدوا مطلوباً رأسه .

وحدث في ٣ من ديسمبر أن أرغمت إحدى قوات الكومنتانج قائدها على مهاجمة إحدى الحاميات اليابانية وذبح «أخوانهم اليابانيين» ، ولما سمع كاي شيك بأنباء المذبحة من السفير الياباني الثائر ، استشاط غضباً وأبرق الى الجنرال شيانج كي يعاقب هذه القوة الصينية بكل شدة ، ولكن شيانج رد عليه بأنه لو فعل ذلك فإن قوات الكومنتانج سوف تنضم «بجموعها» الى الجيش الأحمر .

ولما أفزعت شيانج كاي شيك أنباء التآخي بين قوات الكومنتانج والشيوعيين في الشمال قرر أن يتوجه بنفسه لمنطقة الاحتلال الياباني ليري مايجري هناك . وهكذا نجد «القائد الأعظم» يسير هو وأركان حربه الى سيان يوم ٧ من ديسمبر ومعهم مراقب ياباني . ولما وصل الى سيان أبلغ الجنرال تشانج أنه حضر بنفسه ليوجه حملة شاملة ضد القوات الشيوعية ، وكان مما قاله أنه أصبح من العبث الاعتماد على قوات الكومنتانج في المنطقة لانهم قد «تلوثوا» بسبب اتصالهم الشخصي بالشيوعيين بل أن بعضهم أصبحوا معادين للنظام القائم . وأبلغ تشانج أنه قد أعيد ثلاثة جيوش مخلصه وانها في طريقها الى الشمال على أن تكون مستعدة للعمل في منتصف يناير ، وأخيراً سلم تشانج قائمة بأسماء الضباط الذين ذكرت المخابرات انهم قد «تلوثوا» بالشيوعية وأنه يجب استدعاؤهم واعدامهم .

كان الجنرال تشانج أبعد ما يكون عن الشيوعية ولو أنه اتفق في

الرأى مع القوات الشيوعية على العمل المشترك لطرد اليابانيين وتوحيد الصين ، كذلك كان على ولاء كامل لشيانج كاي شيك ، ولكنه ككل قائد آخر فى مثل هذه الظروف شعر بأن كاي شيك قد جرح احساسه وساءه أن القائد الأعظم ينتقد كفايته فى القيادة وزاد استياءه أن يقال له أن جيشه لا يصلح لخوض المعارك وأن عددا كبيرا من ضباطه لا يصلحون لمهمتهم العسكرية ، وفى ثورة غضبه وحيرته بعث رسالة الى شواين لاي يستشيريه فيما يجب أن يفعله .

ولما أبلغت الرسالة الى ماوتسى تونج وشواين لاي لم يصدقا الخبر فهذا هو تشانج القائد العام لقوات الكومنتانج فى شمال الصين ونائب القائد العام للقوات المسلحة الصينية باجمعها ، يطلب اليهما أن يشيرا عليه فيما يجب أن يتخذه من اجراء حيال شيانج كاي شيك وجميع مشروعاته وبرامجه .

سولت للرجلين نفساهما بأن يحرضا تشانج على القيام «بواجبه النبيل» وهو اغتيال «القائد الأعظم» ولكن ماو عاد فنبذ هذه الفكرة اذ رأى أن خير مايفعل الآن هو التعاون بين قوات الكومنتانج وقواته فى محاربة اليابانيين فهو من جهة لا يستطيع الوقوف وحده أمام اليابانيين ، ومن جهة أخرى فهو يخشى على حكومته الشيوعية الناشئة أن تداس تحت اقدام قوات الكومنتانج الكبيرة ، وبجانب ذلك كله كان يود أن تنتشر بين الصينيين جميعا انباء محاربته لليابانيين أعداء البلاد ، وبذلك يستطيع التخلص من وصمة «زعيم العصابات رقم واحد» .

رأى ماوتسى تونج بصائب فكره أن خير طريق يسلكه هو أن يشير على الجنرال تشانج بأن الوقت قد حان لتكوين جبهة شعبية لمقاومة اليابانيين. وإذا فعليه أن يتصل بشيانج كاي شيك ويطلب اليه أن يلقي جانبا خصومته للشيوعيين وأن يعمل الجانبان معا للتخلص من العدو المشترك ، وما ان وصل ماو الى هذا القرار حتى أرسل شواين لاي لمقابلة الجنرال تشانج .

وفى ١١ من ديسمبر تحركت قوات ماوتسى تونج نحو مدينة سيان ورابطت على مشارف المدينة . وفى أثناء الليل توجه تشانج الى الجناح الذى يقيم فيه شيانج كاي شيك وأبلغ « القائد الأعظم » أن أركان حربه وحرسه الخاص قد أبعدا وأن عليه أن يعتبر نفسه «فى حالة اعتقال» كذلك أفهم الجنرال تشانج القائد الأعظم بأن مصلحة الصين تقتضى اجراء محادثات جدية يشترك فيها كل من يهمهم الأمر لوضع سياسة عسكرية لانقاذ البلاد .

لم يسع شيانج كاي شيك الا الموافقة ، وفى ١٢ من ديسمبر ١٩٣٦ وجد نفسه جالسا الى مائدة مستديرة تضم الجنرال تشانج وشواين لاي . عرض شواين لاي اقتراحات ماوتسى تونج التى تتضمن القائمة التالية .

- ١ - اعلان الهدنة بين قوات الكومنتانج والجيش الأحمر .
- ٢ - تكوين جبهة شعبية لمقاومة اليابان .
- ٣ - فى مقابل ذلك يلغى الشيوعيون حكومتهم ويعترفون بشيانج كاي شيك حاكما للصين من غير منازع .

٤ - يوافق ماوتسى تونج على إلغاء اسم «الجيش الأحمر» ويسمى قواته «الجيش الصينى الثامن» على أن يوضع تحت قيادة شيانج كاي شيك

أرغى شيانج كاي شيك وأزبد حينما عرضت عليه مقترحات ماوتسى تونج وصرخ فى وجه شواين لاي قائلا : «انها وقاحة بذينة من «زعيم عصاة» أن يقدم اقتراحات مثل هذه لرئيس الدولة وانه سوف يسحق الجيش الأحمر عاجلا أو آجلا ، وانه ليس هناك مايدعو للمساومة وكسب تأييد هذا الجيش » .

وقد التزم شواين لاي فى رده حدود الأدب ولكنه أشار الى أن اقتراحات ماوتسى تونج هى فى الحقيقة الشروط الوحيدة التى يوافق عليها الصينيون المخلصون لوطنهم لاطلاق سراح شيانج كاي شيك واعادته الى عاصمته نانكينج وأضاف شواين لاي قائلا أن من حقه ايضاح انه فى حالة رفض هذه المقترحات فقد يصبح من المستبعد تجنب حادث مشنوم يفقد فيه القائد الأعلى حياته . والواقع أنه لم يكن هناك بد من قبول المقترحات الا اذا قبل شيانج كاي شيك أن يعرض نفسه للقتل ، خاصة وان الجنرال تشانج لم يكن يضمن نجاح أية خطة أخرى غير هذه .

وأخيرا فى ١٣ من ديسمبر سلم شيانج كاي شيك بالأمر الواقع ، ومن هذا التاريخ بدأ الشيوعيون والوطنيون (أتباع الكومنتانج) يعملون معا لهزيمة اليابانيين . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذا التحالف بين ماوتسى تونج وشيانج كاي شيك كان ظاهريا وأن كلا منهما كان يسعى لحديعة الآخر .

ان الذى كسب هذه الجولة هو ماوتسى تونج ، ذلك أن توضيحته باستقلاله ، واستقلال جيشه وحزبه تركت أثرا عميقا فى أفئدة الصينيين وبدعوا يعترفون صراحة لأول مرة أن الشيوعيين الصينيين ليسوا أقل وطنية من بقية الشعب ، وأهم من ذلك أن الطبقة المتعلمة التى لم تكن ترى فى الشيوعيين غير «زعماء لثورة أخرى للفلاحين» ، كما أنها كانت توجه انتقادا مرا الى ماوتسى تونج بسبب المذابح التى أقامها لملاك الاراضى فى اقليم كيانجسى ، بدأت ترى فيه وطنيا مخلصا بل وزعيما انشائيا ، وفى العقد التالى أخذت هذه الطبقة تعطف عليه وعلى أهدافه وبرنامجه الاصلاحى . وأخيرا نقلت ولاءها بشكل اجماعى من شيانج كاي شيك الى «فلاح هونان» لم يكن فى مقترحات ماوتسى تونج فى الحقيقة أية توضحية، ذلك أن الطريقة العملية أمامه وأمام حزبه الشيوعى انه اذا أراد أن يصل الى مناصب الحكم هو وزمرته فان ذلك لن يتم الا على أنقاض الكومنتانج ، والقوة العسكرية الوحيدة التى تستطيع تحطيم الكومنتانج هى اليابان . ولذلك فقد أعاد ماوتسى تونج خطته على أساس أن يضع حدا لمهادنة شيانج كاي شيك لليابانيين وتنازله لهم عن الاراضى الصينية قطعة بعد قطعة فى سبيل كسب الوقت . وكان ماو يعرف جيدا أنه لا قبل لقواته وقوات الكومنتانج مجتمعة بمواجهة الجيش اليابانى ، والنتيجة الحتمية لمثل هذه المعركة هى اجتياح اليابان لمعظم اراضى الصين، وفى هذه الحالة فسوف يعتمد اليابانيون للانتقام من شيانج كاي شيك ورجاله . حتى اذا ماجاء اليوم الذى تتم فيه هزيمة

اليابانيين يكون الجو قد خلا امامه وبذلك يستطيع اقامة دولته الشيوعية على انقاض جمهورية الكومنتانج .

وهنا تبرز امام ماوتسى تونج مشكلة جديدة وهى : من الذى يتولى هزيمة اليابان ؟ . اتتولاها روسيا ؟ قد يصبح من المستطاع أن تنمو قوة روسيا فى عشر سنوات وبذلك تعبى جيشا للزحف من سيبيريا ومساعدته ولكنه يكره فكرة قبول أى التزام لروسيا قد لا يستطيع مستقبلا التحمل منه ، كما أنه من العسير اقناع جيوش التحرير الأجنبية بالعودة الى اوطانها واذا فليس امامه الا البديل التالى : من المؤكد أن اليابان لن تقف عند غزو الصين ، بل ان ماقرأه من انباء اليابان وما تلقاه من أولئك العائدين من طوكيو يؤكد أن الحكومة اليابانية قد عقدت النية على غزو الشرق الأقصى بأجمعه من منشوريا الى الملايو كذلك عرف أن بريطانيا وفرنسا وأمريكا ليست مسلحة تسليحا كافيا واذا فهى ليست على استعداد للدخول فى حرب ضد اليابان ، خاصة وان هذه الدول غارقة لأذنيها فى مشكلاتها مع هتلر وموسوليني فى أوروبا وعلى الرغم من كل ذلك فان مالدى هذه الدول الثلاث من طاقة صناعية هائلة سوف تدعم قوتها وبذلك تستطيع صد القوات اليابانية وردھا الى جزرها المزدحمة بالسكان . ولم يطرأ على ذهن ماوتسى تونج مطلقا أن الاتحاد السوفييتى سوف يتحالف مع الدول الرأسمالية وأن يعمل الطرفان معا على تحرير الصين ، كذلك لم تخطر بباله مطلقا فكرة أن هؤلاء الحلفاء الجدد سوف يسلمون الصين المحررة الى شيانج كاي شيك .

هكذا كانت آمال ماوتسى تونج معصورة فى حرب طويلة الأجل يخسر فيها الكومنتانج زهرة رجاله وبذلك يسهل على ماو ورجاله الاستيلاء على الحكم فاذا انتقلنا الى منظر آخر من هذه الدراما التى تمثل على مسرح الشرق الأقصى نجد اليابان منزوعة لاستسلام شيانج كاي شيك للشيوعيين ، وهى لذلك تسعى جاهدة لاقتناعه بأن يسحب كلمته بحجة أنه قبل اقتراحات ماوتسى تونج « تحت التهديد » واذا فقبوله لها باطل من أساسه وذكره اليابانيون بأنه مرتبط معهم بمعاهدات كما أنهم تعهدوا بالقضاء على العصابات المناوئة له ، كذلك قطع اليابانيون على أنفسهم عهدا بأن يشتركوا مع شيانج كاي شيك فى حملة واسعة النطاق لسحق الشيوعيين اذا هو تبرأ من اتفاقية «سيان» مع شواين لاي وعاد الى حظيرة «التحالف الأخرى» كانت هلمه العروض اليابانية اغراء قويا لشيانج كاي شيك خاصة وأن «أخاه الأكبر» ماوتسى تونج لا يؤمن جانبه ، ولكن مما يذكر لهذا الرجل بالخير ، انه وفى بوعدہ .

وفى ٧ من يوليو تخلى اليابانيون عن محاولة اكتساب شيانج كاي شيك الى صفهم ، ثم هاجموا لوكوتشا وجنوب غربى بيكين ومن هناك زحفوا نحو الجنوب ، وفى ٣ من أغسطس كانت القوات اليابانية على مشارف مدينة شنغهاي فطالبت بتسليم المدينة طوعا دون قتال ، ولكن أدهشهم ان طلبهم قوبل بالرفض وصمدت الحامية الصينية فى المدينة امام القوات اليابانية فى كفاية عسكرية وحماسة قوية . ومما أذهل اليابانيين أن طابورهم الخامس فى المدينة أبلغهم أن سكان المدينة جميعهم وأصحاب المصارف والعمال وعمال النقل وموظفى الكومنتانج ، كلهم قد عقدوا النية على الصمود

أمام القوات المحاصرة بل أن الاسرات الكبرى الاربع أخذت بحارب بجانب قوات الجيش الشيوعي .

وبينما كان اليابانيون خارج أسوار شنغهاي اذ تولى صهر شيانج كاي شيك نشر تفاصيل اتفاقية سيان (التي تم الصلح فيها بين الكومنتانج والشيوعيين) مما أثار غضب اليابانيين الى درجة كبيرة ، فقدموا احتجاجا الى السفير الامريكى قى طوكيو بأن هذا الاجراء بعيد عن الشرف .

وفي يوم ٣٠ أغسطس عبات الحكومة الشيوعية الصغيرة فى اقليم شنسى ٣٠ ألف جندي تحت قيادة تشوتيه وزحف الجيش رأسا الى ميدان المعركة ضد اليابانيين . كانت هناك قوة يابانية فى اقليم شانسى وجهتها السير جنوبا بشرق للانضمام الى الجيش اليابانى الذى يحاصر شنغهاي ولم تكن لدى هذه القوة اليابانية اية فكرة من وجود قوات تشوتيه على مقربة منها . وفى ليلة ٢٤ من سبتمبر وحينما كانت الجنود اليابانية مستغرقة فى النوم هاجمهم جيش تشوتيه على حين غرة ، ولم يات الصباح حتى وجد اليابانيون أنفسهم وقد طوقتهم هذه القوة المفجرة وبعد معركة قصيرة لم تستطع القوات اليابانية الصمود فلم يسعها الا التسليم وكانت هذه أول هزيمة منى بها اليابانيون منذ بدعوا «غزو الشرق الأقصى» .

كان لهذا النصر الذى احرزه الجيش الصينى الثامن (قوات تشوتيه) فعل السحر فى الصين كلها ، وانتهز ماوتسى تونج هذه الفرصة فطالب بالاعتراف لقوات العصابات فى اقليمى كيانجسى وهونان على اعتبار انها قوات نظامية، وأن يطلق عليها اسم الجيش الرابع . وقد استطاع الجيش الرابع الجديد أن يقتحم المناطق التى احتلها اليابانيون فى جنوبى اقليمى كيانجسى وأنهى ، وأن يشتت القوات اليابانية حينما التقى معها ، كانت القوات الصينية الجديدة تعرف كل شبر فى الأرض وكل «سمكة فى النهر» ولكن اليابانيين كانوا يفوقونها عددا وسلاحا واذا فالمعركة معركة كرامة وطنية ومعركة دعاية .

استطاع ماوتسى تونج بجيشيه الثامن والرابع وأربع أو خمس مجموعات من قوات العصابات أن يحل محل قوات الكومنتانج فى امتلاك زمام الموقف ، وكان يتوقع من وراء ذلك أن يحظى بنوع من الاعتراف من الحكومة السوفيتية ، ولكن حينما صدرت كلمة روسيا لم تكن لمصلحته . ففى ٢١ من أغسطس ١٩٣٧ وقع ستالين معاهدة صلح ومنع اعتداء مع شيانج كاي شيك ، وافق الاتحاد السوفيتى بمقتضاها على استنكار العدوان اليابانى ، كما وافق على تزويد كاي شيك بالأسلحة والطائرات فى «كفاحه البطولى» ضد العدوان اليابانى .

ولما بلغت ماوتسى تونج أنباء هذه الاتفاقية اعترته الحيرة والارتباك الشديد ، لقد تلقى دعوة ليشهد حفلة توقيع المعاهدة ولكنه رفض تلبيتها وبدأت شكوكه فى رفاقه السياسيين فى موسكو تزداد ، حتى ليوشاوتشى صديقه الوفى أوشك أن يفقد مكانته لدى ماو الذى أبعدته وجعل منه مندوبا سياسيا للجيش الرابع كمظهر من مظاهر الانتقام من الاتحاد السوفيتى .

لقد ارتكب المكتب الصينى فى موسكو أخطاء بارتباطه

بشيانج كاي شيك بدلا من ماوتسي تونج ، وهذا دليل على سوء تقديره للحالة القائمة في الصين . ومثله في ذلك مثل الدول الغربية سواء بسواء . حقيقة أن بعض وحدات الكومنتانج كانت على جانب كبير من الكفاية الحربية وخاصة القوات التي كانت تدافع عن شنغهاي في أثناء الغزو الياباني ولكن جيش شيانج كاي شيك في مجموعه لم يكن في عام ١٩٣٧ على مستوى مرض من الكفاية العسكرية اذا ما قورن بقوات الشيوعيين في ذلك الوقت . وهكذا كان ستالين بعقده اتفاقية ٢١ من أغسطس مع شيانج كاي شيك بقامر على جواد خاسر .

في نوفمبر ١٩٣٧ اضطر كاي شيك الى الجلاء عن عاصمته نانكينج والارتداد مسافة اربعمائة ميل الى هانكاو ، وفي العام التالي طرد من هانكاو وارغم على الاقامة في شونكنج ، وما بلغ عام ١٩٣٨ النهاية حتى انتهى الدور الايجابي لقوات الكومنتانج ضد الغزو الياباني .

كانت القوات اليابانية في اوائل عام ١٩٣٩ قد احتلت جميع شمالي الصين والقسم الأوسط من وادي نهر يانجتسي والمنطقة الساحلية كلها . كذلك أصبحت جميع المدن الكبرى والمراكز الصناعية والتجارية الهامة في ايدي اليابانيين . وكان كل ماتبقى لدى شيانج كاي شيك من أمل هو التمسك بالسهل الغربي والانتظار حتى تنشب حرب عالمية تشترك فيها اليابان وتبوء بالهزيمة وكان يتفق في الرأي مع ماوتسي تونج من أن اليابان تهدف الى انشاء امبراطورية ضخمة في الشرق الأقصى وانها سوف تدخل في معركة مع الدول الاستعمارية ان عاجلا أو آجلا .

فاذا انتقلنا الى ماوتسي تونج نجده الآن قد أصبح المسئول الاول عن أي عمل ايجابي ضد اليابانيين . وعلى الرغم من أن ماو لم يتلق أية معونة من روسيا ، وان كاي شيك كان يحول دون وصول أية معونة أخرى اليه فقد استطاع أن يرهق القوات اليابانية بحرب العصابات ، وفي الوقت نفسه يكون جيشا نظاميا يستطيع به يوما ما طرد اليابانيين والكومنتانج معا من اراضي الصين . وحينما كانت قوات ماو تشكل خطرا حقيقيا على الادارة اليابانية في مناطق الاحتلال، كان ماو نفسه يقوم بدعاية قوية بين الصينيين المترددين في ولائهم بينه وبين شيانج كاي شيك واستطاع بالتدريج أن يضم الى جانبه الجناح اليساري من أعضاء الكومنتانج وكانت تشنج ليج أرملة الدكتور صون يات سن تساعده في عمله خفية ، ولم يكن مسلكها هذا نتيجة اقتناع تام منها بحسن نوايا ماوتسي تونج ولتنقل هنا ما صرحت به لأحد المراسلين : «أنا لاثق في أي سياسي صيني اليوم ، ولكن شكوكي في ماوتسي تونج أقل من شكوكي في الآخرين» . ومما ساعد ماو على كسب ثقة الطبقة المثقفة ما ارتكبه بعض زعماء الكومنتانج من خيانة للقضية الوطنية بانضموا لهم تحت لواء اليابانيين ولما تمكن ماو أخيرا من ضم المثقفين والفلاحين الى جانبه اطمأن الى المستقبل ، وعلى الرغم من عجز شيانج كاي شيك بصفته قائدا عسكريا فقد وجد لديه فسحة من الوقت ليثار لنفسه من ماوتسي تونج ، ففي نوفمبر ١٩٣٩ شن هجوما عاما على اقليم شنسي الذي كان يضم حكومة ماوتسي تونج السرية ، وكان هدفه من ذلك أن يحطم القوى العسكرية والمدنية لهذه الحكومة ، وكذلك هاجم قوات الجيش الثامن

التابع لماوتسى تونج والقوات المحاربة لليابانيين التي كانت تحت قيادة شيوعية ، ولما احتج شواين لاي على هذه الاجراءات المخالفة لنص التحالف، رد شيانج كاي شيك بأنه لا يزال من واجبه المحافظة على القانون والنظام .

وفي ٢٠ من أغسطس ١٩٤٠ هاجمت عدة فرق من الجيش الثامن مواصلات اليابانيين في شمال الصين وقطعت عددا من الخطوط الحديدية ثم نشبت معركة بينها وبين الجيش الياباني كانت نتيجتها هزيمة اليابانيين وفي الفترة من ٢٠ من أغسطس الى ٥ من ديسمبر استطاعت قوات الجيش الثامن أن تشل حركة ٤٠ ألف جندي ياباني وتدمر ٣٠٠ ميل من الخطوط الحديدية وألف ميل من طرق السيارات . وقد انتفخت أوداج ماوتسى تونج وتشوتيه بهذا النصر فأبلغوا أنباءه الى المراقب العسكري الروسي والمراقبين العسكريين الغربيين في الصين .

وفي ٢٢ من يونيو ١٩٤١ هاجمت ألمانيا الاتحاد السوفيتي وفي ٨ من ديسمبر أعلنت اليابان الحرب ، بطريقة فعلية لارسمية ، على الولايات المتحدة بمهاجمتها للأسطول الأمريكي في بيرل هاربور . وكانت السياسة العسكرية للمحور القضاء العاجل على قوات العدو ، ولذلك تلقت القوات اليابانية في الصين تعليمات بأن تنتهي من عملياتها في الصين في شهر ، ثم تتجه بعد ذلك الى جنوب شرقي آسيا ، وكان من نتيجة العمليات الحربية اليابانية العنيفة في الصين أن هبط عدد الصينيين في المناطق التي لا تزال خالية من الغزو الياباني الى خمسين مليون نفس فقط .

وقد فقدت قوات الكومنتانج روحها المعنوية فانضم نحو نصف مليون جندي منها الى القوات اليابانية وأخذ يحارب تحت لوائها ، أما الجيش الثامن التابع لماوتسى تونج فقد ظل يقاوم ولكنه فقد ربع عدده فأصبح ٣٠٠ ألف جندي بعد أن كان ٤٠٠ ألف .

أما ماوتسى تونج فقد حوَّص في جبال شنسي وأصبح موقفه مشابها لما كان عليه في الفترة من ١٩٣٠ الى ١٩٣٤ وقت أن ضرب شيانج كاي شيك الحصن على قواته في مرتفعات كيانجسي . وفي هذه الفترة نشر ماوتسى تونج كتيباً عنوانه « عن الديمقراطية الحديثة » .

وجاء في هذا الكتيب ان ماوتسى تونج يجمع بين المبادئ الماركسية اللينينية والتراث التاريخي للمجتمع الصيني . ومعنى ذلك أن الثورة الصينية تمر بمرحلتين وهما مرحلة الثورة الديمقراطية الحديثة ومرحلة الثورة الاشتراكية . وفي أثناء المرحلة الديمقراطية يتخذ الحزب الشيوعي الصيني برامج سياسية واقتصادية وثقافية تخالف كلا من الرأسمالية والاشتراكية وذلك لضمان مستقبل الثورة الاشتراكية .

وقد أثارت هذه الوثيقة استياء أصحاب المذهب الماركسية الصحيحة من أعضاء الحزب الشيوعي الصيني ، كما أثارت سخط موسكو على ماوتسى تونج فقد اعتبرها الاتحاد السوفيتي خروجاً على المذهب الماركسية اللينينية ان هناك نوعاً وحيداً من الثورة وتلك هي الثورة الروسية السوفيتية الاشتراكية . فكيف بهذا الرجل (ماوتسى تونج) ينشر مبادئ ثورة جديدة ثم يدعى بعد ذلك انه شيوعي . ولما امتنع في إقليم شنسي عن تطبيق نظام المزارع الجماعية وسمح بملكية المصانع

وببقاء الصناعات الصغيرة ملكا للقطاع الخاص ، أثار فزع المتمسكين بأصول المذهب الشيوعي . كان هؤلاء في واد وماوتسى تونج في واد آخر فهم يريدون تطبيق الماركسية اللينينية تطبيقا كاملا ، أما ماوتسى تونج فكان يسعى الى وضع نواة مجتمع صيني مخلص لبلاده تنضوي تحت لوائه كل الطبقات ، كذلك ثبت لماوتسى تونج ان غلة الأرض الزراعية تتضاعف تحت نظام تعاونى يحتفظ فيه كل فلاح بملكيته الخاصة لأرضه ، ويتوقف على ذلك نجاح المشروعات الصناعية الخاصة . ولنا اعتقد هؤلاء المتزمتون أن ماوتسى تونج قد انحرف عن المذهبية الصحيحة بدعوا يعملون على تقويض دعائم سلطته .

ما كان ماوتسى تونج ليمنع في مناقشة أى موضوع مع أى شخص وفى أى وقت شاء ذلك الشخص ، أعان ان يتحدث السان سلطته فهذا ما لم يسمح به مطلقا انه مزيج من سعة الألق الواعية واحترام العقيدة ، ولكنه فى كلتا الحالتين سيد بيته والمسيطر على سلوكه ، وما ان بلغت انبساطا للتهامسين والمتأمرين حتى أمر بأعدامهم جميعا . وهكذا أعدم ١٧٢ من الزعماء الشيوعيين فيما أطلق عليه « حملة التقويم لسنة ١٩٤٢ » .

وما ان انتهى ماوتسى تونج من القضاء على « الاتجاهات المتخرفة » حتى وجد قواته أمام عملية اجتياح كاسح من اليابانيين ، وفى مايو ١٩٤٢ بدأت القوات اليابانية تبنى حصونا منفصلة داخل إقليم شنسى (على طريقة تشيانج كاي شيك فى إقليم كيانجسى) وبعد ان انتهت من إنشاء هذه الحصون تقيم سياجا حول القرى ثم تدخل القرية بيتا بيتا وترغم القرويين على ملء بطاقات شخصية ، وكلما داخل القوات اليابانية شك فى شخصية أحد القرويين أو اشتبهت فى أن له ميولا نحو الجيش الأحمر أعدمته زمينا بالرصاص . ولم يأت شهر أغسطس حتى كان اليابانيون قد بنوا ١٥٠٠ حصن وطهروا ثمانية آلاف قرية من أنصبجار ماوتسى تونج .

أخذ ماو يقدح زناد فكره فى التخلص من هذا الخطر اليابانى الداهم على إقليم شنسى وأخيرا هداه تفكيره الى خطة ناجحة . كانت الأسيجة التى أقيمت حول القرى مصنوعة من الأغصان المصفورة ، وكان ماو يعلم ان شهر سبتمبر هو نهاية فصل الجفاف فى شمال الصين وأن هذه الأغصان لا بد وأن تكون قد جفت فى هذا الشهر ، فأمر بعض الفصائل الباقية من جيشه الثامن بأن تختبئ فى السهول المحيطة بمنطقة عمليات الجيش اليابانى ، وفى سبتمبر خرجت هذه الفصائل من مخابئها واشتعلت النار فى الأسيجة وامتد اللهب مئات الأميال لمسوى آلاف اليابانيين شيا وأحرق عددا كبيرا من سياراتهم . حقيقة أن بعض القرويين احترقوا فى هذه المفامرة الجريئة ولكن هذا أمر لم يكن من المستطاع تجنبه . وقد علق ماوتسى تونج على ذلك قائلا : لقد أنقذنا طليعة الثورة بأقل خسارة فى الأرواح الصينية .

ولما يشس اليابانيون من القضاء على عصابات ماوتسى تونج عرضوا مكافأة قدرها مليون دولار لمن يأتيهم برأس هذا البطل البائر عليهم . وفى أكتوبر ١٩٤٣ وجهت القيادة اليابانية فى الصين حملة قوامها عشرة آلاف

جندى ومعه « فرقة مراقبة خاضة » من خيرة الضباط لمهاجمة قوات ماوتسى تونج فى جبال تايبويه ، وكانت القيادة تعلم مقدما أن ماو سوف يجد وسيلة للقضاء على هذه الحملة ، ولكن القيادة سوف تستفيد بتضحية هؤلاء الجنود إذ أن فرقة المراقبة سوف تدرك أساليب ماوتسى تونج فى حرب العصابات ، وما أن وصلت الحملة معاقل الثسوار حتى أيدت عن آخرها باستثناء ثلاثة من المراقبين فقط . ليس هذا فقسط بل أن ماو ومساعدته الأيمن القائد لينى بياو قد ألقنا أساليب حرب العصابات للدرجة أن القوات المحاربة اليابانية التى خصصت لمواجهة هذه العصابات كانت أكبر من القوات التى خصصت لمواجهة جيوش الحلفاء الغربيين مجتمعهم فى جنوب شرقى آسيا .

وفيما بين عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ بدأت روسيا تساعد ماوتسى تونج فأرسلت كميات محدودة من الأسلحة والذخيرة الى شنشى مباشرة كما أرسلت اليه كتاب « حرب العصابات » الذى يتضمن تجارب الروس فى شن حرب العصابات على الجيوش الألمانية فى أوكرانيا . أخذ ماو والقائد لينى فى قراءة هذا الكتاب وما انتهى منه حتى صاح لينى قائلا : نشكر الظروف التى لم تهين لنا الحصول على هذا الكتاب مبكرا إذ لو أننا حصلنا عليه عام ١٩٤٠ لكنا اليوم فى عداد الهالكين .

وفى عام ١٩٤٤ قامت القوات اليابانية بمحاولة أخيرة لإخضاع الصين كلها فركزت عملياتها فى هذه المرة على إقليم هونان وكوانجسى وكوانتونج التى سيطر عليها الكومنتانج ، ولكنها كانت محاولة يائسة إذ أن الموكف أخذ يفلت من بين يديها وهذه الحقيقة كان يدركها معظم اليابانيين . وفى خريف ١٩٤٤ بدأت قوات الكومنتانج والقوات الشيوعية هجوما مضادا على اليابانيين ، وكانت الروح المعنوية عالية بين قوات ماوتسى تونج فى الشمال حيث تدفق عليها سيل من الأسلحة والذخائر . وهذا على النقيض من قوات شيانج كاي شيك فى الجنوب حيث أوشكت روحها المعنوية على الانهيار الكامل . ولذلك أصدر كاي شيك أمرا بتكوين جبهة متحدة تقوم بالهجوم المضاد . وفى ربيع ١٩٤٥ كانت الجبهة المتحدة قد حررت جانبا كبيرا من أراضى الصين وارتفع رقم السكان الذين تم تحريرهم الى مائة مليون مرة أخرى ، كذلك أدمج الجيش الثامن فى الجيش الرابع والقوات الصينية المتحالفة ضد اليابانيين فأصبحت تقرب من مليون جندي نظامى يضاف إليها مليونان من المليشيا ، واستطاعت هذه القوات الصينية أن ترد اليابانيين فى عزم وثبات نحو الشمال والشرق .

وفى ٨ من أغسطس أعلن الاتحاد السوفيتى الحرب على اليابان واحتل منشوريا ، وفى ٩ من أغسطس بدأ لماوتسى تونج قرب نهائية الحرب فأصدر أوامره بشن هجوم شامل على ما بقى من قوات اليابان فى شمالى الصين ، ولم يمض شهر حتى أعلنت حكومة طوكيو التسليم ، ولكن جيش التحرير الشعبى الذى كان تحت امرة ماوتسى تونج استطاع إبادة ربع مليون جندي يقودهم ضباط يابانيون وتحرير ثمانية عشر مليونا من الصينيين فى اللحظات الأخيرة .

ولما رأى ماوتسى تونج علامات النصر تبسرو في الأفق الفريب أدرك أنه قد آن الأوان لتخطيط مستقبل الصين . وأول ما فعله في هذا السبيل هو شن هجمات سريعة على اليابانيين حتى تصبح الأراضي الصينية التي في أيدي الروس في أضيق مساحة ممكنة وذلك لكي يتجنب وقوع حربه تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي في المستقبل . ثم دعا الحزب الشيوعي الصيني لعقد مؤتمر وبحث الخطوات التي تتبع فيما بعد .

وقد طرح ماو امام المؤتمر الأسئلة الآتية : هل أصبحوا من القوة بحيث يستطيعون حكم الصين كلها وحدهم والتخلص نهائيا من شيانج كاي شيك ؟ ماذا ينبغي أن تكون علاقاتهم مع بريطانيا وأمريكا اللتين لولا ما قدمتهما من مساعدات في الشرق الأقصى لكان انتصار الصينيين مستحيلا ؟ ما رأى الاتحاد السوفيتي في الموقف ؟ ما الذي ينتظر أن يسلم به شيانج كاي شيك للشيوعيين بعد أن أصبح ثلثا الصين تحت سيطرتهم ؟

بينما كان ماوتسى تونج ومؤتمره يناقشون هذه المسائل جميعها ويبحثون عن اجابات للأسئلة المطروحة ، اذ بطريقة التسليم اليابانية تجيب على كل أسئلتهم ذلك ان الولايات المتحدة اقترحت أن يتم تسليم الأراضي التي يسيطر عليها الضباط اليابانيون الى الكومنتانج . وفي الحال نقل الضباط شيانج كاي شيك بالطائرات الى عواصم الأقاليم لامتصاص عملية التسليم .

كانت هذه العواصم في أيدي قوات الكومنتانج ، ولكن المناطق الريفية خارج هذه العواصم كانت في أيدي قوات التحرير التابعة لماوتسى تونج ، وقد تمت عملية التسليم في المدن دون أية معارضة ، وكان مفروضا أن ينفذ ماو قرار التسليم دون أن يعارض هو الآخر ، ولكن معنى ذلك أن يجنى الكومنتانج ثمار الكفاح الطويل الذي قامت به قوات التحرير الشعبية ضد اليابانيين . وقد حاول ماوتسى تونج جس نبض زومنيا لعلها تفعل شيئا لمصلحة الشيوعيين الصينيين غير أن روسيا أفهمته أن تسليم اليابانيين الى تشانج كاي شيك والكومنتانج هو الطريق الصحيح ، بل ذهب الاتحاد السوفيتي الى أبعد من ذلك بأن جلت القوات السوفيتية عن منشوريا وسلمتها الى الكومنتانج .

هكذا وجد ماوتسى تونج نفسه في أواخر أغسطس ١٩٤٥ وقد هبط مركزه من بطل فاتح الى قائد عادي أو من يدري فقد يهبط أكثر من ذلك فيصبح مرة أخرى في صف زعماء العصابات .

ورأى ماو أن كثيرا من رجال الكومنتانج قد ملوا زعامة شيانج كاي شيك وخاصة بعد انزوائه في شيونكنج في حيث كانت قوات ماو تشن الهجوم تلو الهجوم على قوات الغزو اليابانية ، كذلك أدرك أن الصينيين عن بكرة أبيهم لا يريدون حربا أهلية أخرى ، ولذلك استقر رأيه أخيرا على الدخول مع شيانج كاي شيك في مساومة .

وفي ٢٨ من أغسطس ١٩٤٥ تزعم ماوتسى تونج وفدا من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني للاشتراك في محادثات بين الكومنتانج

والشيوعيين بشأن مستقبل الصين . وقد اتخذ هذه الخطوة بتسرع ودون استشارة شواين - لاي الذي اعتقد أن ماو سوف يفتال في هذه المرحلة . وقد وجد ماو أن كاي شيك تحت ضغط شديد من رجال الكومنتانج للوصول الى اتفاق مع الشيوعيين حتى لا تثار في البلاد حرب أهلية جديدة . ومن ناحية أخرى كان الجنرال الأمريكي جورج مارشال قد أشار على شيانج كاي شيك بأن خير ما يفعله لمصلحة بلاده في الظروف التي كانت تمر بها حين ذاك هو إيجاد نوع من الائتلاف مع الشيوعيين الى حين يرتفع مستوى معيشة الشعب الصيني وبذلك لا يرى ما يجذبه نحو الشيوعية . وفي ١٠ من أكتوبر ١٩٤٥ تم الاتفاق بين الكومنتانج والشيوعيين على إنشاء حكومة ائتلافية ، ونص الاتفاق على أنه يجب تجنب الحروب الأهلية لاي سبب كان ، وبما أن الطرفين قد اقرا ذلك فعليهما أن يلقيا جانبا ما بينهما من خلافات . وجاء في الاتفاق أنه يجب أن تبعث الصين من جديد على أن يسودها الرخاء والحرية وأن تقوم على أسس من السلام ، والديموقراطية والوحدة القسومية ، وينبغي تشكيل لجنة مشتركة لتسهر على تطبيق النظم الديموقراطية ، ووافق الحزب الشيوعي على الجلاء عن ثمان من التسع عشرة منطقة التي تم تحريرها بما في ذلك أقاليم أنهوى وكيانجسى وتشكيانج ، وتشنج ماوتسى تونج بتخفيض جيش التحرير الشعبي بنسبة ٢٠٪ في مقابل تسريح جزئي لقوات الكومنتانج .

لم يأت المؤتمر العام الذي عقده الكومنتانج والشيوعيون لوصف أسس ديموقراطية للحكم بثمرة طيبة فالطرفان لم يفهما معنى الحكم الديموقراطي ، كما أنهما يؤمنان بأن من الممكن قيام تعايش مشترك بينهما لفترة طويلة . وكان كثير من الأمريكيين يعتقدون أن الائتلاف سيؤدي الى تفكك الحزب الشيوعي ، في حين اعتقد الجانب السوفيتي ان هذا الائتلاف سيؤدي الى تفكك البورجوازية الديموقراطية التي يمثلها الكومنتانج .

كانت الخطة الرسمية للسياسة الأمريكية هي تأييد هذا الائتلاف. القصير الأجل ، ولكن أمريكا أخذت تضغط على شيانج كاي شيك من وراء ستار كي يقوم بحملة نهائية ضد الشيوعيين . وهكذا يدرك القارى أن بذور الحرب الباردة بين الشرق والغرب قد نبتت على أرض الصين ، كما أن الصين أول من اكتوى بنسماتها الحارة .

بمجرد ان اطمأن شيانج كاي شيك الى أن دوائر واشنطن تؤيد قيام حملة قوية ضد الشيوعيين ، شرع يدبر خطط الغدر ، وقبل أن يخط المداد على أوراق اتفاقية الائتلاف المعقودة بينه وبين ماوتسى تونج . في ١٠ من أكتوبر ١٩٤٥ نشر سرا كتيباً أطلق عليه اسم « مبحث في القضاء على العصابات » وكان موضوع الكتاب الحملة القادمة لآبادة الشيوعيين . وعقب على ذلك بشن هجوم على جيش ماوتسى تونج حين بدء انسحابه من المناطق التسع المحررة طبقا للاتفاق وقد اشترك في هذا الهجوم الشامل على الشيوعيين نحو مليوني جندي من الكومنتانج ، ركزوا هجماتهم على الجيش الأحمر في اقليمى شنسى وشاهار .

وقد باء الهجوم بالفشل لأن الجيش الأحمر كان حسن التنظيم والتدريب وروحه المعنوية عالية فضلا عن أن كثيرا من جنود الكومنتانج نفروا من القيام بعمليات عسكرية قد تكون بداية لحرب أهلية جديدة .

وحيثما تلقى ماوتسى تونج أنبساط هذا الغدر أبدى من الأناة وبعد النظر ما أثار الإعجاب ، فقد رفض أن « يلقي قفازه » وأعلن أنه يفرض الأمر للشعب الصيني ليقرر من هم الخونة ومن المخلصون للوطن . وفي هذه الأثناء كان ليوشاوتشي قد أعد العدة لتكوين « الرابطة الصينية المناهضة للحرب الأهلية » وكان حريصا على أن تكون غالبية الأسماء البارزة بين أعضاء الرابطة من الزعماء الشيوعيين .

وحيث عقدت الرابطة أول اجتماعاتها كان في استطاعتها أن تستعيد بعض الثقة التي بعثتها حكومة الائتلاف من قبل ، وكان في استطاعة شيانج كاي شيك أن يصدر أوامره بإعدام بعض القواد الذين شنوا الحملة على الشيوعيين وبذلك يتنصل من تحمل مسؤولية هذا العدوان ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك كما أنه لم يتح الفرصة أمام الرابطة لعمل شيء . وفي ٢٥ من نوفمبر اجتمع بعض طلبة المدارس والجامعات وأعدوا قرارات تمهيدا لإرسالها إلى الرابطة ، وكان الاجتماع سلميا لا ضرر منه . ولكن البوليس السياسي حاول القبض على المجتمعين . واستطاع زعماء الاجتماع الفرار ثم انتقموا من البوليس بعد اجتماع عام ضم الطلبة والمعلمين وألقيت فيه محاضرات عن الأمور الجارية في الصين . وفي هذا الاجتماع أصدر الطلبة قرارات شديدة اللهجة وصمت حكومة شيانج كاي شيك بأنها « دكتاتورية بوليسية » . ولما كان الاجتماع سلميا فلم يجد البوليس مبررا للتدخل ولكن وكالة الأنباء التابعة للكومنتانج أشاعت أن الطلبة جميعا من رجال العصابات الشيوعيين « وهنا ثار الطلبة وتجمع منهم في الشوارع ثلاثون ألفا يجاولوا إحراق وكالة الأنباء وأعلنوا الإضراب لمدة ثلاثين يوما حتى تعود حكومة الائتلاف إلى العمل وأن يستبعد شبح الحرب الأهلية نهائيا . وواجه بوليس الكومنتانج (تحت إشراف شيانج كاي شيك نفسه) هذه الحركة بإطلاق النار على الطلبة فأخذ هؤلاء يردون على عدوان البوليس بكل ما وصلت إليه أيديهم من سلاح واعتصموا بالحرم الجامعي وظل الإضراب قائما من نوفمبر إلى أوائل يناير . وامتدت حركة الإضراب إلى جميع المدن الصينية حيث أعلن الطلبة تضامتهم مع اخوانهم في كونمينج . وقد أشار بعض أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني على ماوتسى تونج بأن يمزق اتفاقية أكتوبر ويعلن الثورة النهائية ، ولكنه كان في انتظار كلمة من موسكو إذ رأى أنه لا ينبغي أن يخاطر بالدخول في حرب أهلية إلا إذا كان لديه ما يكفي من السلاح والخبرة ، فضلا عن أنه مادام الفريق المعتدى عليه باقيا فإن الصينيين سوف يهرعون إلى الجبهة الشعبية من كل صوب وجذب . أما موسكو من ناحيتها فإنها أخذت في التلذذ ، ذلك أن الكرملين كان يعتقد أن وجود شيانج كاي شيك ضروري كمقدمة « للثورة الصحيحة » ولعل ستالين كان لا يزال عاكف على رأي الذي سبق أن صرح به إلى هاري هوبكنز حيث قال : « يجب علينا ألا نأخذ الشيوعيين الصينيين مأخذا جديا » .

وعلى الرغم من تلك مؤسكو فقد أفرع شيانج كاي شيك اتساع نطاق حادث أول ديسمبر وتحوله إلى احتجاج وطني فبادر بالتفاهم مع الطلبة وأصدر قرارا بوقف إطلاق النار على الشيوعيين وقدم ضمانا بالآلا تنشب حرب أهلية في الصين .

ما كان ماوتسى تونج ليخضع بقرارات كاي شيك في هذه المرة ، فأوقف الجلاء عن شنسى وأخذ يرقب الحوادث ولكن لم يحدث ما يشير شكوكه في الشهرين التاليين . ويذكر القارىء أن الجنرال جورج مارشال كان قد نصح شيانج كاي شيك عام ١٩٤٤ بأقامة حكومة ائتلافية مع الشيوعيين ، وقد عاد الجنرال مارشال الآن ينصح كاي شيك مرة أخرى بالآلا يغامر بزج نفسه في حرب مع الشعب الصينى وحاول أن يثبت له بشتى الطرق ان الكومنتانج قد فقد تأييد الغالبية العظمى من أنصاره في داخل الصين وخارجها ، كذلك حاول مارشال أن يفهم أصدقاء شيانج كاي شيك ان كراهية هذا الرجل العجوز للشيوعية أعمته عن ادراك حقائق الموقف العسكرى ، ولكن محاولاته جميعها فشلت ، وعاد مارشال إلى واشنطن ليقدّم تقريراً لحكومته بأن حكومة شيانج كاي شيك فاسدة ضعيفة يجلبها الخزي والعار . ولما كانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت تسير على سياسة « حصر الشيوعية » فقد قبلت رأيه ولكنها وجهت إليه السؤال البتالى : « اذا كان شيانج كاي شيك غير صالح ، فمن غيره يستطيع تخليص الصين من الشيوعية ؟ » وهنا لزم الجنرال مارشال الصمت . فقبل مغادرته الصين بيوم واحد صدر قرار بأن وجود « عصبة الاحرار الديمقراطيين في الصين » غير قانونى ، وكانت هذه هي الهيئة الوحيدة التى يعتبرها مارشال بديلا للكومنتانج فى حكم الصين . وما دامت الولايات المتحدة تعتنق مبدأ « حصر الشيوعية » وأن فى استطاعتها أن تنفذ ذلك بالقوة ، فلم يبق أمامها الا أن تواصل تأييدها لشيانج كاي شيك مهما تكن أخطاؤه .

فى ١٠ من يوليو أعلن كاي شيك انه سوف يعد حملة أخيرة لتخليص الصين من العصابات الشيوعية ، وبعد يومين قامت قواته بهجوم عام على طول المجارى العليا لنهر اليانجتسى . وما أن أعلن كاي شيك حملته النهائية على الشيوعية حتى وقعت معه الولايات المتحدة معاهدة للصداقة والملاحة والتجارة . وفى اليوم التالى بعث الاتحاد السوفييتى تحية أخوية إلى ماوتسى تونج معلنا قراره النهائى بتقديم كل المساعدات للحزب الشيوعى الصينى « فى كفاحه ضد الاستعمار الفاشى » .

هكذا بدأت الحملة النهائية لشيانج كاي شيك ضد الشيوعية وبدايتها انتهت عهد التحالف بين روسيا وأمريكا ووضعت أسس جديدة لعلاقتها المستقبلية . أما القائد الأعظم فقد أخذ بتحسين طريقه نحو فرموزا .

الفصل الثامن

حينما تخلى شيانج كاي شيك عن كل مظهر للتعاون مع ماوتسى تونج والشيوعيين ، كان على ثقة من أنه سوف يغزو الصين كلها فى مدى خمسة أشهر ، كان لديه جيش مكون من ٣٠٠.٠٠٠ ر ٤٣٠.٠٠٠ جندي حشنى والتدريب ، وكان قواده يعرفون طبيعة الارض معرفة جيدة ، وقد قطعت أمريكا على نفسها عهدا صريحا بأن تقدم له هونا كاملا فى حملته الشاملة للقضاء على الشيوعية ، وهذا التعهد الأمريكى كان أقوى لديه من أى سلاح آخر ، وكان شيانج كاي شيك على ثقة من أن أمريكا صديقة فى وعددها له بتقديم المعونة الكاملة ، ذلك أن محور السياسة الخارجية الأمريكية طوال عشر سنوات كان الخوف من التوسع الشيوعى ، ويعزز موقفها ضد الشيوعية فى الصين ضغط رجال الأعمال الأمريكىين الذين فقدوا كثيرا من مصالحهم خلال الحرب الصينية ، وهؤلاء على ثقة من أن حقوقهم سوف تعاد اليهم كاملة اذا ما بقيت الصين تحت حكم الكومنتانج فى رعاية الولايات المتحدة . هذا الخليط من الخوف والطمع كان السبب الأول فى تزويد قوات شيانج كاي شيك بالسلح والذخيرة والاغذية الكافية بل بأكثر مما يلزم .

أما قواد كاي شيك فهم الآخرون كان لديهم ما يبرر التفاؤل ، فخصومهم الشيوعيون وان كانوا مهرة فى حرب العصابات إلا أنهم أقل كفاية فى معركة مكشوفة ، ومن ناحية أخرى كان الكومنتانج يسيطر على أقاليم صينية تضم ثلثمائة مليون من السكان بما فيها المدن الكبرى والمؤسسات الصناعية والتجارية الهامة والبنوك ، وكان فى استطاعة الكومنتانج أن يعتمد على تأييد البنوك والمؤسسات الكبرى لغلمهم أن الحكم الشيوعى لابد وأن يقترب به فرض القيود على المشروعات الحرة . هذه خلاصة الموقف من وجهة نظر شيانج كاي شيك والكومنتانج .

فاذا انتقلنا الى الجانب الآخر نجد المستقبل أمام ماوتسى تونج ليس على هذه الصورة الزاهية . حقيقة أن جنوده أشدها حسنة التدريب ولكنهم لم يتمرسوا بالمعارك النظامية ، وكانت قوات الكومنتانج تحيط بهم من كل جانب وكل المدن الكبرى فى الشمال الشرقى وفى منشسوريا فى أيدى الكومنتانج ، وما كان ماوتسى تونج ليعتمد على إقامة طابور خامس من العمال مع أنهم « العمود الفقرى للثورة » فى نظر موسكو ، فالأموال كلها فى الجانب الآخر والعامل الصينى يقدم ولاءه لمن يدفع له أجرا أكبر بانتظام ، وكان ماو على يقين من أنه اذا ساءت حالة العمال كما حدث فى الحرب الأهلية السابقة فسوف يعمدون الى الاضراب وبذلك يتهارد الاقتصاد كما أنهم لن يتحملوا المتاعب الوقتية الا اذا تحققوا من أن النصر سوف

يكون في جانب الشيوعيين . وأخيرا فان المليون ومائتي ألف جندي الذين يكونون جيش التحرير الشعبي كانوا يجدون أصدقاءهم الحقيقيين بين الفلاحين الذين أثبت لهم ماوتسي تونج أن الشيوعية سوف تحل محل نظام ملكية الأرض نظاما آخر أكثر ربحا وأشد ثباتا وأقل إرهاقا .

لكن ماوتسي تونج وجد له خليفاء جديدا يتمثل في الطبقة المتوسطة من التجار والموظفين الذين حطمتهم الحروب وجمعت الجوانب الأكبر من ثروات الصين في أيدي الأشرار الأربعة .

وهذه الطبقة المتوسطة سواء في الصين أو في أي مكان آخر على وجه البسيطة لا تثير اضطرابا ولا تستشعر القلق ما دامت تانس من أولى الأفر استعدادا لفتح الفرصة أمامها كي تحيا حياتها العادية . ولما كان شيانج كاي شيك قد تسبب في هبوط مستوى معيشة هذه الطبقة ، وعلى التمهيز من ذلك كان ماوتسي تونج الذي هيا الجو لقيام مشروعات فردية في مجتمعه الجديد ، فقد أظهرت الطبقة المتوسطة استعدادها للعمل معه على الرغم من أنه شيوعي .

كذلك تلقى ماوتسي تونج بعض المساعدات المادية من الاتحاد السوفييتي ، فبغلي الرغم من أن الروس سلموا منشوريا الى الكومنتانج فانهم تركوا مستودعات الأسلحة والذخيرة اليابانية في الريف الى الميليشيا الشيوعية الصينية . وقد كان لهذه الكميات الضخمة من الأسلحة والذخيرة الفضل في تموين قوات ماوتسي تونج في منشوريا في أثناء معاركها في شمال شرقي الصين ، كما تبقى منها فائض استخدمه ماو في تعبئة قوات جديدة حينما انتقلت المعركة نحو الجنوب . أضف الى ذلك كله ان الاتحاد السوفييتي كان بين عين وآخر يرسل الأسلحة والذخائر رأسيا من منطقة جبال أوريا الى القوات الشيوعية الصينية في شمال غربي الصين .

كان لهذه المساعدات السوفييتية قيمتها بالنسبة لماوتسي تونج على الرغم من أن ستالين كان يمنحها بيد الشع ، ذلك أن ستالين ظل حتى عام ١٩٤٧ غير مقتنع اقتناعا تاما بأن ماو يستطيع أن يتزعّم حركة ثورية ناجحة وينشئ حكومة سوفييتية قوية في الصين .

لما بدأت حملة شيانج كاي شيك ضد الشيوعيين عام ١٩٤٦ عززت ثقته بالنصر كما أيدت شكوك ستالين ومخاوفه ، ذلك أن قوات كاي شيك استطاعت أن تطرد الشيوعيين من ١٠٥ مدين ، وفي ١٩٤٧ استولت هذه القوات على يينان عاصمة الحكومة الشيوعية مما رفع الروح المعنوية بين قوات الكومنتانج ، وقد كان المفروض لأول وهلة أن ضياع العاصمة سيؤدي الى الهيار معنويات جيش ماو ، ولكنه على العكس من ذلك تراجع بحكومته الى المرتفعات الداخلية في اقليم شتنسي . وفي العام التالي أصبحت قوات الكومنتانج تسيطر على شمالي الصين وعلى كل أجزاء الصين الواقعة جنوبي نهر يانجتسي ، وكانت خطة شيانج كاي شيك أن يحصر قوات ماوتسي تونج بين جيشه الشمالي وبين نهر يانجتسي ثم يقلب بها الى البحر أو يدفعها للتقهقر نحو المناطق الجبلية الوعرة .

وفي يوليو ١٩٤٧ بدأت قوات الكومنتانج تزحف شمالا نحو شانتونج وهي مفتاح الطريق الى شمال الصين والاستيلاء على المنطقة التي تقع فيها شبكة حديد بيكين - تينتن - نانكينج ، وقد أدرك ماوتسي تونج أنه لو استطاع الكومنتانج السيطرة على الشبكة الحديد لسهل عليهم طرده من آخر بقعة خصيبة باقية لديه واخضاع لفرق الميليشيا التابعة له في منشوريا وهنا صمم ماوتسي تونج على قطع الطريق على قوات الكومنتانج فامر قواته بأعداد أكبر تعبئة من الميليشيا ورجال العصابات والزحف بهم الى شانتونج ، وبهذه الطريقة فاجأوا قوات الكومنتانج وأوقعوا بهم شر هزيمة . أثارت هذه الهزيمة غضب شيانج كاي شيك ولكنه تخلى عن فكرة احتلال شانتونج مؤقتا واتجه الى اخضاع منشوريا .

ان التاريخ يقول : ان من يحكم الصين لن يكون آمنا في الجنوب ما دام هناك ما يهدده في منشوريا . ولما كانت قوات كاي شيك تحتل جميع المدن الكبرى في منشوريا فقد خيل اليه انه من السهل اخضاع بقية اجرائها ، ولذلك ففي خريف ١٩٤٧ أنزل خيرة جنوده على ساحل منشوريا وأصدر أوامره اليها بالزحف نحو موكن لرفع الحصار عنها . وبادر ماوتسي تونج بإرسال قواته تحت امرة قائده الشهير لين بياو ولم يحاول لين الدخول في معركة مع احسن جنود كاي شيك تدريبا وأقواهم سلاحا ، ولكن ما ان استقر هؤلاء الجنود في المدن حتى أحاطت قوات لين بياو بهم من كل جانب وتركهم أمام أحسد البديلين : فاما أن يستسلموا أو يموتوا جوعا .

أما جيش التحرير الشعبي فقد أخذ يعزز مواقعه في شمال وشمال غربي الصين ، فزحف من شانتونج الى هونان وهوبي وحاصر بيكين وتينتن . وفي ٢٢ من أبريل ١٩٤٨ قاد ماوتسي تونج جيشا آخر واستعاد عاصمته بيكين . وهكذا استعاد ماوتسي وقواته الجانب الأكبر من الصين شمالي نهر اليانجتي .

في حين كانت العمليات العسكرية على قدم وساق بين قوات الكومنتانج وقوات الشيوعيين ، كان الاقتصاد الصيني ينهار في الجنوب وهي المنطقة التي يحكمها الكومنتانج دون منازع ، وقد أعلنت الطبقة المتوسطة الاضراب فتمطلت حركة التجارة ووقف دولا العمل في الحكومة ويرجع هذا الاضراب الى أن الاتفاقية التي عقدها شيانج كاي شيك مع أمريكا نصبت على أن تدخل الصين أية كميات من المنتجات الصناعية الأمريكية على أن تعفى من الرسوم الجمركية ، ولما لم تستطع المنتجات الصناعية المحلية في الصين منافسة هذه المنتجات الأمريكية فقد توقفت ، كما توقفت معها تجارة الصادرات ، وبادر التجار الصينيون بشراء سبائك الفضة وأخذوا يعللون النفس بقرب انتصار الشيوعيين أما الأسرات الأربع فهي الوحيدة في الصين التي ازداد ثراؤها إذ كان الباب مفتوحا أمامها للتجارة حيثما شاءت كما أخلت تتلاعب بسوق العملة ولما احتجت الجامعات على هذا النشاط التجاري الضار بمصلحة الوطن وضعت تحت رقابة صارمة من البوليس ، ولما أخلت المصانع والورش والمكاتب بالتجارية الصينية تغلق

أبوابها بسبب التضخم النقدي الخطير وعجزها عن الوقوف في وجه المنافسة الأمريكية بدأ العمال يدركون أن أصدقاءهم الحقيقيين هم مائتسن-تونج وحزبه الشيوعي العجيب . وفي ٣١ من مارس ١٩٤٨ بدأ هؤلاء العمال سلسلة من الاضرابات التي شلت حركة مائتسن-تونج في مدينة شنغهاي من نشاط صناعي وكلما أطلقت النار على المضربين ازداد عددهم بانضمام بقية أهل مدينة شنغهاي لهم ، وأخيرا عم الاضراب جميع المناطق الجنوبية في الصين وفي يوليو ١٩٤٨ دعا ماوتسي تونج لعقد مؤتمر لبحث المرحلة التالية من حملته للسيطرة على الصين ، وقد رأى أنه يجب الاستيلاء على جميع منشوريا قبل البدء في شن هجوم عام على الكومنتانج في الجنوب ، ولكن رفيقه ليوشاوتشي أشار عليه بالتريث ، بناء على توجيه من ستالين الذي كان يمر بأزمة عنيفة ضد أمريكا في برلين . ومن مصلحته الضعاف أمريكا باستنزاف قوتها ومواردها في جهات أخرى .

وقف ماو موقف المتردد ، ولكن كثيرا من رجاله أبشوا قلقهم، وألحوا عليه في بدء حملة عنيفة على حكومة نانكنج الضعيفة وبانقطاعها تكون ثورته قد حققت النجاح . وقد اتخذ ماو موقفا وسطا فترك قوات الكومنتانج في منشوريا تحت الحصار حتى تموت جوعا أو تستسلم. ولكنه من ناحية أخرى قام بحملة كبرى لتعزيز مركزه في المنطقة الواقعة بين نهر يانغتسي وجنوبي منشوريا .

وفي سبتمبر ١٩٤٨ بدأ ماوتسي تونج تنفيذ خطته ولم يمض الا وقت قصير حتى تم طرد قوات الكومنتانج نهائيا من اقليم هونان .

وقد قام شيانج كاي شيك بمحاولة يائسة لانقاذ قواته المحاصرة في منشوريا ولكن خطته فشلت فشلا ذريعا واضطرت خيرة قواته في منشوريا الى التسليم بكامل عدتها . ولما بلغته أنباء استسلام قواته في منشوريا وضياح هذا الاقليم منه نهائيا لم يسعه الا الفرار عائدا الى عاصمته نانكنج . وفي ديسمبر ١٩٤٨ زحف جيش التحرير الشعبي نحو بيكين وتينتنسن. واستولى على عاصمة الامبراطورية في ٣١ من يناير ١٩٤٩ .

ولما دخلت الحرب الأهلية مرحلتها النهائية ، ضغطت حكومة واشنطن على شيانج كاي شيك كي يعرض على ماوتسي تونج اقتراحا بالصالح والتعاون بشرط اعتبار كل منهما يتكلم « من مركز القوة » ولكن ماو أعلن انه لن يقبل أية معاملة مع شيانج كاي شيك تحت أي ظرف من الظروف باستثناء حالة واحدة فقط وهي أن يتقدم شيانج كاي شيك لتسليم زمام الكومنتانج الى ماوتسي تونج ويقدم نفسه للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى .

وفي مارس ١٩٤٩ تنازل شيانج كاي شيك عن رئاسة الكومنتانج الى القائد لي تسونج جين . وقد وضع الأحرار الصينيون كل أملهم في الجنرال لي عله يستطيع انقاذ الموقف في أثناء مفاوضاته مع ماوتسي تونج وينشئ حكومة صينية جديدة لا يمثل فيها الشيوعيون .

أرسل ماوتسي تونج زميله شواين لاي ليجتمع سرا مع الجنرال لي في بيكين ، وعرض شو على الجنرال شروط ماوتسي للصالح وهي تتلخص في

تكوين حكومة ائتلافية يكون للشيوعيين فيها الاغلبية ووضع القوات المسلحة جميعها تحت اشراف شيوعى . وتسليم جميع مجرمى الكومنتانج رهن المحاكمة . ولما كان قبول هذه الشروط معناه التسليم المطلق فقد رفضها الجنرال لى وعاد الى الجنوب .

يرى بعض أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى ان ماوتسى تونج قد ارتكب متن الشطط فى المطالبة بهذه الشروط ، وكان الواجب ان يتساهل قليلا كى يحفظ « للوطنيين » بعض ماء وجههم ، ويضيف هؤلاء انه لو تم ذلك اذا لاستطاع الشيوعيون ان يصلوا الى الحكم بطريق قانونى ، ومن ثم فانهم يحلون محل شيانج كاي شيك فى مقعد الصين الدائم بالامم المتحدة وتكون حكومة شرعية تعترف بها جميع الدول الأجنبية . ولكن سبق السيف العزل .

وفى ٢١ من ابريل ١٩٤٩ أصدر ماوتسى تونج امره اليومى الى جيش التحرير الشعبى وهذا نصه : « عليكم ان تتقدموا فى زحفكم ببسالة ، وتمحوا باصرار وعزيمة جميع العناصر الرجعية من الكومنتانج داخل حدود الصين محوها نهائيا اذا أثارت أمامكم أية مقاومة ، وعليكم ان تحرروا الشعب الصينى وان تدافعوا عن سيادة البلاد ووحدتها الاقليمية . »

ولما أبلغ الأمر اليومى الى قوات جيش التحرير التى تزيد على مليون وقفت فى صفوف متراصة على جبهة عرضها عشرون ميلا على طول شاطئ اليانجتسى وارتفعت أصواتها بنشيد « زحف المتطوعين » وهتفت من الأعماق « فليحيا ماوتسى تونج » . وفى اليوم نفسه رقع علم الجمهورية الشعبية فوق قصر الرئاسة الذى كان يقيم به شيانج كاي شيك فى تانكنج .

أما فى الشمال فان جيش التحرير اكتسح امامه كل ماصادفه من قوات - الكومنتانج ، وكلما مر باقليم اتخذ الفلاحون كل مااستطاعوا ان يتسلخوا به وانضموا الى الجيش الظافر . وما أن تجمعت فيالق جيش التحرير أخيرا على طول الساحل الجنوبى حتى كان عددها يزيد على ثلاثة عشر مليونا من الجند الأشداء .

حاول شيانج كاي شيك أن ينتحر ولكن أسرته حالت دون تنفيذ تلك الفكرة المربعة وأخيرا فر الى فرموزا .

لم يبق له الا تلك الجزيرة الصغيرة التى يحرسها الأمريكيون ، والآن سراب من الأمل فى أن يعود يوما الى بلاده . لقد تخلت عنه أسرته ، أما الاسرات الثلاث الكبرى فقد فرت الى أمريكا وأما تشنج - لنج شقيقة زوجته وأرملة الدكتور صنون يانت سن « والرمز الحى لثورة ١٩١١ » فقد انحازت الى جانب الشيوعيين .

وسار ماوتسى تونج فى أعقاب جيشه الى اقليم هونان ، وهناك قضى .

يوما كاملا في تشانج شا عاصمة الاقليم ومهد ذكرياته . ترى ، ايمكث
هنا قليلا ليشاهد ماتبقى من مدرسته القديمة ، والمكان الذى شنت فيه
زوجته الاولى ، وأول اجتماع عقد تحت رياسته ؟ .

انها ذكريات غالية ولكن الرجل المرحف الحس لم يحتمل وقعها على
نفسه لقد تناول طبقه المفضل من الأرز والفلفل الأحمر . . ثم طار
الى بيكين ليتوج . .

الفصل التاسع

بعد ظهر يوم ٣١ من أكتوبر ١٩٤٩ اهتزت أعواد الخيزران نردد هتاف جماهير لا حصر لها من أبناء الصين تجمعت في ميدان تين آن مين في بيكين لتستمع الى زعيمها ماوتسى تونج يلقي خطابه التاريخي معلنا مولد جمهورية الصين الشعبية .

وفي الساعة الثالثة اعتلى ماوتسى تونج منبر الخطابة وألقى كلمة موجزة أعلن فيها قيام الجمهورية الشعبية لتكون « ظليعة للسلام في آسيا » . ثم رفع علم التحرير ، وقد بدت على ملامحه السكينة والصفاء ، ولكن مالبثت الصورة الهادئة ان انقلبت الى غضبة الثائر . فرفع صوته في الميكروفون مهددا : « فليحذر الرجعيون داخل الصين وخارجها ! » . وهتافا علا الهتاف مرة أخرى بحياة البطل ، وعزفت الموسيقى « نشيد زحف المتطوعين » وهو النشيد الوطني المؤقت لجمهورية الصين الشعبية .

الى الغرب من بيكين ، جلس ستالين الى الراديو يستمع الى مراسل اذاعة موسكو وهو يصف الاحتفال بمولد الجمهورية الجديدة . فهز رأسه في عجب اذ تذكر ماسبق ان صرح به الى هارى هوبكنز منذ أربع سنوات بأن الثورة الجديدة في الصين لا ينبغي أن تؤخذ مأخذ الجد .

والى الشرق من بيكين صورة قاتمة ليجار آخر . تطلع الى نجومه الخمسين ثم حمد الله على أن بين بيكين وسان فرانسيسكو محيطا واسعا متلاطم الامواج .

والى الجنوب من بيكين أخذت استراليا تنظر في قلق الى أراضيها الفسيحة الخالية من السكان وتتخيل شبح « الخطر الأصفر » يبعث من جديد بعد أن دفنه الغرب تحت أنقاض هيروشيما .

لم يحفل ماوتسى تونج بعجب موسكو ولا بقلق واشنطن ولا بفزع كانبيرا ، بل التفت مبتسما الى همدوء الى رفاقه في الجهاد : ليوشاوتشى وتشوتيه وشواين لاي وتشن ييه وينج تيه - هواي . لقد ظل هؤلاء الرفاق في قلب المعركة عشرين عاما طويلة من أجل هذا اليوم . ورد الرفاق على نظراته اباسمة بنظرة حب وتقدير ، وكيف لا وقد أصبح هذا الفلاح الحشن ذو الحصل الثائرة في سن السابعة والخمسين زعيما غير منازع لربع سكان العالم .

ثم يقف البطل طويلا لينعم بمشاهدة النصر فما انتصفت الساعة الخامسة حتى تابط ذراع ليوشاوتشى تشيه قائلا : هيا الى العمل .

كان هم ماوتسى تونج الأول توفير الغذاء والكساء للشعب ووضع
أسس سليمة للاقتصاد ، وقد قام بحملة واسعة النطاق لتحقيق هذين
الهدفين . ولما كانت الصين فى الأغلب الأعم بلادا زراعية فقد كان الفلاحون
هم أول من أحس بهذه الانتفاضة الكبرى فى تاريخ الصين ، وفى بعض
المناطق وضعت برامج واسعة للمزارع التعاونية ، وفى مناطق أخرى
انتزعت الأرض من ملاكها القدامى وأعيد توزيعها على الفلاحين بحيث
تحصل كل عائلة على ما يغطى نفقاتها الضرورية ووجه ماوتسى تونج عنايته
الى انشاء نظام تعاونى لشراء البذور واستخدام الآلات الزراعية وتسويق
المنتجات .

لقد واجهت الدولة الناشئة مصاعب فى فترة الانتقال من المشروعات
الفردية الى التعاون مع الدولة ، وعارض الفلاحون الذين استمتعوا لأول
مرة فى حياتهم بملكية الأرض فى التنازل عما اكتسبوه من حقوق . لقد
اعلن أبو الثورة الصينية صون يات سن أن « الأرض لمن يزرعها » ولكنه
لم يبين للمالك الجديد كيف يتصرف فيما ملك . وجاء ماوتسى تونج
فسد هذه الثمرة ، فبعد الاستيلاء على أرض الملاك القدامى أعيد توزيعها
على أساس الملكية الحرة .

وإذا فكل محاولة لتحويل الأرض الى مزارع جماعية أو حتى إعلان
أن النظام الجماعى سوف يطبق مستقبلا لابد أن تثير ثائرة الفلاحين الذين
كانوا حين ذاك غير مطمئنين الى نوايا الشيوعيين . ولكن ماوتسى تونج
يدرك ادراكا تاما أنه ما كان ليحقق أهدافه الثورية لولا تأييد الفلاحين .
لا بل أنه لن يستطيع البقاء فى الحكم إذا ما أغضب الفلاحين .

لذلك وضع خلا وسطا يرضى الاتجاهات المختلفة فقد تعهت الحكومة
بأن تمد الفلاحين بأحسن البذور وتقدم لهم الآلات الزراعية نظير إيجار
منخفض وتبيع للجمعيات التعاونية أبقارا وخنازير من أجود السلالات
حتى تكون نواة لثروة حيوانية مشتركة ، وذلك كله فى مقابل موافقة
الفلاحين على النظام التعاونى . ولما انتشرت الحركة التعاونية فى جنوبى
الصين ثم انتقلت الى شمالها بددت مخاوف الفلاحين ، ولم يعودوا
يخشون أن ينتزع منهم ما امتلكوه أخيرا . ولم يتخذ ماوتسى تونج فى
هذه الفترة عن برنامج لخمسينات القرن العشرين فقد كان كل همه فى
عام ١٩٥٠ أن يحصل على أكبر إنتاج من الأرز والحبوب الأخرى وأن
يكسب ثقة الصينيين الذين كانوا لا يزالون على شك فى نواياه .

بدأ بناء السدود والخزانات وقد أثلج صدر الفلاح أن هذا العمل
قد تم دون أن يكلفه أى مبلغ من المال ، وكان الفلاح الصينى لا يزال يدفع
الضرائب ولكنه الآن يدفعها مرة واحدة وفى موعد محدد ولمندوب الحكومة
الذى لا ينتظر رشوة فى مقابل تخفيض تقدير الضريبة ، وهنا وجه ماوتسى
تونج خطابه الى الفلاحين قائلا : أنتم الآن تدفعون ضرائب للدولة وهى
بدورها تقدم لكم خدمات فى مقابل هذه الضريبة . ولم تعودوا الآن
تدفعون ضرائب أخرى للاقطاعيين من ملاك الأراضى لأننا قد ألغينا هذا
النوع من الملكية .

لقد منعت الحكومة الجديدة نهائيا جباية الضرائب مقدما ، كما كان يحدث في عهد الكومنتانج حيث كان الجباة يجمعون الضرائب لمدة عشرين سنة قادمة ، وغالبا ما كان الجانب الأكبر من هذه الضرائب يذهب الى جيوبهم .

وبحقوق البرنامج الأول للإصلاح الزراعي نجاحا كبيرا ، وهو وإن لم يزد رقعة الأرض الزراعية كما كان يأمل ماوتسي تونسيج إلا أنه زاد الغلة بنسبة ظاهرة ، واطمأن ماو على أن فصل الشتاء سيجيء ولدى الفلاح « ما » يكفي بله وعائلته بالأرز .

وبعد أن انتهى ماو من ملء البطون وجه اهتمامه الى كساء الأجسام العارية . وجد أن مئات الألوف من المغازل الصينية معطلة منذ أن أغرقت أمريكا أسواق الصين بمنتجاتها الصناعية ، وكان لا بد له من التعاون مع الرأسماليين في سبيل انعاش صناعاتي الغزل والنسيج . وهنا يفرق ماو بين نوعين من الرأسماليين : فهناك كبار الرأسماليين وهؤلاء ترتبط مصالحهم بالمصالح الأجنبية وإذا فهم ليسوا على شيء من الوطنية الحقيقية ، وهناك في الجانب الآخر فريق الرأسماليين الصغار وهؤلاء أطلق عليهم اسم « الرأسماليون الوطنيون » وقرر التعاون معهم على انعاش الصناعة الصينية حتى لو أدى ذلك الى « قلق كارل ماركس في قبره » جمع ماو اصحاب المغازل ومصانع النسيج وطلب منهم تقدير الاستهلاك الشهري لمصانعهم من القطن أو الخامات الأخرى في السنوات الخمس السابقة وتكاليف المواد الخام وعدد العمال والموظفين اللازمين لتشغيل المصنع والتمن الذي يمكن أن تباع به المنتجات والمستوى العادي للأرباح التي يتوقعها صاحب المشروع . بعد ذلك عرض ماوتسي تونسيج على هؤلاء الرأسماليين أن تبيع لهم الدولة الخامات وتضمن سوقا لمنتجاتهم الصناعية بالسعر الذي تحدده ، والفرق بين سعر التكلفة وثمان المنتجات المباعة يغطي الأجور (التي تحددها نقابات العمال) والنفقات الأخرى والربح الصافي بعد ذلك يعتبر « راتبا سخيا لصاحب المصنع بصفته مديرا للمشروع » . وخير ماو هؤلاء الرأسماليين بين قبول اقتراحه أو رفضه ولكنه أشار الى أنه في حالة الرفض عليهم أن يغادروا الصين بعد دفع الضرائب المتأخرة على أن تشتري الدولة منهم مصانعهم بأثمان عادلة .

أدرك الرأسماليون الوطنيون ما يقصده ماو بحديثه اليهم ، ففي حالة الرفض والتصفية سوف يرهقهم بضرائب متأخرة سوف تستنفد ما يقدر من ثمن مؤسساتهم الصناعية ، فلم يسعهم إلا القبول . وهكذا فتحت المصانع أبوابها ، وحرصت الحكومة على ألا يكون هناك من الفرق بين السعر الذي حددته لبيع الخامات والسعر الذي حددته لشراء المنتجات ، ما يسمح بأي نوع من الاستغلال أو تجميع الثروة . وعندما اقترح اصحاب المصانع على شواين لاي رفع أسعار المنتجات لمواجهة أعمال الصيانة واستهلاك الآلات أبلغهم أنه في حالة عدم الرضا عن الاتفاق الحالي فالطريق أمامهم مفتوح للتصفية ومقادرة البلاد ، وأخيرا حاول اصحاب المصانع طرد العمال الزائدين على الحاجة في مصانعهم ولكنهم أبلغوا أن الصين الحديثة لا تقبل أن يفصل عامل من عمله وأن عليهم أن يدبروا أمرهم مع المحافظة على الوضع القائم .

وعلى الرغم من جميع العوائق التي اعترضت طريق التنمية الصناعية فقد أعيد افتتاح المصانع بازدياد مطرد ، بل ان الصينيين الذين كانوا قد فروا الى هنج كنج وسنغافورة أخذوا يعودون الى بلادهم ليعملوا جنبا الى جنب مع ماوتسى تونج فى تنفيذ برنامج الصناعة ، وخير تفسير للاتجاهات الفكرية لهؤلاء العائدين ما صرح به أحدهم للبروفيسور فترجيرالد الأستاذ فى الجامعة الاهلية باستراليا حيث قال هذا الصينى : « لقد عدت من هنج كنج الى شنغهاى لا لانى أتوقع أن يسمح لى بتكوين ثروة جديدة ، ولكن لانى أيقنت ان الشيوعيين لن يعترضوا على وجودى ما دمت لم أكن قاسيا على عمال مصنعى . وأنا الآن أكسب عيشى وأهتم بأداء عملى ، وعلى الرغم من أن ابنى لن يرث مصنعى ، فهى مهنة مهندس ذو كفاية فى أداء عمله واذن فقد ضمن العمل دائما كخبير فنى . لقد بذلت جهدا كبيرا فى إدارة مصنعى فى عهد حكومة شيانج كاي شيك وجمعت ثروة كبيرة ولكن ثروتى كانت مهددة بين آونة وأخرى أن يفتصبها أحد الدكتاتوريين العسكرين ، أو أن يمنح أحد الاحتكاريين امتيازات يترتب عليها تبديد ما اكتسبته من أرباح . لقد كان العام الجديد يبدأ وأنا لا أدري ماذا يكون مصيرى فى نهايته . أما الآن فقد أصبح هذا المصير واضحا أمام عيني ، فأنا أدير المصنع ، لحساب الدولة ، ولكن رزقى مكفول وسوف يظل كذلك حتى أموت » .

وقد أنشأ ماوتسى تونج نظاما ضريبيا جديدا لهؤلاء الرأسماليين الوطنيين ، حتى يبدد من أذهانهم أى وهم قد يصور لهم أن الأمور سوف تسير سيرا ليئا فى المستقبل . فابلغهم أن أية صناعة تبقى فى القطاع الخاص سوف تقدر لها ضريبة على جملة انتاجها ، فعلى أصحاب مصانع النسيج مثلا أن يتضامنوا لسداد جملة الضرائب المفروضة على هذه الصناعة ، وكل ما يهم الدولة هو أن تحصل على الضريبة المقررة على مصانع النسيج كاملة ، وقس على ذلك باقى الصناعات .

أخذ أصحاب المصانع يثنون ويزمجزون ولكن المصانع ظلت مفتوحة واستطاع ماوتسى تونج أن يحصل على ملايين الياردات من الأقمشة اللازمة لكثاء فلاحيه فى مزارعهم التعاونية . ومن الطبيعى أن الأقمشة صارت أرخص المنتجات الصناعية ، وقد صنع منها للفلاحين أبسط الأزياء ، فهذا الزى يتكون بالنسبة للرجال والنساء على السواء ، من قميص وسراويل مصبوغة باللون الأزرق وهو أرخص الاصباغ . ولم ينته عام ١٩٥٠ حتى خلت صورة المجتمع الريفى فى الصين من الألوان التقليدية الزاهية وما كان يتخللها من ملابس حريرية مطرزة ، وأصبحت المزرعة والمصنع مثل « عش النمل » تتجمع فيه وحوله ملايين النملات الزرقاء التى تعمل فى عزيمة صادقة تحت توجيه شخص من ملكة النمل الكبرى ممثلة فى شخص ماوتسى تونج ، أما روح القرديّة القديمة فقد أصبحت فى زوايا النسيان .

لقد عاد النظام الى المجتمع الصينى مع وحدة الهدف ووحدة العمل . فبطلت السرقات فى الموانئ والمدن بين عشية وضحاها ، ووجدت المؤسسات الأجنبية التى تعاملت مع الصين الجديدة أن القيود التى فرضت على نشاطها تعرضها السرعة والكفاية والأمانة التى أصبحت تسود الموانئ ،

وتسود الأسواق • وتحسنت المواصلات فدب الأمان والنشاط في السكك الحديدية والطرق •

ولم يكن من المتوقع في السنوات الأولى التي أعقبت فوزي الحرب - الأهلية واضطراب حكم الكومنتانج أن يصل الانتاج الى رقم قياسي ، ولكن ما أمكن انتاجه - وقد زاد كثيرا عن العهود الماضية - تم توزيعه بكفاية وعدالة • كذلك أمكن ايجاد حل لتلك المشكلة الصينية التقليدية وهي وفرة المحصول في الجنوب والمجاعة في الشمال • لقد حدث في السنوات الأخيرة للحرب الأهلية أن كانت شنغهاي تمون بالأرز الأجنبي المنقول اليها بحرا ، على الرغم من وجود فائض من محصول الأرز في جهات أخرى من الصين ، ويرجع ذلك الى أن الأرز كان يوزع في جنوبي الصين عن طريق الوكالات وهذه كانت تعتمد الى « تخزين الفائض » ، وأحيانا كان هذا الفائض يترك تحت تصرف الحكام المحليين وهؤلاء بدورهم كانوا يخزنونه في أثناء وفرة المحصول ليبيعه باثمان فاحشة في أثناء المجاعات • فلما جاء العهد الجديد لم يجد ماوتسي تونج كبير عناء في ايجاد حل للمشكلة ، وكل ما عمله هو ايجاد وسيلة منظمة للنقل بين المناطق المتخمة بالمحصول والمحرومة منه ، وخاصة في حوض نهر اليانجتسي الذي كانت تظهر فيه هذه الفوارق الكبرى في الانتاج • وهكذا تم تموين شنغهاي وكانتون واقليم شنسي بما تحتاج اليه من الأرز •

في عام ١٩٤٩ كان محصول الأرز رديئا ولكن ماوتسي تونج استطاع أن يملأ به جميع البطون مما أذهل كل صيني وجعل مواطنيه ينظرون اليه وكأنه مبعوث السماء لانقاذهم من الفناء •

ورأى ماوتسي تونج أن برنامج السنوات الأولى لاعادة البناء والتعمير يتطلب مواصلة نور الصباح بضوء المصباح حتى تتحقق مضاعفة الانتاج ، ولذلك حرم على مواطنيه الملاهي والتسلية بأنواعها ، وحدد معنى « التسلية » قائلا انها كل ما يحول دون تركيز الصيني لاهتمامه في عمله •

أصدر ماوتسي تونج قرارا بالغاء البغاء ، ولما كان يعلم ان هذا صعب التنفيذ من الناحية العملية لأن النساء سوف يعمدن الى البغاء السري فقد استأنس بما اتخذته يوجوسلافيا في هذا السبيل • عمدت السلطات في يوجوسلافيا الى جمع « بنات الهوى » في فصل الربيع وارسالهن الى مزارع خاصة ليعملن هناك في زرع البطاطس ، فاذا ما حل الصيف عدن الى المدن لتسلية السائحين ، على أن يعدن الى المزارع في الخريف لجمع محصول البطاطس •

ولم يكتف ماو بجمع هؤلاء الفتيات لفترة من العام واطلاق سراحهن فترة أخرى بل أرسلهن الى المزارع على أن يبقين بها ، وقد أدرك بعضهن ما تردين فيه من خطأ فأعلنن التوبة وتطوعن للعمل الدائم في المزارع والمصانع بل على أرصفة الموانئ • ولقد كان العمل على أرصفة الموانئ تجربة قاسية لهؤلاء الفتيات فقد شاهدن هناك البحارة ، وكان كثير من هؤلاء من « الزبائن » القدامى ، ولكن لم يستطعن الحديث اليهم خشية العودة الى السجن ، وبدلا من أن تتبع الفتاة طريق الاغراء والاثارة عمدت الى حمل حقيبة السائح والمضي بها الى حيث يريد ، واذا عن لبسها في

الميناء أن يغازل إحدى « التائبات » القى القبض عليه فوراً - حتى لو كان أجنبياً - وزج به فى السجن . وهكذا أصبحت الدعارة والزنا منذ ١٩٥٠ جرائم يعاقب عليها بالسجن .

يعزو البعض موقف ماوتسى تونج من هذا الانحراف الاجتماعى فى السلوك الجنسى الى عزوفه عن النساء هو وصديقه ليوشاو - تشى والى أنهما من أولئك المتطهرين المتزمطين الذين تضيق بهم المجتمعات الحديثة ، ولكن ماو تزوج ثلاث مرات ، وليو على وشك الزفاف الى زوجته الرابعة وهى فتاة تصغره بخمسة وعشرين عاماً . والحقيقة أن هذا التزمت الذى يبدو من ماوتسى تونج مبعثه نشأته الريفية التى جعلت طبيعته مزيجا من الغيرة والنفور من أن تكون المواطنة الصينية سلعة تتبادلها الأيدي الأجنبية . كذلك كان ماو يكره أن يرى ثروة بلاده تتدفق على الأجانب فينفقون بعضها فى شراء أعراض الصينيات ، وفوق ذلك فاستهلاك الطاقة البشرية فى المصانع والمزارع خير من تبديدها فى العبث ، ومن هنا حرم على الشباب الصينى تبديد طاقته فى القبلات ومطارحة الهوى فى المتنزهات العامة واعتبر ذلك جريمة تقع تحت طائلة قانون العقوبات . وهنا يقول ماو : اذا كان الأورانيوم يتحول الى طاقة كهربية فلم لا نحول الدافع الجنسى الى نشاط يقف فى المصنع أمام المخرطة أو فى المزرعة ليشق الأرض بالمحراث .

موقف ماوتسى تونج من الديانات :-

ولم ير ماوتسى تونج فى المسيحية الا نوعا من اللهو والعبث وانها على كل حال « بضاعة أجنبية » ولو ترك وشأنه عام ١٩٤٩ لقضى عليها نهائيا ، ولكن صديقه ليوشاو - تشى ذكره بأنه لم يضر الاتحاد السوفيتى فى شىء أن ضمن دستوره مادة تنص على حرية العبادة ، ونتيجة لذلك فقد نصت المادة الخامسة من الدستور الصينى على « حرية الضمير » ولكن ماو أصر على ابلاغ الكنائس المسيحية الشروط التى تتم « حرية العبادة » طبقا لها ، وموقفه هنا يذكرنا بموقفه من « الرأسماليين الوطنيين » حينما وضع شروطه لامكان استئناف نشاطهم الصناعى .

ففى يونيو ١٩٥٠ كلف شواين لاي بأن يعقد اجتماعا مع رؤساء الكنائس البروتستانتية . وقد أوضح شواين لاي لهؤلاء أن ماو يكره استمرار بقائهم فى الصين « ولكن طبقا لسياسة التسامح التى تسير عليها حكومتنا ازاء الأقليات » فلا مانع من بقاء الكنائس المسيحية . ثم أضاف قائلا : « لقد بينت الى الرئيس (ماوتسى تونج) أن الكنائس البروتستانتية أدت خدمات اجتماعية عظيمة خلال الحرب الأهلية والحرب ضد اليابان ، وأن كثيرا من المسيحيين وقفوا فى صفوف المحاربين ضد العدو المشترك ، وعليه فقد وافق الرئيس على بقاء هذه الكنائس تؤدى عملها دون عائق على أن البعثات الدينية الأجنبية تعود الى أوطانها وألا يبقى فى الكنائس غير رجال الاكليروس الصينيين فقط ، على أن يكون مفهوما أن أى قس يسافر الى الخارج ليتلقى تعليمه هناك لن يسمح له بالعودة الى الصين » .

ومضى شواين - لاي يقول : « ان الرئيس كان يفضل لو قصر

«الكنائس نشاطها على الخدمات الاجتماعية ولكنه يعلم أن هدفها الأساسي هو السعي لتنصير الصينيين وأنها لو منعت من ذلك العمل لامتنعت عن مواصلة التعليم والعلاج ، ولما كانت الصين في حاجة إلى المدارس والمستشفيات فلنعمل على إيجاد حل وسط يتلخص فيما يلي : سوف يسمح لكم بمواصلة أعمالكم ومحاولة تنصير الصينيين بشرط أن تواصلوا الخدمات الاجتماعية من تعليم وطب . وعلى كل فالشيوعيون والمسيحيون يدركون تماما أن الحقيقة سوف تغلب في النهاية . نحن على يقين من أن عقائدكم باطلة فإن كنا على حق فسوف يرفض الشعب الصيني قبسول عقائدكم وبذلك تفنى الكنائس تلقائيا ، أما إذا كنتم على حق فإن الشعب سوف يتبعكم ، ولكن لا اعتقادنا بأنكم على باطل فنحن على استعداد لمواجهة الموقف . »

وهكذا قبلت الكنائس البروتستانتية شروط ماوتسي تونج كما رضى بها « الرأسماليون الوطنيون » من قبل .

وبعد هذه « الاتفاقية الدينية » اتخذ ماو خطوة جديدة فأنشأ ما يسمى « مكتب العقائد » واقترح على الكنائس المسيحية وأية هيئات دينية أخرى إجراء « تبادل ثقافي » وقال مازحا : « نحن على استعداد لتبادل البعثات التبشيرية مع أى بلد آخر على أساس نظام الحصص ، وإذا قبلت بريطانيا أربعين مبشرا صينيا فسوف نقبل أربعين مبشرا بريطانيا . »

كان من الواضح حتى قبل عام ١٩٤٩ ، أن ماوتسي تونج سيبدل قصارى جهده لمحو الكاثوليكية من الصين ، كان معارضا للبروتستانتية لأنها « شر أجنبي » ولأن شيانج كلى شيك كان من أتباع مذهب وسلي البروتستانتية ، مثله في ذلك مثل أسيرتى كونج وسونج ، ولكن يخفف من كراهية ماو للبروتستانت أنهم قاموا بخدمات اجتماعية طيبة وكانوا بتظاهرون بالوقوف موقف المحايد .

أما الكاثوليك فكلهم في نظره أهل شر وسوء فالغالبية العظمى من قساوستهم أجانب يدينون بالولاء للبابوية في روما ، كذلك كان يعتقد أن نشاطهم الدينى ستار يخفى وراءه عمليات التجسس ، وهذا ما اكتشفه الاتحاد السوفيتى . ومما زاد في كراهية ماو للمبشرين الكاثوليك أن غالبيتهم من الألمان والإيطاليين وهم حلفاء اليابان في الحرب العالمية الثانية . ولقد بدأ ماو في عام ١٩٥٠ خطة منظمة لاضطهاد القسس الكاثوليك مستهدفا التخلص منهم ، وفي نهاية سنة ١٩٥٤ لم يبق في الصين أسقف كاثوليكي واحد ، واقترح شواين - لاي على الفاتيكان تعيين أساقفه صينيين ولكن اقتراحه لم يلق من البابا الا الصمت . هكذا أصبح الاتجاه هو صب البروتستانتية في قالب صينى وممارسة الضغط على الكاثوليكية حتى تختفى من الصين نهائيا ، كما اختفى المذهب النسطورى من العالم المسيحى قبل ذلك بألف سنة .

ماوتسي ، تونج والاسلام :-

يعتبر ماوتسي تونج المسلمين في الصين اقلية عنصرية ويعاملهم على هذا الأساس . ومسلمو الصين لا يكونون عداوة لنظام الحكم الجديد في الصين ، هذا بالإضافة الى أن الدول الاسلامية الكبرى في العالم على علاقات ودية مع جمهورية الصين الشعبية . والمسلمون على العموم يكونون قطاعا صغيرا من سكان الصين ولم يضق المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني بوجودهم يوما من الايام .

والبوذية تدعو الى تجنب العنف والى التعاون ولذلك فان ماوتسي تونج يعتبر أن الخمسين مليوناً من البوذيين في الصين لا يقلون ولاءاً للدولة عن أعضاء الحزب الشيوعي أنفسهم .

ان عملية بعث الصين تسير على قدم وساق ، وكلما استشعر ماوتسي تونج التهاون من مواطنيه ذكرهم بأنهم ان لم يضاعفوا جهودهم اجتاح الامريكيون جمهوريتهم الناشئة ، وهنا يشير ماو الى « العضابات ، في فرموزاو زعيمها شيانج كاي شيك قائلا انها مثال حي على نوايا أمريكا العدوانية .

ويستخدم ماو المعارض للدعاية ضد الاستعمار وخاصة الاستعمار الامريكي ، وحينما تقع حوادث مثيرة مثل ضرب جزيرة كيموي بالقنابل فانه يستغل هذا الحادث لشحن عزائم العمال الصينيين ، وقد تدفع حرب الدعاية والاثارة بماوتسي تونج أحيانا الى طرق خاطئة بل الى حافة الحرب كما حدث في كوريا حين أثار الكوريين الشماليين على غزو كوريا الجنوبية بعد أن أقنعهم بأن أمريكا لن تقامر بخوض غمار حرب عالمية ثالثة ، وكان مانعرفه جميعا من قيام الحرب الكورية واحتلال أمريكا لجانب من شبه الجزيرة ، ولولا مهارة شواين لاي في المفاوضات عند اجتماع مؤتمر جنيف لتسوية المشكلة الكورية لبددت الحرب ما لدى الصين من طاقة زراعية وصناعية .

برنامج التصنيع ومضاعفة الانتاج الزراعي :-

لقد كانت الحرب الكورية حافزا للصين على مضاعفة جهودها في التصنيع وفي الانتاج الزراعي ، ففي نهاية البرنامج الخمسي الاول زاد الانتاج الصناعي والزراعي بنسبة ٦٨٪ وارتفع انتاج الصلب من ١٠٢٥٠,٠٠٠ الى ١٠,٥٠٠,٠٠٠ طن وارتفع انتاج الفحم من ٦٠ الى ١٣٠ مليون طن ، والكهرباء من ٧٠٠٠ مليون الى ١٩٠٠٠ كيلووات ساعة والزيت الخام من ٤٠٠,٠٠٠ الى مليون طن . وارتفع انتاج القاطرات من ٢٠ عام ١٩٥٢ الى ٦٧ عام ١٩٥٧ وعربات البضاعة من ٥٠٠٠ سنة ١٩٥٠ الى ٧٣٠٠ سنة ١٩٥٧ وأنشأ صناعة جديدة في الصين وهي صناعة السيارات وفي عام ١٩٥٧ انتجت الصين ٧٥٠٠ دونج فنج أي سيارة شعبية .

ولكن لا ننسى أن الفترة من ١٩٤٩ الى ١٩٥٧ اذا كانت قد كللت بالظفر في كثير من نواحيها فهي لم تخل من الكوارث . بعض هذه

«الكوارث الطبيعية كالفيضانات وما يعقبها من مجاعات وبعضها بايعاز من ماوتسى تونج نفسه كحرب كوريا وغزو التبت وهناك أيضا بعض حركات التطهير وما يلازمها من حوادث الاعدام نتيجة حماس زائد للماركسية اللينينية من بعض أعضاء الحزب الشيوعى الصينى .»

ماوتسى تونج والماركسية اللينينية :-

فى صيف ١٩٥٧ ألقى ليوشاو - تشى خطابا قال فيه ان الصين تسير فى طريق النصر وأنها فى عملية الانشاء والتعمير تتبع النهج القديم الذى اختطه الاتحاد السوفيتى من قبل . ولكن ليس من الصواب ان تحكم انطلاقا على الاتجاه الفكرى لماوتسى تونج حتى ولو كنت من أقرب المقربين اليه مثل صاحبيه ليو أو شواين - لاي . أن كل ما فعله الرجلان حتى اليوم يثبت أنهما يتبعان « النهج القويم الذى اختطه الاتحاد السوفيتى » ولكن ماو لا يرتاح الى هذا البرأى ، انه يعيد النظر فى الثورة الصينية ، وقد كان ولا يزال يؤمن بأن الثورة الوحيدة التى تتاح لها فرص النجاح فى الصين هى الثورة التى تنبع من مشاعر الشعب الصينى وحاجاته وتعبّر عن مطالبه وأهاليه ..

ولامانع لديه من أن يصبح بحمد لينين وماركس وانجلز بل وستالين نفسه ولكنهم فى نظره آلهة للجميع لا لدولة معينة ، فهم ليسوا ملكا لألمانيا ولا لروسيا ، بل انهم ملك للجميع ، وإذا أردت الحقيقة فهم فى نظر ماوتسى تونج ملك للصين أكثر مما هم ملك لروسيا ، ذلك أن ماو يعتقد أنه « أنقى شيوعى » فى العالم ..

لقد خلعت وفاة ستالين عام ١٩٥٣ أثرا عميقا فى نفس ماوتسى تونج ، هذا على الرغم من أن ستالين هو الذى أصدر من قبل أمرا بطرده من الحزب الشيوعى باعتباره « منحرفا » فهو فى نظره « العظيم الراحل » ، ولكن فيما بينه وبين نفسه قرر أنه مادام آخر « الآلهة » قد زال عن عرشه فقد آن الأوان للثورة الصينية كى تنبذ كل ما هو روسى وتصبح ثورة صينية من جديد . وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ أعلن ماوتسى تونج برنامجا جديدا .

برنامج ماوتسى تونج للثورة الصينية الخاصة :-

منذ عام ١٩٥٨ قرر ماو الايطلب مساعدات من الخارج وقال فى ذلك : « ان الشعب الصينى ليس فى حاجة الى هذه المساعدات » ، فأخذ يعيد الفنين الروس الى بلادهم ويحل الصينيين محلهم ، وكانت المشروعات الجديدة توصف بأنها « مظهر التعاون الأخوى الصينى السوفيتى » ولكن غير الوضع فأصبحت المنشآت توصف بأنها « منشآت قومية مع بعض مساعدات سوفيتية » حتى اللافتات التى تستحث العمال على زيادة الانتاج تغيرت من الشعارات الروسية الى شعارات-صينية تقليدية تحمل صورة التين والأعلام الحريرية والباچودا (المعابد الصينية) ، وحلت الأدوية الصينية القديمة محل الأدوية الغربية وأخذ طلبة الجامعات يتعلمون الحرف الهندسة التى كان يمارسها أسلافهم ويديرسون رسائل العلاج

التقليدية الصينية بجانب الطب الحديث وأشاع العلاج بالأعشاب الطبية والوشم وهي تقاليد صينية قديمة .

لقد اعترض الطلبة الصينيون الذين تلقوا تعليمهم في الجامعات الغربية على محاولة ماوتسى تونج احياء الطب الصينى التقليدى ، أما الفلاحون فقد رحبوا بها أيما ترحيب ، ولم يفت ماو أن يعلق على هذه الظاهرة فقال لصديقه ليوشاو - تشى - : « ان الفلاح الصينى سوف يتزعم الحركة الثورية فى كل ميسادين التقدم ، حتى لو استطاع عامل المصنع أن يسيطر على زميله الفلاح فى الاتحاد السوفيتى » .

ودعما لرايه هذا بدأ مرحلة جديدة ، تلك هى نظام الكوميونات على الرغم من استنكار خروشوف واستهجان ميكويان .

أما الكوميون فهو مجتمع مترابط وثيق الصلة يتكون من خمسين ألفا يفترض فيهم الاكتفاء الذاتى فى حاجاتهم المعيشية اليومية . والمفروض فى كل عضو فى الكوميون أن يكون فلاحا وصانعا وجنديا فى آن واحد . أما ادارة الكوميون فهي مثل التشكيلات العسكرية فهناك رئيس ونائب رئيس للتخطيط والادارة ، وتحتهما قواد الفرق والكتائب الذين يناط بهم تنفيذ الأوامر الصادرة من الجهات العليا على أن يجروا استشارات مع الجملة قبل التنفيذ ، وعلى كل عضو فى الكوميون أن يحمل بندقيته الى الحقل وألا يتناول الطعام وحده فى الدار بل فى مطاعم عامة يتسع كل منها لنحو خمسة آلاف نفس ، أما الطبخ فتقوم به العجائز اللاتي لا يستطعن العمل فى الحقل أو فى المصنع . وفى كل صباح يقوم قواد الفرق والكتائب بتوزيع العمال على المزارع والمصانع .

وما ان يتم توزيع الآباء والأمهات حتى يبدأ توزيع الأطفال فصغارهم الى مربى الأطفال وكبارهم الى المدارس . ويتلقى كل طفل تدريبا عسكريا منذ سن الثامنة حيث يحمل بندقية خشبية ثم يدرّب على الاناشيد الوطنية وخاصة منها نشيد : « تحرير فرموزا » ونشيد « محاربة الاستعمار » .

وفى بعض الكوميونات المتقدمة يفصل الأطفال عن آبائهم وأمهاتهم طوال الاسبوع كما يفصل الزوج عن زوجته على أن يقضى معها يوم العطلة الاسبوعية . ولا يسمح لشخص بالملكية الفردية باستثناء عدد قليل من الخنازير والملابس الضرورية . ويقسم الكوميون بالاشراف على حفلات الزواج ويقدم للعروسين هدية العرس . والصين فى الوقت الحاضر مقسمة الى ٢٧ ألف كوميون .

والكوميون ينتج حاجته من الحاصلات الزراعية على أن يقدم فائض الانتاج الى الدولة وكذلك يقدم العدد والآلات اللازمة له . ويأمل ماوتسى تونج أن يجيء اليوم الذى تستطيع فيه الكوميونات أن تنتج حاجتها من المنتجات الصناعية وان تستخرج ملى باطن الأرض من معادن . ومما يثير الدهشة أنه لم يجيء شهر يوليو ١٩٥٨ حتى كان ٩٨٪ من الصين قد تحول الى نظام الكوميون . وهنا يقول ماوتسى تونج ان الصينيين قد بدءوا يعملون بجهد ونشاط عندما أدركوا ان ما يقومون به ليس « ثورة ماركسيه » ولكنها « ثورة ماركسيه صينية » ولقد استولى على ماوتسى

تونج أخيرا شعور كاسح من الوطنية أنساه كل أحقادها القديمة حتى مع شيانج كاي شيك نفسه ، وهنا يقول ماو : « ان شيانج رجل ذو ماض إجرامي ، ولكنه صيني وإذا فهو من عنصر متفوق ، ويرى ماو أن خير طريق يسلكه الآن لإعادة فرموزا الى حظيرة الوطن الصيني هو أن يبتعد عن سياسة حرب الأعصاب القائمة حاليا بين روسيا وأمريكا ويحل محلها سياسة صينية خالصة سياسة « أخ يدعو أخاه » ومن هنا فقد أوقفت الصين الشتائم التي توجهها الى كاي شيك في اذاعتها لفرموزا وهي ندعوه الى مغادرة « حماة الأمريكيين القذرين » والعودة الى أرض الوطن . ولقد أصبح شعار الصينيين الآن « فلنوحّد الصين » ، وقل الحديث عن غزو فرموزا . وقد لا يأبه شيانج كاي شيك لهذه الدعوة ولكن كثيرا من رجاله يتوقون الى العودة لأهلهم خاصة وأن أغلبهم ليسوا من أهالي فرموزا .

وقد يقال ان الخلاف العقائدي يعد عقبة كثودا في سبيل التقارب بين كاي شيك والشيوعيين ولكن المعروف عن الصينيين انهم لا يهتمون كثيرا بالخلافات المذهبية فالعنصرية لديهم تفوق كل اعتبار آخر .

لاشك ان ماوتسي تونج يحظى بتأييد أبناء وطنه لا في داخل الصين فقط بل في الخارج أيضا ، فهو قد رفع شأن بلاده ونفض عنها غبار الانحطاط والذل اللذين انحدرت اليهما خلال القرن التاسع عشر ، وهو يعمل باخلاص لاسعاد الفلاحين وهم الفئة الحبيبة الى قلبه بنوع خاص من بين فئات المجتمع الصيني . أما العمال فهم على الاقل راضون بنصيبهم في الجمهورية الشعبية .

ويمتاز ماو بملكة خاصة يدرك بها احساس الشعب ومشاعره ، فاذا اشتدت موجة الحماسة في العمل وبذل الزراع والعمال في غمرة هذه الحماسة جهدا فوق طاقتهم أدرك ذلك بغريزته وبأدب بالعمل لوقف الارهاق وأخذ فترة « من الاستجمام » . مثال ذلك أنه في خلال الحملة الكبرى للبحث عن الحديد وانشاء أفران الصهر اندفع الصينيون في العمل بحماسة جنونية حتى بلغ التعب منهم مبلغه . وقبل أن يتثأب العمال من أثر الانهاك ، كان ماو قد سبقهم الى التأثب باحساسه الغريزي ، وهنا كتب مقالا في « صحيفة الشعب » طلب فيه الى الصينيين ان يناموا في اليوم ثماني ساعات على الاقل وأوضح لهم أنه ليس من الوطنية في مثل تلك الفترة أن يواصل أي صيني العمل ويترك نصيبه من الراحة ، وهكذا آوى ستمائة مليون الى فراشهم مبكرين لان في هذا استجابة لرغبة الوالد الرحيم .

ويحظى « الرئيس » بشعبية تفوق حد الوصف ، فحينما بدأ يتجه في سياسته اتجاها صينيا خالصا ويحررها من الارتباط بموسكو صدرت أصوات الاحتجاج من بعض المتزمتين ، ولم يسكت ماو عن هؤلاء المنتقدين لسياسته . وما هي الا عشية أو ضلحها حتى استطاع ماو وصديقه ليو شياو - تشي أن يستأصلا شافة « الاتجاهات الرجعية » دون اراقة كثير من الدماء .

ويسير ماو في بث الفضائل الوطنية والاجتماعية في الشعب الصيني

على مبدأ « قدم نفسك بنفسك » وقد استطاع عن هذا الطريق ان يضع حدا للاداء الشكلى المفتقر الى الحماس والسيطرة وحب التسلط على الغير والانفراد بالعمل دون استشارة من هم أعلى مركزا وأكثر حكمة والأمور الشخصية التافهة « كمسائل الحب والجبال والبحث وراء الحقائق الميتافيزيقية وغيرها » مما يعتبر اضاءة للوقت فيما لا يفيد والظهور بمظهر البطولة والتردد فى تحمل المسئولية وأخيرا التعالى والشعور بالتفوق على الغير .

قد تبدو هذه الاتجاهات فى نظر الغربيين مثارا للتهكم والسخرية ولكنها ليست كذلك فى نظر الصينيين ، فالصينى انسان عملى وما أن تقنعه بسلامة الفكرة وجديتها حتى يؤدى المطلوب منه أحسن أداء .

فى عام ١٩٥٨ أصبح ليو شاو - تشى رئيسا للدولة ، وفى عام ١٩٥٩ قام بحركة تطهير على نطاق ضيق استعدادا لبرنامج « الوثبة الكبرى » . ولم تبلغ الوثبة الحد الذى أراد ماوتسى تونج أن تبلغه ، ولكنها كانت بلا شك « وثبة الى الامام » .

ولكن من الذى يضطلع بأعباء العمل لتوجيه هذا البرنامج التقدّمى الهائل ؟

لقد ظل جهاز « الخدمة المصنية » منذ آلاف السنين الاداة التى أقامت حضارة من أقدم الحضارات الانسانية ، وهذا الجهاز يعتمد على النخبة الممتازة من الطبقة المتعلمة ، ولما ذهب الامبراطورية وحلت محلها الجمهورية الشعبية لم تتغير الأوضاع الا من ناحية الشكل فقط ، فقد اتخذ الحزب الشيوعى الصينى مكان جهاز الخدمة المدنية فى الاضطلاع بشئون الدولة - والحزب الشيوعى الصينى يضم النخبة من الطبقة المتعلمة القديمة وبجانبها الجيل الجديد من خريجي الجامعات .

ويعنى ماوتسى تونج أشد عناية بالتعليم . والطبقة المتعلمة حتى خارج نطاق الحزب الشيوعى الصينى تنظر اليه فى هذه الناحية نظرة تقدير واعجاب . فعندما تولى ماو الحكم كانت نسبة من يستطيعون القراءة والكتابة لا تزيد عن ١٦ ٪ وفى عشر سنوات ارتفعت النسبة الى ٦٠ ٪ . وتضم المدارس الابتدائية والثانوية فى الصين فى الوقت الحاضر مائة مليون طفل وفتى . كما تضم الجامعات نحو ٦٠٠ ألف طالب .

أما حياة ماوتسى تونج الخاصة فهى بدورها تسترعى الانتباه ، فهو يحب حياة الوحدة والزهد والتقشف ، لقد كانت حياته سلسلة طويلة من المشاق والمتاعب وكثيرا ما كانت تشوبها فترات من الضعف والحرمان القاسى . كان طفلا مثالا للتعاسة ، وما أن ابتسمت له الحياة قليلا فى باكورة الشباب حتى انتهت البسمة العابرة بمأساة مؤلمة ، وما أن بلغ مبلغ الرجال حتى خاض معركة كفاح طويل . وهو اليوم يعيش فى بيت صغير فى « المدينة القديمة المحرمة » من بكين مع زوجته الثالثة دون أن ينبج أطفالا . وطعامه قليل ومن نوع متواضع ولا يزال طبقه المفضل هو « صحن الارز بالحضار تعلوه كمية من الفلفل الأحمر » وحببه لهذا الطبق بدأ منذ أن كان فلاحا فى اقليم هونان . فاذا فتحت خزانة ملابسه

فلن نجد فيها غير بعض سترات ذات أزرار تبدأ من أسفل العنق وبعض السراويل ، ولا يأنس كثيرا للضيوف باستثناء ليو شاو - تشيه وشواين- لاي ، وفي هذه الجلسات الأخوية الخاصة يسخر من شو لحبه للأطعمة الفرنسية الشهية ، كما يسخر من ليو لحبه للملابس الفاخرة ويقول ماو ان العيش المتواضع يشحذ الذهن ويبعث القدرة على العمل .

وليس بين كبار سياسة الغرب من يشتغل بجد كما يعمل ماوتسى تونج انه يعمل يوميا سبع عشرة ساعة وينام خمس ساعات فقط . ولا هم له في أثناء فترات العمل الا أن يضيف كل يوم لبنة في بنسباء الصين الحديثة . ويوم ينتهى من اقامة هذا البناء الشامخ فلا يدرى أحد كيف بصدر « نورته الى خارج حدود الصين » .

الفصل العاشر

فى عهد الامتيازات الاجنبية فى الصين كان المواطن الصينى الذى يقدم الى المحاكمة يفضل المحلفين الاوربيين على المحلفين الوطنيين . ذلك .
لانه كان يتوقع الراقة من الاوربى دون الصينى ، ولم يكن يخشى شيئا من هؤلاء الاوربيين ولكنه كان يخشى مواطنيه .

وفى الوقت الحاضر يقول المتفائلون ان ماوتسى تونج لن يوجه الصينيين لغزو العالم لانه يخشى بأس أمريكا والعالم الغربى من ورائها وفى رأينا ان هذا التفاؤل لا يقوم على أساس ذلك لانه لا ماو ولا الصينيين من ورائه يخشون بأس « الأجانب ذوى الأنف الطويل » ، حقيقة أنهم يكرهون الاجانب ويحتقرونهم ، ولكنهم لا يخافونهم ويعتقد الصينى ان كل من هو غير صينى فهو همجى ، واذا كان « الهمج » قد تفوقوا على الصينيين فى القرن العشرين فان الصينى يرى ان هذا تفوق مؤقت ، وتقوم السياسة الخارجية الصينية على أساس ان طبيعة الاشياء المستمدة من ارادة سماوية تقضى بأنه لا بد من أن يلحق الصين بالوكب ثم يتقدم عليه ومن يبرى فقد يجرى . بعد ذلك دور الغزو . واذا كان هناك ما يحول دون غزو الصين للعالم فليس ذلك مصدره الخوف وانما هو الاستهالة والاحتقار .

ان ماوتسى تونج يضم الكراهية للروس لعدة أسباب : فهم انانيون كثيرو الزهو بانهم رواد الثورة الاشتراكية ، ويكرههم لانهم استطاعوا فى فترة ما ان يضلوا ليوشاو - تشى ولكنه استطاع ان يهديه الى الطريق المستقيم وقد عقدوا كثيرا من الاتفاقيات مع الكومنتانج ، وفى عام ١٩٢٧ تنكروا للثورة الصينية التى كان من شأنها ان تضع مقاليد الحكم فى أيدي الحزب الشيوعى الصينى ، وكان من نتيجة تنكرهم ان ماو ظل مشردا لفترة طويلة من حياته وفقد زوجته . وعندما استطاع رجال ماوتسى تونج اختطاف شيانج كاي شيك عام ١٩٣٦ ثارت ثورة الاتحاد السوفيتى وطالب باعادته سالما الى عاصمته نانكنج كذلك رفض الكومنترن الاعتراف بماو كزعيم للشيوعية فى الصين ، ولم يتم الاعتراف الا بعد ان اكتمت الظروف للاتحاد السوفيتى على ذلك .

وفى عام ١٩٤٥ أساء الاتحاد السوفيتى معاملة الشيوعيين الصينيين بأن سلم مدن منشوريا الى الكومنتانج مما سبب للشيوعيين خسائر كبيرة فى الأرواح فيما بعد . هذه اساءات لا ينساها ماوتسى تونج ولا أى مواطن صينى آخر . كذلك لا ينسى ماو ان القوات السوفيتية لا تزال تحتل جانبا من منشوريا وأن اتجاه خروشوف الجديد لانشاء مزارع الحبوب

في الشرق الأقصى قد يخفى وراءه تجميع القوات المسلحة الروسية على حدود الصين . وقد أوضح ماو الى خروشوف بما لا يدع مجالا للشك انه ندله في كل شيء بل ربما يتفوق عليه استنادا الى أن شيوعيته أنقى من شيوعية خروشوف ودليل ذلك نجاح نظام الكوميون مع عجز روسيا فيما قبل عن تنفيذه . ولا يخفى انه حينما اتجه خروشوف لانزال مالنكوف من مركزه السامي ، أصر ماو على أن يؤخذ رأيه أولا وأن يتم ذلك بانتقال خروشوف نفسه الى بيكين ، وليس بانتقال ماو الى موسكو ، ويقول ماو انه ظل زعيما غير منازع للحزب الشيوعي الصيني منذ ١٩٣٤ على حين أن خروشوف حديث عهد بالزعامة ، فلم يتقلدها الا عام ١٩٥٦ . ويعيب ماو على خروشوف عدم المامه بالمبادئ الشيوعية وسياسة التعايش السلمي التي يتبعها مع الغرب .

لقد ظل ماو في خلال عام ١٩٦٠ يسخر من سياسة خروشوف الخاطئة ففي أول ابريل ١٩٦٠ شنت مجلة « العلم الاحمر الصينية هجوما على « الفكرة الخاطئة القائلة بأن طبيعة الامبريالية قد تغيرت منذ أن أصدر لينين تحليله الاول للامبريالية » . وفي ١٥ ابريل من العام نفسه اتخذ الهجوم مظهرا اشد عنفا فقالت المجلة « ان على أولئك المتفائلين (تقصد خروشوف) الذين يعتقدون أن طبيعة الامبريالية قد تغيرت أن يحذروا ، والا فان عملهم هذا يقوض دعائم الاشتراكية في العالم أجمع » .

وفي عيد أول مايو عند اجتماع رؤساء الدول الشيوعية في موسكو أوصى خروشوف الى كوزينين عميله السابق في فنلندا أن يلقي خطابا يقول فيه « : يجب أن تكون على حذر من أولئك الذين يزعمون أن لينين كان ضد التعايش السلمي فالولاء للماركسية اللينينية في هذه الأيام لا يقتضى التمسك بالرأى القديم بأن الامبريالية تقف موقفا عدوانيا . وعلى كل فالتزمت في تفسير أسس العقيدة نكسة لا تقدم » .

ولم يفت ماوتسي تونج أن يرد على هذا الهجوم المقنع ، ففي ٢٥ من يونيو نشرت صحيفة الشعب التي تصدر في بيكين مايلي : « ان المنحرفين (يقصد خروشوف) قد أفزعهم تهديد الامبريالية بالحرب النووية فأخذوا يتوددون الى الغرب ويتوسلون الى السلام بأى ثمن » .

وفي المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الروماني الذي اشترك فيه خروشوف وبنج تشن (السكرتير العام للبرلمان الصيني) القي خروشوف خطابا أكد فيه أن الاتحاد السوفيتي لن يعدل عن سياسة التعايش السلمي والعمل من أجل السلام . وأضاف ان ما قاله لينين منذ زمن من أن الحرب ضد الرأسمالية أمر حتمي لا يمكن قبوله اليوم .

وفي أغسطس رد ماوتسي تونج على هذا الخطاب قائلا : « بما أننا من اتباع لينين فيجب علينا أن نقضى على كل محاولة يقوم بها المنحرفون في الوقت الحاضر لتحريف معنى التعاليم اللينينية » .

وحينما انعقد مؤتمر أقطاب الدول الشيوعية في موسكو في شهر نوفمبر ، شهد من الجانب الصيني ليوشاو - تشي ، وفي هذا المؤتمر اين-

ليو مبادىء لينين فى حين تنكر لهسا ممثلو الاحزاب الشيوعية فى اوربا الشرقية مقتفين اثر خروشوف ، وذلك باستثناء مندوب البانيسا اذ هو الوحيد الذى ايد ليو شياوتشى فى موقفه . ومنذ ذلك الحين أخذ ماو يهمل الممثلين الدبلوماسيين للاتحاد السوفيتى ودول اوربا الشرقية ويركز اهتمامه على « افريقيا والشرق الاقصى » والموقف الآن ؟ .

ان ماونسى تونج يتخذ خطوات عملية لانهاء احتلال الاتحاد السوفيتى لمنشوريا ، ففي منشوريا ٤٥ مليوناً من الصينيين وفى اقليم سينكيانج على الحدود السوفيتية يوجد أكثر من مليون صينى وقد تسلل الى منغوليا الخارجية وهى أحد اذئاب الاتحاد السوفيتى ، وكانت يوما ما جزءا من امبراطورية الصين ، مدد كبير من « المتطوعين » الصينيين . وقد يأتى يوم يرى فيه ماو الفرصة سانحة لعقد معاهدة جديدة للعدالة مع الاتحاد السوفيتى ترد الى الصين بموجبها جميع الاراضى التى كانت سابقا تحت حكم الصين .

فاذا انتقلنا الى الجانب السوفيتى نجد حذرا شديدا وقلقا ظاهرا من اتجاهاات ماوتسى تونج المذهبية والعلمية . ولندكر هنا قصة طريفة ، فقد وجه أحد الأمريكيين سؤالا الى السفير السوفيتى فى واشنطن عما اذا كان من المستحسن أن يعلم ابنه الروسية ، وهنا رد السفير قائلا : « اذا كنت متفائلا فعلم ابنك الروسية ، أما ان كنت متشائما فدعه بتعلم الصينية » .

هل يحدث صدام صينى - سوفيتى يحاول فيه كل منهما ان يقضى على الآخر ؟

لقد بنت بريطانيا سياستها فيما بين ١٩٢٠ ، ١٩٣٩ على أساس انه سوف يحدث صدام مهلك بين المانيا وروسيا . ثم جاءت الحرب العالمية فقلبت الاسس البريطانية رأسا على عقب . وقد يراود الغربيين الامل فى أن يدعوا خروشوف يبتلع الصين فى مقابل تخليه عن دول اوربا الشرقية ، ولكن هذه آراء خاطئة . ذلك أن ماوتسى تونج ، على الرغم من كراهيته للروس ، فهو ينظر الى موسكو ، كما ينظر المسلم الى مكة ، حتى ولو كان هذا المسلم مستهترا غير مكترث بشعائر دينه ، فهى مثابته وقبلته .

ومهما يكن من أمر فلن يرتكب جريمة قتل أخيه ، أما السيطرة على العالم الشيوعى فاعتقاده انها من نصيب الصين حتما ، ان عاجلا أو آجلا . أما أن يقبل الروس زعامة صينية فهذا ليس بمستغرب ، فقد قبلوا زعامة قس مارق من جورجيا وفلاح اوكرانى . وسياسة الصين الخارجية التى يضع خططها العريضة ماوتسى تونج وشواين - لاي ويسهر على تنفيذها تشن - يى ، تقوم على التعاون « غير الودى » مع البلاد الآسيوية الاخرى من شيوعية وغير شيوعية وعلى درجات متفاوتة من العداء مع الدول الرأسمالية وفى اوربا ، ولكن عدو ماو رقم واحد هو أمريكا خاصة اذ أنها السبب فى حرمان الصين الشعبية من مقعدها الشرعى فى مجلس الامن والامم المتحدة . ولا يهتم ماو بالامم المتحدة وعضويتها وكل مايرغبه

هو ان تتاح له الفرصة من وقت لآخر لسماع شكوى الشعوب الاخرى. من الصين ورأى هذه الشعوب فيها ، وكذلك ليضيف صوتا جديدا للكتلة السوفيتية والكتلة الافريقية الآسيوية ولا ننسى أنه ما دامت الصين خارج أبواب الأمم المتحدة فإن الهند هي المتحدثة باسم الشعوب الماونة ، ويرى ماو أنه اذا كان هناك من يحق له التحدث باسم هذه الشعوب فهي الصين الشعبية .

ويعلق ماوتسى تونج على سياسة أمريكا قائلا : « انها سياسة خرقاء تتسم بالغباء ، وأكبر مظهر لذلك احتفاظها بشيانج كاي شيسيك فى فرموزا . كذلك يرى ان سياسة أمريكا الخارجية أسوأ من سياسته بريطانيا ، ذلك أن أمريكا تضع شعوب البلاد المتخلفة تحت سيطرة. حكام فاسدين كما هو الحال فى أمريكا اللاتينية أو تتركهم وشأنهم لحكم الامراء كما هو الحال فى بعض البلاد العربية وتكتفى باستخدام الدولار لاختضاع هذه البلاد لمشيئتها .»

ماوتسى - تونج والحكومات الموالية للغرب فى الشرق الأقصى : -

١ - فرموزا وكوريا الجنوبية : -

ينمى ماو على أمريكا أنها بعيدة عن الواقعية وهى فى ذلك تخالف حليفها الرأسمالية بريطانيا ويقول انها سوف تجنى ثمرة مرة لتعاميها عن الواقعية . ويأمل ماو ان يجرى يوم تنهار فيه حكومة كاي شيك أو ينحاز خلفه الى جانب « الوطن الكبير » ويسلم تلك القاعدة الأمريكية (فرموزا) الى الصين الشعبية وهناك تقع أمريكا فى حيص بيص ويعتقد ماو أن هذا لابد أن يحدث يوما ما ، ويبنى اعتقاده على ماحدث من قبل فى كوريا الجنوبية لحكومة سنجمان دى التى أقامها الأمريكيون .»

٢ - كوريا الشمالية : -

يعتقد ماو أن كوريا الجنوبية سوف تنضم الى كوريا الشمالية ويعزو ماو السبب فى عدم اتحاد كوريا الشمالية والجنوبية الى السياسة الروسية الخاطئة فبدلا من أن تدع روسيا الشعب الكورى يعمل على تشكيل حكومة ائتلاف ديموقراطية أخذت تضغط على هذا الشعب لتكوين مزارع جماعية وأممت الملكية الفردية وعلى العموم تجاهلت الامانى القومية للشعب الكورى الذى كان يكره أى تدخل أجنبى حتى ولو كان من صديقه روسيا .»

٣ - اليابان : -

يقول ماو أن محاولة أمريكا تحويل اليابان الى ديموقراطية على النسق الأمريكى خطأ فاحش ، ذلك ان الديموقراطية التى يفهمها اليابانيون هى من نوع « الدكتاتورية الديموقراطية » . وهذه ان تحققت فى اليابان فسوف تكون معادية لأمريكا . ويضعف ماو قائلا : « اذا كانت

أمريكا تريد «يابانا» قوية تستطيع الوقوف في وجه الصين فلتتركها تعود إلى عبادة الإمبراطور وإلى الشركات الاحتكارية الكبرى أما أن تجعل من اليابان منطقة نفوذ أمريكي فهذه سياسة غير مفهومة ، وتخطيء أمريكا كل الخطأ إذا اعتقدت أن اليابان الديمقراطية سوف تقف حائلا دون امتداد تيار الشيوعية ، فهي بذلك تتجاهل مصالح اليابان الحقيقية ومصالح اليابان في آسيا وليست في أمريكا .

ماوتسى - تونج وبريطانيا :

يرى ماو أن بريطانيا لم تعد عدوا يخشى بأسه ولا منافسا خطيرا للصين في الشرق الأقصى ويعتقد أن الصين سوف تستطيع في عام ١٩٦٨ أن تلحق ببريطانيا في الانتاج الصناعى ، وتنتزع منها أسواق الشرق الأقصى وجنوب شرقى آسيا ويضرب مثلا لذلك الدراجات فيقول أن الدراجات الصينية أخذت تزاحم الدراجات البريطانية في جنوب شرقى آسيا وإن كانت أقل منها جودة في الصناعة لكن أثمانها رخيصة وفي هذا اغراء للشعوب الفقيرة .

ويتحدث عن هنج كنج فيقول « أن عقد امتيازها ينتهى عام ١٩٩٨ .ولسوف ننتظر ذلك اليوم فهو ليس منا ببعيد » وعلى كل لوجودها في آيلدى بريطانيا فى الوقت الحاضر لا يخلو من فائدة للصين الشعبية .

ماوتسى - تونج والدول الاسيويةوالافريقيةودول الشرق الاوسط :

إن موقف ماو من هذه البلاد المختلفة يختلف من بلد إلى بلد . فسياسته نحو الهند مزيج من المجاملة والكراهية والحسد . ويقول ماو إن الهند تلعب « لعبة تيتو » فهي تحاول أن تكون صديقة للطرفين الرجعى والتقدمى . وهو يكره نهرو وشخصيا لأنه كان جريئا فى كتابته ضد الماركسية وهذا مالا يغتفره له ماو .

أما دول جنوب وجنوب شرقى آسيا فيقول ماو أنها كانت يوما ما تدين بالولاء والتبعية لامبراطورية الصين ، ومما يبعث على ارتياحه تسلل بضعة ملايين من الصينيين إلى كمبوديا وتايلاند وبورما والملايو ، على أمل أن يشكلوا يوما ما « تحالفا أخويا » بين هذه البلاد والصين الشعبية .

ويرد ماو على الفكرة القائلة بأن بعض دول جنوب شرقى آسيا تقع تحت سيطرة أمريكا فإن هذا وضع مؤقت إلا إذا أقامت هذه البلاد من الحشود العسكرية ما يصبح خطرا على الصين فهنا لابد من استئصال الخطر قبل أن يستفحل ، ويضرب لذلك مثلا حملة لاوس عام ١٩٦٠ . ويفضل ماو فى الوقت الحاضر أن ينفق ثروة الصين ويعبئ قوتها البشرية لرفع مستواها وبذلك تصبح موضع اعجاب الشعوب الاسيوية الاخرى ، وبعد الاعجاب يجرى دور الصداقة ثم التحالف .

ويركز ماو اهتمامه الأكبر على افريقية ، وهو لا يهتم بشمال

افريقية الغربى ولا بالشرق الاوسط الا بقدر ما تتعرض له هذه المنطقة من عدوان استعمارى وهو يتخذ موقف الحياد فى النزاع القائم بين ناصر وقاسم لانه معجب بالرجلين .

ولنعد الى ماوتسى تونج وافريقية فنقول انه لا يتوقع ان تثير خلافاته المذهبية مع خروشوف اهتماما كبيرا فى افريقية ، ولكن يأمل ان تثير التجارب - التى مر بها بعض الاهتمام فى هذه البلاد - فالثورة الصينية تمثل كفاح شعب حرم الانتاج الصناعى ولم تكن لديه طبقة عاملة ووقع تحت سيطرة استعمارية واستغلال أجنبي وهذا هو ما حدث فى افريقيه لا بل ان العناصر الاستعمارية التى استغلت الصين (بريطانيا وفرنسا) هى نفسها التى استغلت الافريقيين . ويقول ماو ان غانا وغينيا ونيجيريا وتوجولاند يجب ان تقيم حكوماتها المستقلة على نظام صينى ، أما المستعمرات البرتغالية وجنوب افريقية فهى مناطق فى حاجة شديدة الى ثورة كالثورة الصينية ويبدى ماو لهفة على تقديم العون لمثل هذه الثورة .

فى ٢٥ يونيو ١٩٥١ تحدث أحد المعجبين بماوتسى تونج عن اهتمامه الخاص بافريقيا فقال « ان نظرية ماوتسى تونج فى الثورة الصينية يعتبر تطورا جديدا فى الماركسية اللينينية فى ثورات البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة . وهذه النظرية ليست ذات دلالة خاصة للصين وآسيا ، ولكنها ذات دلالة عامة شاملة للحركة الشيوعية العالمية » .

كان عدد الصينيين الذين يوجهون اهتمامهم السياسى لافريقية حتى عام ١٩٥١ محدودا جدا ، وكانت هناك جاليات تجارية صينية على ساحل افريقية الشرقى والغربى وبعض أفراد من الصينيين متناثرين فى أماكن مختلفة من جنوب افريقيا ، ولما حققت الثورة الصينية نجاحا اثار نجاح ، اتصل هؤلاء الصينيون الذين يعيشون فى الخارج بوطنهم وأعلنوا تضامنهم مع النظام الجديد فى الصين ، وقد احتضنتهم الصين الجديدة وجعلت منهم « هيئة استعلامات » لها فى الخارج ، تزود وزارة الخارجية الصينية بالمعلومات عن البلاد التى يعيشون فيها . ولما تجمع لدى وزارة الخارجية الصينية مايكفيا من معلومات عن آسيا وجهت اهتمامها نحو افريقية . وفى أثناء الاضطرابات التى حدثت فى افريقية الغربية سواء البريطانية أو الفرنسية ، قرر ماوتسى - تونج ان يضع نظرية عن ثورات المستعمرات وأشباه المستعمرات موضع التجربة فى هذه المنطقة - فبدأت الجاليات التجارية الصينية فى الازدياد ، وكلما وجدت حكومة الصين الشعبية عقبات فى سبيل تسلل الصينيين الى بلد ما (كما هو الحال فى اتحاد جنوبى افريقية) عملت الى تجنيد عدد من الهنود لخدمة الاستعلامات الصينية وخاصة فى ميناء دربان فى ناتال . ولم تجد الصين الشعبية حينذاك صعوبة فى استخدام هؤلاء الهنود . فقد كانت علاقتها بالهند طيبة جدا وما جاء منتصف عام ١٩٥٨ حتى كانت مراكز الاستعلامات الصينية ممتدة على طول ساحل افريقية الغربى من لاجوس الى داکار ، وكذا على طول السساحل الشرقى من مصر الى اتحاد جنوب افريقيا . والصعوبة التى وجد ماو نفسه أمامها هى اختيار بلد فى هذه المنطقة

ليكون قاعدة يتجمع فيها أكبر عدد من « الفنسين. الصينيين والمهيجين والمنظمين » وكانت روسيا في ذلك الوقت تسعى للغرض نفسه . وقد اختار ماو شرقى افريقية في حين فضلت موسكو الساحل الغربى للقارة .

وفى أكتوبر ١٩٥٨ أعلنت غينيا استقلالها . ولما كانت الدولة الناشئة مجردة من كل المواد ماعدا بعض كميات من البوكسيت ومن انتاج الموز فقد أخذ زعيمها سيكوتورى يتطلع الى اصديقاء لينقلوا بلده مما هو فيه من متاعب .

كان هذا الزعيم قد تلقى دراساته فى أحد المعاهد السياسيه السوفيتية فى براج وأكمل الدراسة فى العاصمة السوفيتية نفسها . وهنا أخذ الغرب يفيق من غفلته فعينت بريطانيا قائما بالاعمال واشترت ألمانيا الغربية من سيكوتورى محصول الموز . ولكن لم يمض أسبوع على اعلان الاستقلال حتى كان فى غينيا خمس بعثات شيوعية من روسيا وألمانيا الشرقية وتشكو سلوفاكيا ، ولما ثبت بعد عام ان سيكوتورى سياسى أكثر نجاحا من نكروما فى غانا وأنه فاز باعجاب وولاء الجانب الأكبر من افريقية الغربية كثر أفراد هذه البعثات . وفى ديسمبر ١٩٥٩ كان فى كوناكرى أكثر من خمسمائة من أعضاء الهيئات الدبلوماسية فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ، وتقدم الاتحاد السوفيتى بمشروعات لاقامة محطة للاذاعة تستطيع نشر الانباء من مدينة كوناكرى فى الشمال الى مدينة جوهانسبرج فى الجنوب وافتتاح معهد سياسى فى كوناكرى تحت اشراف سوفيتى لتدريب أبناء المستعمرات الافريقية الاخرى على نظم الحكم عندما يعلن استقلال بلادهم . ويبدو أن بريطانيا توقفت عن « معركة التسابق على غينيا » بعد ان وجهت الدعوة الى سيكوتورى لزيارة لندن وأقرضته عشرة ملايين جنيه استرلينى ولما أدركت وزارة الخارجية الامريكية ان كوناكرى أصبحت مركز الجاذبية السياسية والدينية فى افريقية بدأت تزايد تمثيلها فى هذا البلد باطراد . أما الصين فكان لها فى غينيا خمسة وعشرون وطدوا علاقاتهم مع الغينيين وبدعوا يعلمونهم بناء السلود بلا آلات على « الطريقة الثورية الجديدة » وينشرون بينهم فكرة ان القرية الافريقية صورة طبق الاصل من الكوميون الذى أنشاه ماوتسى تونج فى الريف الصينى . وهذه الصورة من الكفاح والتسابق سوف تتكرر فى كل بلد فى شرقى أو غربى افريقية يحصل على استقلاله ولما كانت روسيا قد سبقت فثبتت أقدامها فى غينيا فمن المحتمل ان تصبح غينيا وما حولها من بلاد ساحل افريقيا الغربى منطقة نفوذ سوفيتى ، أما شرقى افريقيا وجنوبها فمن المحتمل أن يعمل بتوجيه صينى . ويعلم ماوتسى تونج أن لديه ثلاث ورقات رابحة فى محاولة الفوز باكتساب الافريقيين الى صفه ، فهو قد انتشل بلاده من الحضيض الاستعمارى الى دولة عالمية كبرى فى عشر سنوات فقط ، وهو ليس « رجلا أبيض » بل هو ملون كالأفريقيين ، والنقطة الثالثة وقد تكون الأكثر أهمية ان ماوتسى تونج له ماض طيب مع المسلمين فى كل مكان . ومن الظواهر التى تسترعى الانتباه أن المسيحية أخذت تضمحل فى افريقية فى السنوات الأخيرة فى حين أن هناك بعثا جديدا للإسلام ولقد اعتنق

الاسلام فى افريقية أكثر من أربعة ملايين منذ عام ١٩٥٠ وغالبية هؤلاء كانوا من المسيحيين ، ذلك ان الاسلام الذى لا يستلزم وجود رجال الاكليروس « الببض » ولا الاوثان « الببضاء » يجتذب الافريقيين • وماوتسى تونج لا يضيق بالاسلام كما لا ينجذب اليه •

ونشاط الصين الخارجى لم يبلغ حتى الآن فى مداه ولا فى قوته حدا يثير الجزع ، ولكن لن يجرى عام ١٩٧٠ حتى تكون المعركة من أجل السيطرة على افريقية على أشدها بين الشرق والغرب •

ويوجه ماوتسى تونج كل اهتمامه فى الوقت الحاضر لشئون الصين الداخلية ويحاول ان يبدو فى نظر العالم الخارجى رسول سلام ومودة ، وسوف يواصل استفزاز الهند وجزر كيموى ليذكر العالم عامة وآسيا خاصة أن الصين بلد قوى وكفى • ولو أن السلام مسألة نسبية الا أن ماوتسى تونج قد أمضى الجانب الأكبر من حياته جنديا فى الصف الاول من المعركة • وهو يعتقد ان العمل حافز على النشاط العقلى والبدنى ويروى عنه انه قال ذات مرة « أنا أشكو الامساك • وهذا هو سبب تفضيلي لحياة الجندي • لم تطلق أمعائى انطلاقا جيدا الا يوم كنت أخوض المعركة للاستيلاء على تشانج شا • ومن يدري فقد يخطر بباله يوما أن يصلح معدته ويطلق أمعائه تغزو العالم •

تم الكتاب

فهرس

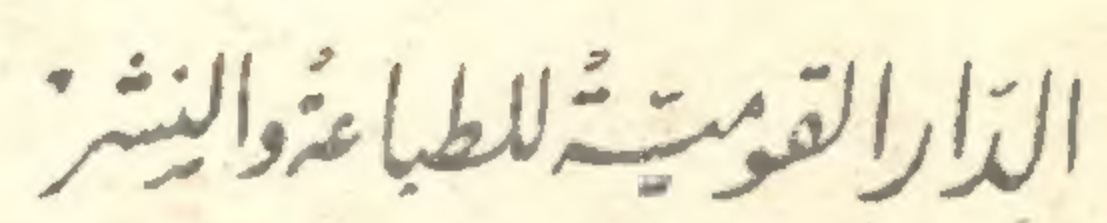
الصفحة	الموضوع
٣	تقديم
٥	نبذة تاريخية
٨	الفصل الأول
٢١	الفصل الثاني
٣٨	الفصل الثالث
٥١	ماوسى تونج يعتنق الشيعوية
٥٤	الفصل الرابع
٧٠	الفصل الخامس
٨٣	الفصل السادس
٨٦	الفصل السابع
١٠٣	الفصل الثامن
١٠٩	الفصل التاسع
١٢٢	الفصل العاشر



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - روضة الفرع

البريد ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



£1.12 / £.753 }
 £.814 / £.588 } **تفین**